



كتاب جماعي

الجزء الأول

تقديم الدكتور : إبراهيم القادري بوتشيش

تنسيق :

جواد التباعي

عبد العلي المتليني

مولاي الزهيد علوي

2021





كتاب جماعي

تقديم الدكتور :
إبراهيم القادري بوتشيش

تنسيق :
جواد التباعي عبد العلي المتليني مولاي الزهيد علوي

2021

كتاب: مغرب التنوع: مباحث في التارخ والتراث

تأليف : كتاب جماعي

الطبعة الأولـى : 2021



الإيداع القانوني: 2021MO0644

ردمـــك: 978-9920-33-075-6

مطبعة وراقة بلال - فاس / المغرب

الهاتف / الفاكس: 05.35.61.86.03

العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل / النرجس - فاس



اللجنة العلمية:

الدكتور لحسن تاوشيخت:

. أستاذ بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط.

الدكتور جمال حيمر

أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة المولى إسماعيل مكناس.

الدكتور إبراهيم الجهابلي:

. أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة المولى سليمان بني ملال.

الدكتور عبد الكبير حميدي:

. أستاذ الدراسات الإسلامية بالكلية متعددة التخصصات جامعة المولى إسماعيل الراشيدية

الدكتور مولود عشاق:

. أستاذ مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الرباط سلا القنيطرة.

الدكتور لحسن أوري:

. أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

الدكتور أحمد البوزيدي:

. أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة المولى إسماعيل بمكناس.

الدكتور عبد العزيز الطاهري:

. أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط.

الدكتور محمد لملوكي:

. أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر بأكادير.

تقديم:

بقلم الدكتور: إبراهيم القادري بوتشيش.

يعدّ كتاب **"مغرب التنوع: مباحث في التاريخ والتراث"**، محاولة تركيبية لمشاهد تاريخية تراثية متنوعة، وسفر علمي ممتع في فضاءات حقب من التاريخ المغربي، وإبحار في كنوز مخزونه الحضاري عبر أحيازه الزمنية والمجالية، ومساهمة جادة في إماطة النقاب عن غنى الحضارة المغربية، وثقافة ساكنتها المتعددة الأصول، في المركز كما في الهوامش.

أحسب أن الخيط الناظم لهذا الكتاب يتجسّد في عدة مفردات مفتاحية، أهمها مفردة التنوع، وهو التنوع الذي سجّلته النصوص السردية لرحالة العصور الوسطى، ونوّه به الرحالة الأوروبيون من طينة شارل دوفوكو، وجيرهارد رولفس، ومونغو بارك وغيرهم. وقد انعكست تيمة التنوع في المجالات البحثية التي حبّرها المساهمون في الكتاب، وتوزعت ما بين مجال المرأة والزوايا والتصوف، والتراث المادي واللامادي الذي تغصّ به بعض الخزانات، والتنوع البيولوجي العرقي والبيئي واللغوي والديني، والتعدد الثقافي؛ ناهيك عن الدراسات المونوغرافية التي ركّزت بدورها على التنوع في بعده الجمالي والمعماري الممتدّ عبر خريطة جغرافية تجمع بين المركز، والمجال النائي المهمّش، ونقصد به المجال الواحي والقروي والجبلي، وهي المجالات المنسية والمهملة في التاريخ، على الرغم من دورها الحضاري المائز، الذي يحفّز على المزيد من الحفريات في أركيولوجيا المعرفة وفق تعبير ميشيل فوكو، لاكتشاف ما تخفيه ترسّبات طبقاتها المنجمية التراثية، والتجديف بعمق لاستخراج دررها الفارهة.

تزداد طرافة هذا الكتاب بالنظر إلى أنه مؤلف جماعي لثلّة من الباحثين الشباب، المتعطشين للنهل من الزاد المعرفي المستمدّ لا من التراث المغربي الماثل للعيان فحسب، بل أيضا من الجانب المتواري وراءه، ومن تماهي الإنسان معه. لقد اقتنع هؤلاء أن العمل الجماعي يشكّل قاطرة للصناعات الثقافية والإشباع المعرفي، وأن التنوع داخل الوحدة، وتعدّد الرؤى ضمن دائرة النقاش العلمي الهادف، يعدّ أداة من الأدوات التي ترق بالفكر التاريخي إلى مراتب النضج، وإلى إتقان بناء الأسئلة التاريخية، وتنظيمها تنظيما نظريا سليما ومبدعا.

يتألف الكتاب من عشـرة مقالات، اختار لها المساهمون عناوين دالة على أحداث ومجريات نحتت بصمات في تراثنا الثقافي عبر حقب تاريخية متنوعة، مستندين في قراءتهم لهذا التراث الثري على أدب النوازل، والأدب الجغرافي وآداب الحسبة، وعلم الطوبونيميا، فضلا عن الوثائق المتنوعة المكتوبة والأثرية، مما جعل إسهاماتهم قراءة في التاريخ الصامت والرموز المغيّبة، وسدّا لبعض الفجوات والشقوق التي ظلت عالقة بتاريخ المغرب المهمّش الذي كان ينعته المقيم العام الفرنسي ليوطي "بالمغرب غير النافع". في حين أن هذه الأبحاث منحته صفته التاريخية الحقيقية، وهي مغرب الانفتاح، والطريق "الأم" لتفاعل الحضارات، بفضل ما تتميز به تلك المناطق الهامشية تاريخيا، من موقع استراتيجي يولّف بين كافة الكتل الحضارية.

وفي هذا المنحى الاستكشافي، تمكن الباحثون الشباب بفضل نفسهم القوي، وعدّتهم المصدرية، من تشخيص أوضاع المرأة بسجلماسة في القرن التاسع الهجري، من خلال إبراز ممارستها لحرف ووظائف تخطت بها الحاجز الذكوري، وفرضت نفسها كفاعلة في تاريخ المنطقة اجتماعيا واقتصاديا.

كما ألقى الكتاب أشعة من الضوء على جوانب من الإسهام الذي قامت به الخزانة العياشية بالأطلس الكبير الشرقي، لتشجيع الحراك العلمي ببلاد المغرب الأقصى خلال الفترة السعدية والعلوية، مما جعلها قبلة لطلاب العلم، ونواة علمية منافسة لكبريات خزانات الحواضر المغربية خلال القرن 17م على المستوى الثقافي.

وعلى النهج ذاته، صوّب بعض المساهمين في الكتاب النظر إلى عالم الزوايا والتصوف والتديّن الشعبي سواء بمنطقة الغرب، أو بمنطقة تافيلالت لرصد الارتباط الوثيق بين الزوايا والقبائل، والكشف عن دور الولاية والصلاح في تحقيق التوازن السياسي والاجتماعي، واستنبات تربة التعايش بين مختلف الإثنيات والطوائف الدينية.

وارتباطا بتاريخ الحماية وما أفرزته من تحولات بنيوية، عالجت إحدى الدراسات موضوع الأشغال العمومية وأثرها في التحولات السوسيو-اقتصادية في بلاد الشاوية ما بين 1907إلى 1925، فوقفت على الأسلوب الذي نهجته فرنسا من خلال إطلاقها مشروع الأشغال العمومية، في مسعى لإخضاع منطقة الشاوية، وإحداث تغيرات جذرية بها، ممّا مهّد لانصهارها في المشروع الاستعماري.

وفي سياق مواز أيضا، كشفت إحدى المقالات الواردة في الكتاب عن الجوانب الملتبسة من السياسة الاستعمارية الفرنسية بمنطقة زيان التي كانت تستهدف تطويعها والهيمنة عليها، نظرا لموقعها المتميز، فأنشأت في إطار عملية الإخضاع مجموعة من المراكز العسكرية لتطويق المقاومة الزيانية وبسط سيطرتها عليها.

ويبحر بنا الكتاب كذلك نحو منطقتي غريس وفركلة بالجنوب الشرقي المغربي، من خلال النبش في نصوص الأدب الجغرافي، لتحديد موقع الواحات داخل المنطقتين، ورصد المشاهد التي تشكلت في مخيال الجغرافيين والرحالة حول المجال والإنسان بهما.

وحظيت منطقة سوس أيضا بدراسة مكّنت من استجلاء جوانب من المخزون التاريخي والسياسي والاقتصادي والثقافي لمنطقة سوس، بحكم ما كان لها من تأثير إيجابي على المستويين الإقليمي والعالمي عبر التاريخ، بفضل ثقل وزنها الاقتصادي، وإشعاعها العلمي.

ولعلّ ما يضفي قيمة على هذا الكتاب، توظيف بعض الأبحاث المقاربة الطوبونيمية، لاستجلاء معاني أسماء المواقع والأماكن الأمازيغية، سواء بمنطقة زيان التي طالتها التحريفات على مرّ التاريخ، أو أسماء بعض أبواب الحاضرة الإسماعيلية، حيث استنطق الباحثون مضمرات مدلولاتها الحضارية والتاريخية من معطيات مستمدّة من علم التأثيل اللغوي، والأصول التاريخية، أو من التراث الشفهي.

وأختم هذا التقديم بتثمين هذه التجربة الشبابية التي أعتبرها تمرينا فكريا ناجحا، اعتمد أسلوب الفريق المتكامل، ومواصلة السير في درب مشاريع السلف. وأهنئ كل المساهمين في الكتاب على جهدهم واجتهادهم، راجيا لهم اكتمال تجربتهم الواعدة، وأعتبر هذه الباقة العلمية الخطوة الأولى في طريق ألف خطوة التي تنتظرهم، والله الموفق.

مكناسة الزيتون في 9 يناير 2021

كلمة لجنة التنسيق

يعتبر المغرب من البلدان المتوسطية الغنية بمخزونها الثقافي والحضاري، والذي يتسم بتنوع لا حدود له، وذلك بفضل ما راكمته الأجيال المتعاقبة بهذا البلد من تراث فكري وفقهي وتاريخي وأثري ومعماري أصيل، أصالة وعراقة الإنسان والحضارة بمجال ما سمي بالعالم القديم، حيث يقع المغرب الأقصى في منتهى الطرف الجنوبي الغربي لضفته السفلى.

لقد اسهم الموقع الجغرافي المهم والمتميز للمغرب في خلق دينامية ثقافية، وحركية في البناء الحضاري للمنطقة والمجالات المتصلة بها بشكل لا تخطئه العين، تشهد عليها الآثار المادية والفكرية الكثيرة والمتعددة في كل المجال المغربي، والمتمثلة في المنشآت واللقى الأثرية، والمباني التاريخية القديمة والعصرية، ثم الدينية والعلمية والاجتماعية، علاوة على الإعلام البشرية التي ذاع صيتها في كل اتجاه وناحية، ناهيك عن عادات وتقاليد تراثية مرعية...، فمكن ذلك البلاد من امتلاك قدرات لامتناهية في بناء تفاعلات جيو- تاريخية بين مكونات مجالية وبشرية عديدة، ساهمت جميعها في بناء صرح الحضارة المغربية بشكل خاص، بالموازاة مع تحديد شخصيته الثقافية المتعددة، ثم الإسهام الفعال في رسم جزء من معالم الحضارة الإنسانية عموما.

إن التميز الفريد لتاريخ المغرب المجيد، وتراثه الثقافي العتيد، المتنوع بتنوع مجالاته وقبائله، ولغاته ولهجاته، وأعراقه وإثنياته، قد مكنت المجتمع المغربي عبر تاريخ طويل ، من النجاح في دمج هذه العناصر داخل نسيجها الحضاري، خاصة في ظل تحدي العولمة التي أضحت تكرس مقولة القطب الثقافي الواحد، مما دفع بالفاعل الثقافي المغربي، وبالمثقف والمشتغل في حقل الفكر إلى طرق أبواب التراث، وإعادة الاعتبار لمختلف مواضيعه وقضاياه ، واستثمار مكامن القوة في ثناياه، والتركيز على الجوانب الإيجابية في متونه المحفوظة والمنقولة ، لتمنيع الثقافة والتراث المغربي من كل أشكال الانصهار والذوبان التام، في قيم وتراث الأخر المختلف الرافض للتعدد والتنوع.

من هنا جاء هذا الكتاب في إطار مبادرة من مجموعة من الباحثين الشباب لإبراز بعض مظاهر الغنى والتنوع في تاريخ وتراث المغرب وتثمينها، لتساهم مساهمة فعالة في تشكيل الحيز الترابي الذي نعيش فوقه بناءً على أسس ثقافية وتاريخية، من خلال مجموعة من

المقالات المختارة التي نطمح لأن تكون فاتحة لدراسة مظاهر وجوانب أخرى في أجزاء مقبلة بحول الله .

يتضمن هذا الكتاب الجماعي دراسات مختلفة أطرناها بعنوان جامع هو"**مغرب التنوع: مباحث في التاريخ والتراث**"، وهو عنوان يعالج قضايا مختلفة تعكس جوانبا من الاهتمامات المعرفية والمنهاجية لبعض الباحثين الشباب، تغطي مراحل تاريخية مختلفة، من الوسيط إلى المعاصر، ويجول بمجالات جغرافية متعددة بين سوس وتافيلالت والأطلس المتوسط ومنطقة سايس والغرب ثم الشاوية، كما تتنوع مواضيعه لتحوي ما هو سياسي واجتماعي وفكري وطوبونيمي.

نقدم للقارئ والمهتم في هذا الجزء الأول من الكتاب طَبَقًا متنوعا من المواضيع يغلب عليها الجانب التاريخي، في أفق الانفتاح في الأجزاء المقبلة على باقي الحقول المعرفية المؤلفة للعلوم الإنسانية الأخرى، وفي كل دروب الفكر والثقافة، بحيث سنعول على ثلة من الباحثين باختلاف تخصصاتهم المعرفية، وبكل أجيالهم ولغاتهم، في إغناء هذه التجربة بقضايا ومواضيع تخدم الكتاب وأهدافه الأسمى، وتغطي باقي المجالات والحقول المعرفية الأخرى، شرطها الوحيد، وميثاقها الغليظ، هو التقيد بالنزاهة الفكرية والعلمية، والموضوعية وأخلاقيات البحث العلمي والأكاديمي

"ومن لا يشكر الناس لم يشكر الله"، فإننا نتقدم بالشكر الجزيل **لكل من ساهم بفكرة أو كلمة أو خطوة مباركة في هذا الكتاب**، ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نجدد التعبير باسم كل المساهمين في هذا المؤلف عن كبير الشكر والامتنان **لكل الأساتذة الذين ضحوا بوقتهم لتحكيم مقالاته وتصويب هناته**، فمهما نطقت الألسن بأفضالها، ومهما خطت الأيدي بوصفها، ومهما جسدت الروح معانيها تظل مقصرة في حقكم.

كما نتقدم بالشكر الخاص للأب والمؤرخ الكبير "**سيدي إبراهيم القادري بوتشيش** " الذي خصنا بجزء من وقته الثمين للتقديم لهذا الكتاب، وعلى حرصه المتواصل على دعم الباحثين الشباب.

مكناس في: 2021/01/17

المحور الأول:
دراسات في بعض قضايا المجتمع المغربي



أوضاع المرأة بسجلماسة في القرن التاسع من خلال نوازل ابن هلال السجلماسي

دة. سمية المحمدي*

الحمد لله الذي جعل صدور العلماء خزائن لجواهر الأحكام والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أتم الله به الدين، وأكمل به شرائع الإسلام وعلى آله وصحبه مصابيح الظلام وتابعيهم من الأئمة الأعلام. أما بعد: فهذه مقالتي التي وسمتها بـ:

"أوضاع المرأة بسجلماسة في القرن التاسع من خلال نوازل ابن هلال السجلماسي"

والبحث في هذا الموضوع له أهمية بالغة وكبيرة لما يلي:

*ارتباطه بالفقه المالكي؛ لأن نوازل ابن هلال، كتاب معتمد في المذهب كما قال النابغة الغلاوي الشنقيطي في "نظمه البوطليحية ":

واعتمدوا نوازل الهلالي***ودره النثير كاللآلئ[1]

*تعداده من كتب النوازل التي تمثل الفقه التطبيقي، وتشكل ذخيرة كبيرة في الفقه الإسلامي، يمكن أن يستفيد منها القاضي والمفتي وكذلك الأصولي والفقيه، والباحث...، كما تظهر جانب الواقعية في حل المشكلات المجتمعية التي عايشها المفتي في عصره...

* اهتمامه بعلم من أعلام المدرسة المالكية بسجلماسة . درعة تافيلالت حاليا. ، ومفتيها ابن هلال رحمه الله؛ إذ كان "من العلماء الأعلام وأكابر مشايخ الإسلام، أجمع أهل عصره على إمامته وفضله وولايته، وكان كما يقول العلامة التنبكتي (ت1036هـ): "آية في النظم والنثر ونوازل الفقه"[2]، وكما يقول الحضيكي (ت1189هـ): "شيخ الفتيا وإمام أهل التقى، العالم العلامة العلم القدوة، كان رضي الله عنه متبحراً في العلوم، طويل الباع فيها، عظيم القدر، عالي الشأن، فريد عصره وأعجوبة دهره...عالم سجلماسة وصالحها وبركاتها حيا وميتا."[3]

فالظاهر من ترجمته، أن صيته ذاع في الفقه والفتوى بالمنطقة، ولعل نوازله قيد الدراسة والتعرف على منهجه فيها، كفيلة بإعطاء نظرة عن نبوغه في هذا الباب.

---

*أستاذة باحثة في قضايا المرأة والأسرة.

1- نظم في المعتمد من الكتب والفتوى على مذهب المالكية، المعروف بالبوطليحية، لمحمد النابغة بن عمر الغلاوي ص: 87.

2- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، للتنبكتي، ص: 66-67.

3- **طبقات الحضيكي**، 126/1.

*اهتمام المقالة بنوازل المرأة وتحليل بعض أحكامها واستنباط أوضاعها وحقوقها من خلال نوازل ابن هلال السجلماسي.

ومعلوم ما للمرأة وقضاياها من أهمية في عصرنا، الأمر الذي دفعني إلى البحث في هذه الجزئية، محاولة مني إظهار مجموعة من الحقوق التي اكتسبتها المرأة في المجتمع السجلماسي من خلال هذا الفقيه النوازلي.

وسعيا مني لإبراز أدوار المرأة في هذا المجتمع الصحراوي، وبعض الأعراف والتقاليد التي أهانت المرأة وداست كرامتها وكانت مدخلا اتهم به الإسلام والفقهاء.

فكان من المناسب في هذا المقام إبراز حال المرأة في منطقة سجلماسة . درعة تافيلالت حاليا . من خلال النوازل الهلالية، بجمع بعض ما يتعلق بموضوع البحث وتصنيفه وتحليله لتحقيق الأهداف المرجوة من البحث خاصة ومن الكتاب عامة.

أولا: تعريف النوازل:

النازلة لغة: من النون والزاي واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه... والنَّازلة: هي المصيبة الشَّديدة من شدائد الدَّهر تنزل بالناس.1

وهي اسم فاعل للفعل نزل، أي حَلَّ به أو عليه، فهو نازل، وهي نازلة، والأصل في النُّزول انحطاط من عُلُوٍّ، والمقصود هنا –فيما يبدو -المعنى المجازي لا الحقيقي2.

ولَمَّا كان الفقيه يعاني شِدَّةً في استخراج حكم المسألة الواقعة المستجدَّة، ناسب أن تسمَّى هذه المسألة بالنازلة، إضافة إلى ما في لفظ النازلة في اللغة من معنى الحلول والوقوع"3 واصطلاحا: النوازل عند المالكية: "مجموعة من الوقائع الدينية أو الدنيوية، التي تنزل بالناس،

1- **معجم مقاييس اللغة** لابن فارس، كتاب (النون)، باب (النون والزاء وما يثلثهما)، 417/5، والمصباح المنير للفيومي كتاب، (النون)، مادة (ن ز ل)، ص: 309

2- نوازل الشفعة وفقا للمذهب المالكي وما جرى به العمل في المغرب، جمعه ورتبه عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد ص: 17.

3_ مقال منشور بمجلة العدل، لمحمد بن حسين بن حسن الجيزاني بعنوان: الاجتهاد في النوازل، العدد التاسع عشر رجب 1424 هـ ص: 47

والتي احتاجت إعمال العقل من ذي ملكة راسخة متخصصة في إيجاد حكم شرعي لها وفق مذهب الإمام مالك. "[1]

ثانيا: المرأة السجلماسية والحرف الممتهنة

لقد تمتعت المرأة بمنطقة سجلماسة - درعة تافيلالت - باستقلال مادي أقرته مجموعة من الفتاوى الواردة في كتاب "**نوازل باز النوازل**" لابن هلال؛ إذ نجدها احترفت غزل الصوف ونسجه، واحترفت الإرضاع فاستحقت أجرته، ومارست الوصاية على المحجور فكانت متحملة لمسؤولياتها.

وفيما يلي مجموعة من النوازل التي تظهر ذلك.

1- الظئر (المرضع).

الظئر من الجذر اللغوي (ظ أ ر)، والظاء والهمزة والراء أصل صحيح واحد يدل على العطف والدنو.[2]

وظَأَرَتْ: اتخذت ولدا ترضعه، واظَّأَرَ لولده ظِئْرًا: اتخذها.[3]

وسميت الظئر، ظئرا لعطفها على من تربيه.[4]

والظئر هي المرضع، وقد أورد الهلالي في نوازله فتوى متعلقة بها، جاء فيها:

عرض النازلة الأولى:

سئل ابن هلال عن رجل تزوج امرأة فولدت معه ولدا فأرضعت المرأة ولدا مع ولدها بالإجارة، لمن يكون حق الرضاع؟ هل للزوج أو للزوجة؟

فأجاب: فالأجرة للزوجة التي أرضعت ذلك الولد الأجنبي مع ولدها من صلبها.[5]

****المستفاد من النازلة***

أكدت النازلة، أن أجرة الرضاع تستحقها الزوجة عوضا عن الرضاع، وبالتالي لا يحق للزوج أخذها أو المطالبة بها؛ لأنها حق مالي ثابت للمرأة الظئر دون غيرها.

1-تعريف توصلت إليه، من خلال تتبعي لتعريفات العلماء والباحثين في هذا المصطلح، وتفصيل ذلك في مقال منشور لي في مجلة "المذهب المالكي عنوانه:" كيف ميز المالكية بين كتب النوازل والأحكام"، العدد الثاني والعشرون، صيف 1437-2016م، ص:120

2- **معجم مقاييس اللغة** لابن فارس، كتاب (الظاء)، باب (الظاء والهمزة وما يثلثهما) 473/3

3-**القاموس المحيط** للفيروز آبادي، (باب الراء) فصل (الظاء)، ص: 433

4- **معجم مقاييس اللغة** لابن فارس كتاب (الظاء) (باب الظاء والهمزة وما يثلثهما) 473/3

5- **نوازل باز النوازل** لابن هلال، 226-225/1

فثبت أن إجارة المرأة ماضية لا نقاش حولها، إلا أننا نجد بعض الفقهاء يتوقفون عند عدم استئذان الزوجة، الزوج في الإرضاع فجاء في التوضيح للشيخ خليل ما يلي:" وإن فعلت ذلك بغير إذنه فله أن يفسخه لما يلحقه من الضرر بتشاغلها عنه وتغيير حالها ولاسيما إن كانت خدمته عليها."[1]

2- النساجة والغزالة

لقد اهتمت النساء بسجلماسة، -درعة تافيلالت - بصناعة المنسوجات؛ إذ كان لهن الدور الكبير في إثرائها والإبداع فيها؛ الأمر الذي تظهره النوازل الآتية:

عرض النازلة الثانية:

سئل ابن هلال أيضا: عن امرأة تقول لصاحبتها: انسجي عندي وننسج عندك، بعد فراغ كل واحدة منا من شغل بيتها، والفراغ من شغل البيت يتفاوت: مرة تبطئ ومرة تسرع، فهل يسامح في هذا المقدار؟ أو لا بد من المساواة؟

فأجاب: أما مسألة تعاون النساء في النسج، بعد فراغ كل واحدة منهما من شغلها، فإن كان الفراغ من الشغل غير معروف القدر أو مختلفا، فتارة تبطئ، وتارة تسرع، فلا يجوز للغرر في ذلك، ولا يجوز ذلك إلا أن يكون وقت الفراغ من الشغل معروفا، وغير مختلف، إلا مثل الاختلاف اليسير جدا الذي يعلم أن الناس لا يتفاسخون فيه فيجوز.[2]

المستفاد من النازلة:

تظهر النازلة:

- أن النساء في سجلماسة، يجتمعن فيقضين ساعات فراغهن بغزل الصوف ونسجه في تعاونيات نسوية منزلية، وكان لهذا الأثر البليغ في تحسين ظروف معيشتهن ودخلهن، واللائي استطعن من خلاله تكوين ذمة مالية مستقلة.

- حرص المرأة ووعيها بضرورة التزام الأحكام الشرعية، إذ نجدها مستفتية عن الفراغ من شغل البيت عندما يتفاوت بين النساء النساجات: مرة تبطئ ومرة تسرع فهل هذا فيه غرر تضر معه الأخرى؟

فحاول فقيهنا النوازلي أن يركز على الغرر البين بينهما؛ فإن كان الغرر يسيرا فلا يؤثر كما أجمع الفقهاء المالكية، إنما الاختلاف في الغرر الكثير المؤثر ذي البال.

1- **التوضيح في شرح مختصر الفرعي** لابن الحاجب لخليل، 163/7

2- **نوازل باز النوازل** لابن هلال، 333/1

ولعل وعي المرأة السجلماسية، كما يبدو بالحقوق والواجبات سبيل لقطع أسباب الخلاف والفرقة، وسد لمنافذ الشيطان، وهو أبعد عن الغبن والغرر.

وفي نازلة مشابهة، سئل فيها ابن هلال:

عرض النازلة الثالثة:

عن امرأة استأجرت أخرى للنسج ثم طلقت المستأجِرة.

جوابه: الحمد لله، فلا تتبع المستأجرة إلا التي نسجت لها، ولا تتبع الزوج المطلق لها، والله تعالى أعلم وبه التوفيق.[1]

المستفاد من النازلة

تؤكد النازلة كسابقتها:

- تمتع المرأة باستقلال مالي عن زوجها، أقره لها فقيهنا النوازلي –ابن هلال - في هذه الديار، فنجد المرأة احترفت غزل الصوف ونسجه، وتقاضت عليه أجرة، وهو حق لم تستطع المرأة في مناطق أخرى نيله.

- للمرأة أهلية التعاقد المتعارف عليها عند الفقهاء ولا دخل للزوج في معاملاتها المالية مع الغير.

3- المرأة الوصي:

عرض النازلة الرابعة:

وسئل ابن هلال: عمن مات وترك بنتين أوصى بهما لشقيقته تحت إشراف زوجها، ولهما جدة لأم هما في حضانتها، والتزمت العمة بنفقتهما وكسوتهما من مالها من غير رجوع عليهما، على أن تكون لها الحضانة وأبت الجدة من ذلك، وإن بقيا عند الجدة ذهب مالهما في النفقة، فهل يحكم للعمة بالحضانة لهذه المصلحة أم لا؟

فأجاب: الصواب إمضاء ذلك، ونقل الحضانة للعمة إن لم يعلم في ذلك ضرر على البنتين ولا نقص مرفقة في الكفالة، والقيام بالمؤنة والخدمة لظهور المصلحة العظيمة لهما بصون مالهما.

1- نوازل باز النوازل 650/2

وإنما قلت: إن هذا هو الصواب، لان المتقدمة في باب الحضانة من باب الأولى، فإذا عارضت تلك المصلحة الكبرى هذه الأولوية اضمحلت، ولأن جانب العمة قد قوي بالإيصاء الذي بيدها.[1]

المستفاد من النازلة:

الوصاية مهمة نبيلة لا تزاولها إلا المرأة الحكيمة التي تستطيع تدبير شؤون المحجور واختيار الأصلح له، وقد اتفق الفقهاء على جواز ذلك؛ يقول ابن قدامة:" تصح الوصية إلى المرأة في قول أكثر أهل العلم، وروي ذلك عن شريح، وبه قال مالك والثوري، والأوزاعي، وإسحاق، والشافعي، وأبو ثور، وأصحاب الرأي، لما روي أن عمر رضي الله عنه أوصى إلى حفصة رضي الله عنها"[2].

وهو القول الذي أخذ به ابن هلال؛ إذ أكد على أحقية وصاية العمة، لما فيه من مراعاة مصلحة بنات أخيها؛ لأنها ذات أهلية كاملة وضابطة وأمينة؛ للحفاظ على أموال الفتاتين وتنميتها، والعناية بتربيتهما وتوجيههما.

وقد أثبت الفقهاء للوصي أجرة عوض القيام على شؤون المحجور ورعاية مصالحه؛ ومنها قول التسولي: "على القاضي أن يفرض للوصي أجرة على نظره بقدر شغله بالنظر في مال اليتيم من تصرف في غلات أصوله وشراء نفقته إذا طلب الوصي أو المقدم ذلك، فإن تورعا عن ذلك فهو خير لهما."[3]

إلا أن ابن هلال كما يظهر من نص النازلة، لم يبين أجرة الوصي ولم يشر إليها؛ كونها مستغنية عنها لأنه تكفلت بالنفقة والكسوة للمحجورتين، بل اعتبر مصلحتهما بما يجلب لهما النفع ويدفع الضرر من أولى الأولويات؛ إذ مصلحتهما بحفظ مالهما وحضانة عمتهما.

ولعمري إن هذا منتهى الإنصاف للمرأة محجورا عليها ووصيا.

1- **نوازل باز النوازل** 1/567-568

2- **المغني** لابن قدامة 552/8

3- **البهجة في شرح التحفة** للتسولي، 566/2

ثالثا: المرأة السجلماسية من خلال نوازل النكاح

1-رضا المرأة بعقد الزواج سبيل لإمضائه

عرض النازلة الخامسة

وسئل ابن هلال، عن رجل كانت له ابنة فزوجها لرجل فبقت عنده نحو سبع سنين ثم توفي الزوج المذكور، فبعد انقضاء عدتها طلبها رجل آخر لأبيها فأراد الأب أن يعطيها له فسمعت بذلك فنفرت منه أعني من الزوج ولا زال الزوج يلح فيها وهي نافرة منه، وأعطاها أبوها له وهي كارهة لذلك فبقت في داره وهي على حالتها من النفار وهربت من بيت زوجها إلى دار أبيها فامتنعت الرجوع، وكذلك الأب، فهل لهم كلام في ذلك أم لا؟

فأجاب: أما إن أكرهها أبوها على ذلك بما يعد إكراهها شرعا فالنكاح فاسد وليس لها أن تجيزه على المشهور، وأما إن لم يكرهها وإنما افتات عليها بغير إذنها فإن لم تجز ذلك أو أجازت بعد طول المدة فالنكاح فاسد أيضا، وإن أجازت بالقرب جاز، وقد اختلفوا في حد القرب.[1]

المستفاد من النازلة:

من المعلوم بالضرورة أن غاية الزواج تحقيق الاستقرار والأنس والمحبة بين الزوجين بدليل قوله تعالى:" ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" سورة الروم: 21

وقد فسر الإمام المراغي الآية قائلا:" ...خلق لكم أزواجا من جنسكم لتأنسوا بها وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام."[2]

والإكراه على الزواج مناف لهذا المقصد؛ إذ لا تتحقق معه مودة ولا رحمة ولا تدوم معه حياة منزلية؛ ولأن التراضي أقرب لدوام العشرة؛ لذلك نجد ابن هلال أفتى بفساد هذا النكاح، لأن رضا المرأة شرط أساسي لإتمام عقد النكاح في الإسلام عموما وفي المذهب المالكي خصوصا.

إلا أن المرأة إذا أجازت النكاح قرب انعقاده مضى ولعل مستند ابن هلال في المسألة المطروحة مرده إلى رد رسول الله صلى الله عليه وسلم نكاح فتاة جاءت إلى عائشة رضي الله عنها فقالت:" إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بها خسيسته، وإني كرهت ذلك، فقالت عائشة

1- نوازل باز النوازل 306/1

2- تفسير المراغي؛ أحمد مصطفى المراغي، مصطفى الحلبي بمصر، ط 1 1365هـ، ج 21، ص 37.

رضي الله عنها: اقعدي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذكري ذلك له، فجاء نبي الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى أبيها، فلما جاء أبوها جعل أمرها إليها، فلما رأت أن الأمر قد جعل إليها قالت: إني قد أجزت ما صنع والدي، إنما أردت أن أعلم هل للنساء من الأمر شيء أم لا."[1]

فتأكد لنا من النازلة أن للنساء حرية اختيار الأزواج وإمضاء عقد النكاح أو رفضه.

2-***صداق المرأة حق مالي لا يسقط بالتقادم***

الصداق في أصل الوضع اللغوي، يعود إلى الجذر (ص د ق)؛ وفي "اللسان": أصدق المرأة حين تزوجها، أي جعل لها صداقا، وقيل: أصدقها سمى لها صداقا.[2]

- واصطلاحا ذهب عُلَيْش[3] في "منح الجليل" إلى أن الصداق: "هو المال الملتزم للمخطوبة لملك عصمتها."[3]

*وقد ضم مؤلف ابن هلال نوازل عديدة مرتبطة بالصداق وما يتعلق به. وإليك بعضها:

عرض النازلة السادسة:

وسئل عن امرأة تركت بنتا صغيرة ثم كبرت وتزوجت، ثم مات زوجها وتزوجت زوجا آخر وبقي مدة طويلة حتى مات أبوها، فلما أراد إخوتها أن يقتسموا مال أبيهم قامت عليهم بصداق أمها، فقالوا لها هلا قلت هذا قبل هذا، وأين عقد أمك والشهود؟ قالت لهم: هذا البلد سائبة ليس فيها من يكتب العقود، والشهود ماتوا فهل لها شيء أم لا؟ فأجاب: إن كان عرف البلد على الكالئ وعادتهم، فعلى ورثة الزوج البينة بالبراءة منه وإلا أخذوا المثل.[4]

1- رواه البيهقي في سننه: كتاب النكاح، باب ما جاء في إنكاح الآباء الأبكار 191/7، ح 13676

2- **لسان العرب** لابن منظور، مادة (ص.د.ق) 10/ 236، **وتاج العروس من جواهر القاموس** للزبيدي، 13/254-265، المصباح المنير للفيومي، كتاب (الصاد)، ص:175، المغرب ص: 264-265، الكليات للكفوي، ص:557، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي 131/2، مختار الصحاح للرازي، ص: 359

3 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد عليش الطرابلسي الدار المصري القرار شيخ السادات المالكية به ومفتيها أستاذ الأساتذة وخاتمة الأعلام الجهابذة الإمام الكبير والعلم المنير الجامع بين العلم والعمل، له شرح المتن وشرح إضاءة الدجنة وحاشية على مولد البرزنجي وله فتاوى مجموعة في مجلدين وغير ذلك. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف، ص: 385

4- نوازل باز النوازل لابن هلال 190/1-191

***المستفاد من النازلة:**

مادام أن المرأة قد أثبتت كالئ أمها بحكم العرف والعادة في هذه البلاد، فهي أحق بصداق المثل؛ إن لم يثبت ورثة الزوج بينة ببراءة أبيهم من حق زوجته المالي.

وهو الأمر نفسه الذي عليه أغلب فقهاء المالكية، قال ابن المكوي: "إذا كانت أحوال الكالئ عندهم معروفة لا تختلف، فيحمل أمرهم في الكالئ على المتعارف عندهم.

3-صداق المرأة حق ثابت تأخذه من ميراث زوجها أو من تحمله.

عرض النازلة السابعة:

وسئل عن رجل زوج ابنه وهو بالغ مالك أمر نفسه، إلا أنه من جملة عياله، وضمن للزوجة معجل مهرها ومؤجله، ودفع لها المعجل عند البناء، وبقي المؤجل فمات الزوج ومات أبوه بعده، وقامت على ورثة الأب تطلبهم المؤجل، فقالوا لها: إنما ضمنه على الابن، وهو لك في تركة الابن، والابن حين حمل عنهم أبوهم معسر لا مال له، فممن تأخذ مهرها؟

فأجاب: فالصداق يؤخذ من تركة الأب الحامل له إن كان ذلك في أصل عقدة النكاح، ولا يرجع به على تركة الابن إلا إن أقر ورثة الابن الرشداء أن ذلك بمعنى الحمالة، لا معنى الحمل أو قامت بذلك بينة وقد نص على هذا المعنى غير واحد.[1]

المستفاد من النازلة:

كالئ المرأة –مؤخر الصداق-، حق من حقوق المرأة المالية، ودين في ذمة زوجها أو من تحمله –أبو الزوج كما ورد في نص النازلة-، ومرجع استيفائه راجع إلى الشروط المتفق عليها حين العقد، أو إلى العرف السائد بين الناس في تلك البلاد؛ إذ "المعروف عرفا كالمشروط شرطا." كما تؤكد على ذلك القاعدة الفقهية.

4-لا اعتبار لعرف يحرم المرأة من حقها المالي

عرض النازلة الثامنة:

سؤال: عن قوم جرى عرفهم أن المطلقة لا مهر لها، إلا ما قدموا لها عند البناء بها، وأما المؤخر فلا إن طلقت، بخلاف المتوفى عنها، وبأن المهر في عرفهم خمسة وعشرون دينارا، فيقدمون شيئا منه ويؤخرون جله إلى الوفاة، والمطلقة لا شيء لها من المؤخر.

1- نوازل باز النوازل 219/1

هل ذلك قادح في أنكحتهم فتفسخ قبل البناء، وتثبت بعده بصداق المثل؟ أو تصح بما يقدم عند البناء من ذلك، إن قدم ما يصح به النكاح؟

جوابه: الحمد لله، فإن وقع النكاح على ما ذكرتم، فلا إشكال في فساده، وقد لزم بعض الشيوخ التونسيين فساد الأنكحة عندهم، بسبب أن العادة لديهم، أن المهر لا يؤخذ من الزوج إلا عند موت أو فراق، فكيف بمسألتكم.[1]

المستفاد من النازلة:

فإذا كان الصداق حقا ماليا للمرأة، عاجله وآجله فإن إسقاطه في حال الطلاق اعتداء بين على حق ثابت، نص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، قال تعالى:"وءاتوا النساء صدقاتهن نحلة"، (النساء:4) الأمر الذي جعل ابن هلال رحمه الله يعتبر هذا عرفا فاسدا يجب تجاوزه؛ لأنه غير معتبر شرعا ما دام معطلا لنص أو حكم شرعي.

رابعا: المرأة السجلماسية من خلال نوازل الصدقات

الصدقة لغة: من الجذر اللغوي (ص د ق)، ومن ذلك الصدق نقيض الكذب. وهي: ما تصدقت به على الفقراء"[2].

قال الفيروز آبادي: "الصدقة: ما أعطيته في ذات الله تعالى."[3]

واصطلاحا، عرفها الجرجاني قائلا: "هي العطية تبتغي بها المثوبة من الله تعالى."[4]

وعرفها الرصاع بقوله:" تمليك ذي منفعة لوجه الله بغير عوض".[5]

والمتتبع لنوازل الصدقات من خلال "نوازل باز النوازل" لابن هلال، يظهر له أن المرأة المتصدقة في هذا القطر المغربي، أعطت الأولوية للإنفاق على الأقارب وذي الرحم عموما أكثر من غيرهم، وعيا منها، بأن "الأقرب فالأقرب أولى بالمعروف والصدقة"،[6] مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة.»[7]

1- نوازل باز النوازل لابن هلال 545/1

2 - لسان العرب لابن منظور، مادة (ص د ق)، 231/10-235 بتصرف

3 - القاموس المحيط للفيروز آبادي، باب (القاف) فصل (الصاد)، ص: 900، ولسان العرب لابن منظور، مادة (ص د ق)، 235/10

4 -التعريفات للجرجاني، ص: 135

5 - شرح حدود ابن عرفة للرصاع، ص: 554

6 - إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض، 518/3

7 - الجامع الكبير للترمذي، كتاب (الزكاة)، باب (ما جاء في الصدقة على ذي القرابة)، حديث رقم: 658، 39/2

وفيما يلي عرض لمجموعة من النوازل الهلالية:

1-الصدقة على الزوج

عرض النازلة التاسعة:

وسئل ابن هلال، عن رجل تزوج امرأة وهي رشيدة فتصدقت عليه بجميع أصلها وحازه الزوج المذكور بما تحاز به الصدقات من أربابها، فهل ينفذ له جميع الأصل؟ أو ليس له إلا الثلث؟ والمال الذي عندها ليس في يدها منه شيء، وإنما هو في ذمة الزوج من صداقها عليه.

فأجاب: فصدقة الزوجة على زوجها بجميع مالها نافذة إذا كانت رشيدة عن طيب نفسها.[1]

المستفاد من النازلة:

إن تصدق المرأة على زوجها فيه جمع بين الصدقة والصلة، وترى من خلال النازلة أن تصرفات المرأة ماضية؛ إن كانت رشيدة يقول ابن عبد الرفيع: " فإذا كان ذلك-أي الرشد - جاز أمرها وإن كانت حديثة السن ولا ينتظر بها سنة بعد البناء ..."[2].

لهذا نجد ابن هلال أمضى صدقتها واعتبرها نافذة مادامت رشيدة، تملك الحق في إمضاء تصرفاتها أو إبطالها.

2- الصدقة على الأبناء

عرض النازلة العاشرة

وسئل عن رجل تصدقت عليه أمه بخادم في صحة عقلها وجواز أمرها وهي في ذمة رجل استسلفها منها، وكانت ربة الخادم تطلب مستسلفها مرة بعد مرة، فامتنع منها من إعطاء الخادم، فرأت المرأة المذكورة ألا ملجأ من أكلها، وتصدقت بها على ابنها وهي في ذمة المستسلف، ثم توفيت ربة الخادم، وبقي ابنها يطلب المستسلف حتى إلى الآن، قام عليه الورثة ما الحكم في ذلك؟

فأجاب: أنه إذا تصدقت ربة الخادم على ابنها بعد أن صارت في ذمة المستسلف، وقبلها الابن في حياتها، وجمعت بينه وبين المستسلف، وكان الابن يطالبه بها في حياتها صحت له ونفذت، واختص بها بين الورثة.[3]

1- نوازل باز النوازل 231/1، ونازلة أخرى تؤكد المعنى نفسه أوردها الهلالي في نوازل باز النوازل 589/1

2- معين الحكام على القضايا والأحكام لابن عبد الرفيع، 716/2

3- نوازل باز النوازل 144/1

المستفاد من النازلة:

-صدقة المرأة على ابنها نافذة في الخادم، فلا مانع شرعا أن تتصدق المرأة أو تهب لأبنائها ما تشاء مادامت أهلا للتصرف.

3- الصدقة على الإخوة

عرض النازلة الحادية عشرة

وسئل عن امرأة تصدقت على ابن أختها بجميع ما ورثت من أبيها وأمها بغير شرط ولا حشمة، فحاز المتصدق عليه جميع ما تصدقت به عليه وبقيت عنده ينفق عليها من غير أن تشترط ذلك عليه، فهل يجوز ذلك أم لا؟ مع أن بعض الناس قال: ما فعلت ذلك إلا حسدا منها للورثة.

فأجاب: إن الصدقة لا تبطل بمجرد كونها فرارا بها عن ورثتها.[1]

المستفاد من النازلة

أبرز ابن هلال، أن قصد المتصدقة حرمان بعض الورثة، لا يؤثر على الصدقة؛ لأن المرأة كاملة الأهلية مادامت عاقلة وراشدة ولها الحق في التبرع والتصدق بأموالها كيف شاءت ومتى شاءت ولا دخل للمفتي بقصدها أو نيتها.

4- الصدقة حشمة وحياء

عرض النازلة الثانية عشرة

وسئل ابن هلال، عن رجل تزوج امرأة وهي بكر يتيمة في حجر إخوتها، وبقيت عنده نحو سنة، ثم دخلت في بعض الأيام دار إخوتها فحبسوها وراودوها فيما تخلف أبوهم من الأرض والنخيل وغيره والمواشي وما أشبه ذلك، لاسيما لهذه بالحشمة، ووافقتهم على ذلك وسمع الزوج بما فعلت، وقام عليها في هذه العطية، هل يصح هذا أم لا؟

فأجاب: إن الزوجة المذكورة إن مر للبناء بها في بيت زوجها سنة ولم يظهر بها سفه فعطيتها في ظاهر الشرع نافذة، إلا إن كان ما أعطته أزيد من ثلث مالها، فلزوجها رد ذلك وإبطاله، وأما إن ظهر منها سفه فعطيتها باطلة وإن كانت أقل من ثلث مالها، وأكل المال بالحياء والتحشم لا يحل عند الله عز وجل، وممن أخذ بهذا بعض الشيوخ من آخر كتاب الوصايا من "المدونة" أن الإخوة إذا طلبوا من أختهم أن تتصدق عليهم بميراثها من أبيهم أو

1- نوازل باز النوازل 195/1

بشيء منه أن لها القيام وترجع في ذلك، فالصواب – وهو الذي أراه- في المسألة تمشيتها على الصلح ووعظ الإخوة.[1]

المستفاد من النازلة:

أكدت النازلة أن:

*الخوف من المعرَّة والحياء والحِشْمة ليست إلا وجها من وجوه الإكراه؛ البعيد عن التراضي بين الطرفين –المتصدق والمتصدق له-.

فقد ذكر الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين"[2] أن للبنات والعمات الرجوع فيما وهبن، وأطال الكلام في ذلك فعده إكراها وقال لأنها اجتمع عليها ضرران: ذهاب مالها وشتم عرضها واختارت بقلبها أهون عليها ضررا وهو ذهاب مالها صونا لعرضها من غير طيب نفسها، ونص أن لها الرجوع في ذلك.

وبه قال صاحب كتاب "النظائر": ومن كتاب أحكام القرآن لابن العربي، قال شريح: إن المرأة إذا وهبت مالها لها الرجوع فيما وهبت، واحتج بقوله تعالى: " فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا " فإذا قامت مطالبة لم تطب نفسا.[3] قال: ولا حيازة عليهن في ذلك لأنهن مقهورات مغلوبات، فيقبل قولهن فيما يدعين من الحياء والحشمة...[4]، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن هذا مخالف لمقاصد الشريعة من عقود التبرعات، والتي حددها الطاهر بن عاشور بقوله:" أن تكون التبرعات صادرة عن طيب نفس لا يخالجه تَرَدُّد؛ لأنها من المعروف والسخاء، ولأن فيها إخراج جزء من المال المحبوب بدون عوض يخلفه، فتمخض أن يكون قصد المتبرع النفع العام والثواب الجزيل، ولذلك كان من مقصد الشارع فيها أن تصدر عن أصحابها صدورا من شأنه أن لا تَعْقُبَهُ ندامةٌ حتى لا يجيء ضر للمحسن من جراء إحسانه، فيحذر الناسُ فِعْلَ المعروف، إذ لا ينبغي أن يأتي الخير بالشر.." [5]

ولهذا "أجمع الأئمة المتأخرون على أن هبة بنات القبائل مردودة لعلة الحياء وخوف المعرة."[6]

1- نوازل باز النوازل 149/1

2 -إحياء علوم الدين للغزالي، 347/3

3 - أحكام القرآن لابن العربي، 415/1

4 - مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال لمحمد بن عبد الله الكيكي، ص: 65-66

5 - مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور، ص: 489

6 - مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال لمحمد بن عبد الله الكيكي، ص: 65

وهذا اختيار ابن هلال من خلال جوابه على النازلة، بل وراعى نفسية المرأة؛ إذ دعا إلى جبر الخواطر بين الإخوة لتطييب النفوس المنكسرة وتحقيق الألفة والمحبة بينهم.

5- ***التحبيس على الذكور دون الإناث***

عرض النازلة الثالثة عشرة:

جاء في "نوازل باز النوازل": وأما قول أبي المودة في باب الحبس: " وعلى بنيه دون بناته، فاعتماد منه على قول مالك في كتاب ابن المواز و"العتبية"، ومذهب "المدونة" الكراهة، فإن نزل مضى وكان بعض من لقيناه ممن له اعتناء بذلك المختصر يتبعه في ذلك، ويفتي ببطلان الحبس على الذكور وحدهم تقليدا لما اعتمده، وذلك خلاف ما عليه العمل وليس ذلك من هفواته كما ذكرتم، بل اعتماد منه على قول مالك الذي ذكرناه. وفي "المدونة" ؟، "أن عمر بن عبد العزيز كتب أن ترد صدقات الناس التي اخرجوا منها البنات"، هكذا في اختصار بعضهم، وفي اختصار ابن يونس:" وقد أراد عمر بن عبيد العزيز أن يرد صدقات الناس التي أخرجوا منها البنات."[1]

****المستفاد من النازلة:***

أبرز ابن هلال أقوال العلماء في التحبيس على بعض الأولاد دون آخرين فمنهم من جوزه؛ إذ هو ما جرى به العمل، ومنهم من جعله في دائرة التحريم، ومنه من جعل في دائرة الكراهة قال ابن عبد البر: "ويكره له أن يحرم الإناث ويعطي الذكور، فإن فعل جاز فعله، لأنه ماله يفعل فيه في صحته ما أحب، والأولى به التسوية بين ولده في العطايا كلها، كما يسره أن يكونوا له في البر سواء" [2]

وما الدليل الذي ذكره ابن هلال لإثبات كراهة الأمر إلا تأكيد لاختياره، ومراعاة لنفسية النساء، وسعيا لإنصافهن وعدم تكريس الفرقة بينهن وبين شقائقهن من الرجال.

رابعا: المرأة السجلماسية من خلال نوازل الميراث

عرض النازلة الرابعة عشرة:

وسئل عن رجل تزوج امرأة، وأتت بنخل من أبيها من الإرث وأبقته مع زوجها في أطيب عيش حتى مات الزوج المذكور، وترك أولادا ذكورا وإناثا، وأقامت المرأة المذكورة في الغلل نخلها، وقال لها الورثة: إنك سلمت لأبينا، فقالت لهم: ما سلمت له ولا تركت له ذلك، وليس

1- نوازل باز النوازل 2/681-682

2- الكافي لابن عبد البر ص:539

لكم، وعندي إلا يمين خذوه مني، ولا تزال تطلب منهم أن يأخذوا منها يمينهم حتى ماتت، وقام ورثتها يطلبون، فهل لهم ذلك أم لا؟ فأجاب: فإن علم أن الزوج كان يستغل ذلك على سبيل الصلة والمعروف فلا شيء لها ولا لورثتها بعدها في تركة الزوج، وإلا فلها ذلك بعد يمينها، وبعد يمين ورثتها الرشداء، إذا ماتت ولم تحلف، وأما إن لم يدر هل كان يصرف ذلك في منافعه ومنافعها، فكالوجه الثاني فيما قرب من المدة؛ لأن الزوج سفير امرأته.[1]

المستفاد من النازلة:

ما دامت الحياة بين الزوجين مبنية على المودة والرحمة، ومادام الزوج سفير امراته كما أوضح ابن هلال

فإن استغلال الزوج لمال زوجته غالبا ما يكون على سبيل الصلة والمعروف فلا يحاسب به الزوج.

أما إن لم تسلم الزوجة في حقها، ولم ترد صلة ولا معروفا؛ فيمينها كاف لضمان حقها المالي مراعاة لقاعدة البينة على المدعي واليمين على من أنكر.

وأعتقد أن هذا منتهى الإنصاف للمرأة.

خامسا: المرأة السجلماسية ومراعاة حقوقها المعنوية

عرض النازلة الخامسة عشرة:

وسئل عن رجل غاب عن زوجته عامين أو نحوهما، ثم إن رجلا هرب بها، ثم قدم الغائب من غيبته ورجع زوجته وأراد ان تستبرئ في بيته، فحكم عليه بعض طلبة البادية بأن استبراءها في بيته لا يجوز، وكان الزوج المذكور هاجر زوجته لا ينظر إليها ولا يكلمها، لسبب هروبها مع هذا المفسد، وأن هذا الطالب حكم عليه أيضا بأنها لا تحل له.

فأجاب: الاستبراء صحيح لأنها زوجه وفراشه، فلا يجب عليه أن تعزل عنه في زمان الاستبراء، ولا أن تجنبه؛ لأن الهارب بها إنما تعدى عليه فيهان وإذا استبرأت بثلاث حيض جاز له وطؤها، وقد قال العلماء: إذا وطئها في زمان الاستبراء لا شيء عليه، وإن كان لا ينبغي له ذلك حتى يستبرئ، ثم إذا عزم على إمساكها وجب عليه وطؤها، وحسن عشرتها بالمعروف وإحصانها، ولا يحل له ما ذكرتم من الهجران تأديبا لها، فليكف، وليعف، وليصفح، أو ليطلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يفرك مؤمن مؤمنة"[2].

1- نوازل باز النوازل 148/1

2- نوازل باز النوازل 155/1-156

المستفاد من النازلة:

نجد ابن هلال راعى السماحة واللين؛ إذ حرص في فتواه على ضمان الحقوق المعنوية للمرأة رغم هذا الخطأ المرفوض اجتماعيا، والمؤدي إلى اضطراب الحياة وهروب السكينة من الحياة الزوجية.

فأمر -رحمه الله - المستفتي بالعشرة بالمعروف أو التسريح بإحسان امتثالا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يفرك مؤمن مؤمنة" إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَر."[1]

الخاتمة:

بعد هذه الجولة الماتعة في كتاب: "نوازل باز النوازل" لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال السجلماسي، نجد أن المرأة السجلماسية كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية الشخصية، وكان لها حقوق مالية، وامتيازات معنوية، أقرها الفقهاء، مما جعل لها دورا إيجابيا منتجا في الحياة.

ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

أولا: مشاركة المرأة في الحياة العامة، بممارستها للحرف والوظائف بحسب مؤهلاتها وما يتوفر لها من وسائل: فقد أظهرت الدراسة أن المرأة كان لها دور مهم في المجتمع حيث أدت مهمات متنوعة جمعت بين الجُهْد اليدوي في الحرفة، (الغزل والنسج)، والجَهْد التربوي المتعلق بالوصاية التي جمعت بين النظر والتدبير.

* فاحترفت النسج والغزل، واكتسبت بهما ذمة مالية مستقلة بشرط أهليتها، وكلفت بالوصاية على المحجور بصيانة أمواله، وتفقد أحواله ورعايته.

ثانيا: ممارسة المرأة لحقوق مالية داخل الأسرة؛ كالصداق باعتباره حقا ماليا أوجبه الله عز وجل، للمرأة على الرجل في عقد الزواج، وقد أكدت النوازل الهلالية أن للمرأة الرشيدة تمام الحرية في أن تتصرف في صداقها، بكل نوع من أنواع التصرفات الجائزة شرعا.

ثالثا: مشاركة المرأة في التنمية الاجتماعية من خلال العطايا المالية واكتسابها ذمة مالية من خلالها. وقد حرصت المرأة في سجلماسة، أن تكون صدقاتها للمستحقين من الأقارب والأرحام والجيران.

1- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الرضاع)، باب (الوصية بالنساء)

رابعا: اهتمام ابن هلال في نوازله بمراعاة الحقوق المعنوية للمرأة فحرص على كل ما يضمن لها هذه الحقوق ويخدمها.

خامسا: مشاركة المرأة السجلماسية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية كانت تتم في إطار قيم الإسلام وأحكام شريعته، بدليل حرصها على السؤال عن موقف الشرع في كل ما كانت تقدم عليه، سواء في إطار الأسرة أو المجتمع، الأمر الذي ضعف في أيامنا هذه.

ولا يسعني أخيرا إلا التأكيد على ضرورة الاهتمام بفقه النوازل من قبل الباحثين والدارسين، لأنه مصدر ثري ومنجم خفي، للدرر والجواهر الفقهية والتاريخية، التي تمكننا من فهم الكثير من القضايا المعاصرة والنوازل المستجدة....

المصادر والمراجع المعتمدة:

1-القرآن الكريم برواية ورش

2-**"أحكام القرآن"**، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن عربي المتوفى سنة 543هـ، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، بدون تاريخ الطبعة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

3-**"إحياء علوم الدين"**، للإمام الغزالي، مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء، بقلم الدكتور بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياطه فوترا سماراغ.

4-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، لمحمد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى817 هـ، تحقيق مجموعة من الأساتذة منهم: محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي، وزارة الأوقاف والمجلس للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر.

5-"البهجة في شرح التحفة على الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام"، لابن عاصم الأندلسي، وبحاشيته حلى المعاصم لفكر ابن عاصم، وهو شرح أرجوزة تحفة الحكام، طبعة: 1429 هـ-2008م، المكتبة العصرية صيدا لبنان.

6-تاج العروس من جواهر القاموس"، للإمام محمد الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، دراسة وتحقيق: علي شبري، طبعة: 1414هـ-1994م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

7-التعريفات"، للسيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي المتوفى 816هـ، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى: 1421هـ-2000م، دار الكتب العلمية.

8- تفسير المراغي؛ أحمد مصطفى المراغي، مصطفى الحلبي بمصر، ط 1 1365هـ

9- التوضيح في شرح مختصر الفرعي لابن الحاجب"، لخليل بن إسحاق الجندي المتوفى سنة 776هـ، ضبطه و صححه أحمد بن عبد الكريم نجيب، الطبعة الأولى: 1429هـ-2008م، دار نجيبويه، القاهرة.

10- " الجامع الكبير (سنن الترمذي)"، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، المتوفى سنة 279هـ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الأولى: 1996م، دار الغرب الإسلامي.

11-السنن الكبرى" لأبي بكر البيهقي المتوفى سنة 458هـ، وفي ذيله الجوهر النقي للعلامة علاء الدين بن علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، دار الفكر.

12-"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، لمحمد مخلوف، المطبعة السلفية، دار الكتاب العربي بيروت.

13-"شرح حدود ابن عرفة الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية"، لأبي عبد الله محمد الأنصاري الرصاع المتوفى سنة 894هـ، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، الطبعة الأولى: 1993م، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان.

14- صحيح مسلم بشرح النووي،طبعة 1416هـ-1996م ، منشورات دار الخير

15- طبقات الحضيكي، لمحمد أحمد الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، الطبعة الأولى، 1427هـ-2006م، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.

16- القاموس المحيط"، للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سن 817هـ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الثامنة 1426هـ-2005م مؤسسة الرسالة.

17- الكافي في فقه أهل المدينة المالكي" لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة 2003م

18-"الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية"، لأبي البقاء الكفوي، وضع فهارسه عدنان درويش ومحمد المصري، الطبعة الثانية: 1413هـ-1993م مؤسسة الرسالة.

19- لسان العرب"، للإمام العلامة جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري المتوفى سنة 711هـ، تحقيق عامر أحمد حيدر، وعبد المنعم خليل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1424هـ-2003م، دار الكتب العلمية.

20- "مختار الصحاح"، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، طبعة: 1406هـ-1986م، دار الكتب العلمية.

21- "المصباح المنير"، للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري المتوفى سنة 770هـ، اعتنى به يوسف الشيخ محمد، طبعة 1428هـ-2007م، المكتبة العصرية.

22- معجم مقاييس اللغة"، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء المتوفى سنة 395هـ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولى: 1411هـ 1991م، دار الجيل بيروت

23- معين الحكام على القضايا والأحكام"، للشيخ العلامة قاضي الجماعة بتونس أبي إسحاق إبراهيم بن حسن ابن عبد الرفيع المتوفى 733هـ، تحقيق محمد بن قاسم بن عياد، طبعة 1989م، دار الغرب الإسلامي

24- "مقاصد الشريعة"، لمحمد الطاهر بن عاشور، تحقيق و دراسة محمد الطاهر الميساوي، الطبعة الثانية 1421هـ-2001م. دار النفائس. الأردن

25- الموسوعة الفقهية الكويتية، إعداد وزارة الاوقاف الكويتية، طباعة ذات السلاسل، الكويت، 1983م

26- "مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال"، لمحمد بن عبد الله الكيكي المتوفى سنة 1185هـ، تحقيق أحمد التوفيق، الطبعة الأولى: 1997 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان.

27- نوازل باز النوازل لأبي إسحاق سيدي إبراهيم بن هلال السجلماسي، دراسة وتحقيق مجموعة رسائل جامعية راجعها ثلة من العلماء بإشراف وتنسيق عبد الله الهلالي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2016-.1437

28 - نوازل الشفعة وفقا للمذهب المالكي وما جرى به العمل في المغرب، جمعه ورتبه عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، الطبعة الأولى: 2003

29- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب طرابلس، الطبعة الثانية 2000م.

30-مقال منشور في مجلة "المذهب المالكي" عنوانه: "كيف ميز المالكية بين كتب النوازل والأحكام"، للدكتورة سمية المحمدي، العدد الثاني والعشرون، صيف 1437-2016م، ص:120

31 - مقال منشور بمجلة العدل، لمحمد بن حسين بن حسن الجيزاني بعنوان: "الاجتهاد في النوازل"، العدد التاسع عشر رجب 1424 هـ، ص: 47

الولاية والصلاح بين المقدس والتدين الشعبي "منطقة الغرب نموذجا"

د. رضوان عساسي*

لقد لاحظنا وجود ثغرات بين السلوك أو الشعائر الدينية والدين كقداسة سماوية، تتطلع إلى الرقي بالسلوك البشري نحو الفضائل الخيرة، أو بعبارة أخرى الانتصار على الشر وما دونه من تصورات وأقوال أو أفعال ميزت السلوك البشري عبر مختلف المراحل التاريخية المتعاقبة، التي سجلت أنماط عيش الإنسان في علاقته بالمجال ووشمت ذاكرته، وتعتبر النظم والمعتقدات الدينية مفاتيح لفهم الذاكرة الجماعية، وإذا كان التاريخ لا ينسى والذاكرة لا تمحى، فإن الذاكرة المحلية لمنطقة الغرب تبوح بالكثير فيما يتعلق بأضرحة الصلحاء إلى حد التداخل والتعقيد على مستوى المفاهيم، حيث يحصل تداخل بين الواقع والخيال، بين الدين والتدين بين النظري والتطبيقي؛ لهذا أردنا استجلاء الغموض عن ظاهرة الولاية والصلاح بمنطقة غرب المغرب بغرض الإجابة عن إشكالية نجملها في التساؤلات الآتية: ما دلالات ومعاني الولاية والصلاح؟ وما طبيعة حضور الأولياء في التصورات الشعبية والممارسات الدينية؟ وكيف تعاملت الدراسات الغربية مع الموروث الثقافي بالمنطقة؟ وفي هذا الإطار سنعتمد المنهج التاريخي والمنهج الوصفي

1- دلالات ومعاني مفهومي الولاية والصلاح.

إن المتأمل في مختلف البوادي والقرى والوحدات السكنية بمنطقة الغرب، تجلب أنظاره كثرة الأضرحة التي تتوسط في غالبها القبور، فلا توجد مقبرة إلا وفيها ضريح لولي أو منسوب له، وحتى بجانب الأنهار ومنابع المياه التي تحمل دلالات ورموز ترتبط بالمعتقدات؛ ولذلك نطرح الإشكال الآتي: ما دلالة وجود الأضرحة بهذا المجال الجغرافي من شمال إفريقيا؟ وفي هذا السياق قال المؤرخ "**شارل أندري جوليان**" في حديثه عن سكان شمال إفريقيا خلال العصر القديم: "لم يقتصر الأفارقة على استعمال لغة أهل الغلبة، بل تبنى الكثير منهم معتقداتهم الدينية التي كانت جزء لا يتجزأ من الحضارة الرومانية"[1]. وعلى هذا الأساس

---

* أستاذ باحث في علم الاجتماع بجامعة ابن طفيل، القنيطرة.

1- شارل جوليان أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1969، الجزء الأول، ص:253.

سنقوم بتحديد دلالات كلمة "**أولياء**"، حيث في الاصطلاح ترد كلمة "**الولي**" مرادفة لكلمة **الصالح** في التداول اليومي دون تمييز، والتي اشتقت منها في الإسبانية كلمة "**مرابطو**" التي حددتها المعاجم اختزالا في معنى "**ناسك مسلم**"[1]. ولا تقتصر فقط على الولي المرتبط بالزاوية، بل تشمل القبر والمزار والمعبد وحتى الصخور والتراب والمكان المجاور له، وفي هذا السياق يقول إميل دوركايم "القداسة هي صفة تضفى على الأمكنة والأشياء وفق مجموعة من المعتقدات والممارسات التي تقام في طقوس زيارتها وليس من خاصية ذاتية في المكان أو الشيء ذاته وهو ما جعل هذه الصفة " القداسة" تطال كل ما يحيط به في المعتقد"[2] سواء في المناطق الساحلية أو الداخلية ونظريا يعد الولي صفة لمرتبة عليا من الترقي في سلم العبودية أو الزهد الصوفي، ويعتبر كذلك "سالكا طريق الحق بعيدا عن ملذات الحياة الفانية ". ولا يذكر في مجال الغرب اسم "**ولي**" إلا ويقرن بلفظ "**الصالح**" لدى العامة من الناس التي تميل احترام الأولياء وأضرحتهم. ولذلك سنقوم بتفكيك المعاني الرمزية والثقافية لهذا اللفظ.

2-معاني كلمة ولي وأبعادها الدينية الثقافية.

عندما يرغب المسلمون في وصف أحد ب"**الصلاح**" فإنهم يفضلون استعمال كلمة "**ولي**" التي تعني حرفيا القريب من الله. وقد درس **كولد زهير** مختلف معاني هذه الكلمة في القديم عند المسلمين فوجد في القرآن نفسه معاني مختلفة، حيث ورد بمعنى الولي الذي يطالب بالانتقام، أو حليف إلى المعنى النهائي "**صديق الله**"[3]، بمعنى أن الولي محب لله وسالك طريق الحق ليصل إلى مرحلة الكشف أو معرفة سر العبودية الخالصة بتذوق معانيه بالعبادة والزهد والتقرب والابتعاد عن العامة من الناس. وقال أبو يعقوب يوسف بن يحي بن عيسى بن عبدالرحمان التادلي الذي عرف بابن الزيات:" إنه لم يخل زمان من ولي من أولياء الله تعالى يحفظ الله به البلاد ويرحم به العباد."[4] وفي نفس السياق لاحظ الباحث الأنثروبولوجي "**كليفود غيرتز**" من خلال كتابه "**الإسلام ملاحظا**"، أن الدين إطار يسمح بفهم الحقائق

---

1 منشورات وزارة الثقافة، **الزوايا في المغرب**، مطبعة المناهل، الجزء الأول 2009، ص 42.

2 - Durkheim Emile, 1991, Les Formes Élémentaires De La Vie Religieuse Le Système Totémique En Australie. Le Livre De Poche, Librairie De Fronce, Paris.

3- إدموند دوتي، **الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق،2014، ص 55.

4-أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رقم 4، الطبعة الرابعة،2014، ص31.

الاجتماعية ولكن أيضا للتصرف انطلاقا من المدركات التي يتيحها هذا الإطار: "ولذلك يمكن أن يكون الدين حجرا مقذوفا في العالم، لا ينبغي أن يكون ملموسا ولا أحد يقذفه "[1]. وتبعا لهذا المنظور فالمتصوف يبحث عن تجربة التذوق الديني ليترقى في سلم العبودية، من خلال صلاح الأحوال والأعمال والخلق، لذلك ارتبط نعت الولي بالصالح، فما المقصود بالصلاح؟ وكيف تتحدد أبعاده الرمزية الثقافية؟

3 -دلالات ومعاني كلمة صالح الرمزية والثقافية.

لقد ذكر **أبو الحسن الشاذلي** أن الصالحين فئة مستقلة عن الصديقين والأولياء والعلماء، أجسادهم مقدسة ولا يصلح شرح أحوالهم إلا لصديق أو ولي. وجاء في تصنيف له: " أن من يحقق الذكر والتفكر والفقر والحب يحتل مكانة الولي المتقرب، ومن يحقق اثنتين يحتل الثالثة الشاهد الموقن، ومن لا يحقق إلا صفة واحدة يحتل مكانة العبد الصالح "[2]، ولقد تداول **ابن رشد** لفظ الصالح بمعنى الولاية والتصوف واختصرها في مصطلح " صالح "[3]، إن استعمال ورواج صفة صالح وصالحين وصلحاء ليس أمرا جديدا في إفريقيا، بل يروي **المالكي** خروج **حفص بن عمر الجزري** ورجال صالحين من أهل الجزيرة احتجاجا على ضريبة أحدثها الأغلب ورفعا للضيم عن المسلمين ودعاء الصالحين وموت أبي العباس إثر قرحة، يبدو لنا أن كلامه هنا يحيل إلى واقع خاص وإلى فئة متفردة، فئة الصالحين. وللتدليل بوضوح أكبر على معنى التصوف والولاية الذي اقترن به مصطلح الصالح خلال زمن المالكي القرن 10م، وأورد **عبد الله محمد بن عبد الله السديري** الذي مات قتلا بالرماح وصلبا سنة 309هـ، كان من العباد والزهاد والبدلاء المريدين العاملين ينتحل التوكل، كثير الحج والأسفار والتغرب عن الأوطان وكان من أولياء الله، وقال **عبد الله الشيعي**" احبسوه فما زال الصالحون يدخلون على الملوك ويعظونهم"[4]، وورود كلمة **صالح** في مقابل **ولي** يبدو أمرا خاصا بالمغرب الكبير[5]، وهنا نستعمل المغرب الكبير بمضمونه الديني- حسب **هارتمان** - الممتد إلى مصر حيث نجد قبور صلحاء مسماة إلى حدود الإسكندرية. ومنذ أن بدأت حركة الصلحاء

1- محمد إبراهيم الصالحي، " الدين بوصفه شبكة دلالية -مقاربة غيرتز "، **مجلة دفاتر إنسانيات -في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية**، العدد 04-2013-وهران الجزائر، ص:81.

2- نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع**، دار الفارابي -بيروت، الطبعة الأولى، 2001، ص:498.

3 - نفس المرجع، ص 499.

4 - نللي سلامة العامري، نفس المرجع، ص505.

5 - إدموند دوتي، **الصلحاء**، ص: 54.

خلال القرن السادس عشر الميلادي ولفظ الصلحاء يتطور، حيث وجد في كتب ومرويات صاحب القرطاس، وابن خلدون والبكري أن أصل كلمة المرابطين تعني الصلحاء، وهم مبشرين دينيين ومقاتلين. وكان أوائل الشرفاء مرابطين مجاهدين، حيث أنهم اكتسبوا حظوتهم من جهادهم ضد البرتغاليين، وبعد انتهاء تلك المرحلة البطولية ذهبوا لنشر الإسلام وأصبح الرباط القوي مؤسسة دينية حقيقية أي زاوية. ولقد انطلقت هجرات الصلحاء المرابطين من عمق المغرب الأقصى وهي الساقية الحمراء وانتشروا في مختلف بقاع شمال إفريقيا "[1]. وذكر ابن زيات صفات وأحوال الأولياء منها:" تفرغهم للعبادة دون تعلق بحرفة وكذلك كانت طائفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم."[2]وفي هذا الصدد نسترشد بقول ابن عربي:" فاعلم أن الولاية البشرية على قسمين: خاصة وعامة، فالعامة توليهم بعضهم بعضا بما في قوتهم من إعطاء المصالح المعلومة في الكون... أما الولاية البشرية الخاصة فهي مالهم من الولاية التي هي النصرة، وجعل أصحاب الأحوال أصحاب المقامات في دائرة الولاية البشرية الخاصة"[3].

4- مفهوم المعتقد بين الدين والواقع.

يعتبر الحديث عن المعتقد حديث عن أفكار وتصورات يؤمن بها الكائن البشري ويتبناها كقواعد لضبط سلوكه وتوجيه أفعاله." ويعد المعتقد حسب الباحث "غراس السواح" أول أشكال التعبيرات الجمعية عن الخبرة الدينية الفردية التي خرجت عن الانفعال العاطفي إلى التأمل الذهني، فيعطيها شكلها المعقول الذي يعمل على ضبط وتقنين أحوالها، ويتدخل العقل من أجل صياغة مفاهيم من شأنها إسقاط التجربة الداخلية على العالم الخارجي، فيتم فرز موضوعات معينة أو خلق شخصيات وقوى معنوية تستقطب الإحساس بالمقدس وتجذبه إلى خارج النفس ويتألف المعتقد من الأفكار التي تعمل على رسم صورة ذهنية لعالم المقدسات وتوضح هذه الأفكار في شكل صلوات وتراتيل"[4]. ومن هنا يرتبط المعتقد بالسلوك أو الطقوس المصاحبة له على مستوى الحياة العملية في الميدان الديني، ويرى إيكلمان": أنه

1إدموند دوتي، **الصلحاء**، نفس المرجع، ص53.

2- ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، مرجع سبق ذكره، ص50.

3- محيي الدين ابن عربي، **الفتوحات المكية**، تحقيق وتقديم عثمان يحيى، تصدير ومراجعة إبراهيم مذكور، الهيئة العامة المصرية للكتاب، السفر الثاني الطبعة الثانية، مصورة عن الطبعة الأولى، ص521-523.

4- فراس السواح، **دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع**، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة - دمشق، الطبعة الرابعة، 2002، ص46-47.

إذا كانت المعرفة بمبادئ الإسلام الرسمي قد غذت أقوى بكثير مما كانت عليه في الماضي، فإن الإسلام الذي يدعو إليه الإصلاحيين يعد أقل توافقا مع التنظيم الاجتماعي والحس المشترك. فالإسلام كباقي التقاليد الدينية الكبرى يخضع لإعادة صياغة المعتقدات وتأويلها من طرف حاملها، عبر الأجيال المتعاقبة والسياقات الجديدة، حتى وإن كان هؤلاء الحاملون أنفسهم لا يدركون أنهم قد أعادوا صياغتها"[1]. ولقد ترسخ الاعتقاد في ظاهرة الأولياء بمجال الغرب في الفترات العصيبة من تاريخ المغرب، فالضعف وقلة الحيلة والفقر والمرض والجفاف والغلبة على الأمر في الأمور الحياتية، تدفع الإنسان قسرا إلى الرغبة في الخلاص أو البحث عن بدائل وحلول لأزماته الوجودية داخل محيطه الاجتماعي المحكوم بظروف وعوامل لا قبل له بها. وتم اللجوء إلى الاعتقاد في الأضرحة والمزارات والأولياء، لأنه لا أحد يذهب لولي معين دون أن تكون له حاجة دنيوية أو مآرب يرغب في تحقيقها. "ولذلك من الثابت عموما أن التصوف يترسخ ويشتد عوده إبان الأزمات، حين يدب الضعف والوهن في كيان الدولة المركزية، وتستشري الفتن وتحدث المجاعات والأوبئة والكوارث، فيصبح الأولياء بديلا ضروريا لإعادة التوازن السياسي والاجتماعي. وحسبنا دليلا على هذا الارتباط قول ابن الخطيب عن المتصوف أبي العباس السبتي أنه كان مستغاثا به في الأزمات"[2]. ولقد فسر ألفريد بل "ذلك بكونه راجع إلى العقلية المغربية المجبولة على الاعتقاد بثنائية الخير والشر، بالإضافة إلى سبب آخر يعود إلى تذمر الرعية من سلوك الفقهاء وحياة البذخ والترف التي عاشوها، وإهمال المسؤولين لقواعد الدين. وفطن إلى أن نشأة التصوف ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من الحكم المرابطي"[3]. ولقد عمل الإسلام على ترسيخ عقيدة الإيمان الذي يتألف من ثلاثة عناصر: وهي التصديق، والإقرار، والعمل. وهذه المعتقدات حسب "هنري باسي" لم تكتب رسميا في الإسلام كما هي في الأديان الأخرى (كقانون الإيمان المسيحي مثلا)، وكان العلماء يحاولون خصوصا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، أن يوضحوا بإيجاز وبشكل جوهري أسس الإيمان الإسلامي وقد أطلق على هذا النوع من الكتابات اسم العقيدة "[4].

1 - Dale Eikelman, Not Lost In Translation : The Influence Of Cliffort GEERTZS WORK AND Life On Anthropologie In Morocco, The Journal Of NORTH AFRICAN Studies, 14,13.385.2009' P: 393.

2 - إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، 2004، ص126.

3- نفس المرجع، ص126.

4 - هنري ماسيه، **الإسلام**، ترجمة بهيج شعبان، منشورات عويدات - بيروت باريس، الطبعة الثالثة،1988ص137.

5. التعريف بمنطقة الغرب.

كانت تعرف منطقة الغرب "بأسماء الهبط أو أزغار"[1]. ومنطقة الغرب كانت تدعى "بلاد أزغار"، ومعنى ذلك الأراضي المنخفضة أو السهلية. وبدأت تظهر كإقليم قائم الذات خلال مطلع القرن العاشر الهجري، حيث كانت مملكة فاس تتكون من نفس عدد الأقاليم الموجودة في مملكة مراكش. وتوجد في إقليم أزغار مدن جمعة القرواش - القصر الكبير، وعاصمته أو مركزه حسب ما جاء عند "مارمول كربخال"، هو القصر الكبير بعد أن كانت العرائش من قبل هي مركزه، ويبدأ هذا الإقليم من نهر أبي رقراق غربا ويمتد في الجانب الآخر إلى أحد جبال الريف منتهيا في بعض المواضع إلى جبلي زرهون وزلاغ يحده شمالا بل غربا نهر بونصر جنوبا بل شرقا. طوله عشرون فرسخا من الشرق إلى الغرب وعرضه عشرون من الشمال إلى الجنوب يخترقه من طرف إلى طرف وادي سبو الكبير، وكان يشرف على هذا الإقليم في بداية عهد السعديين عامل واحد يقول "مارمول كربخال"، وليس للشريف الذي يحكم اليوم سوى عامل واحد على المدن الثلاث: أصيلا والقصر الكبير والعرائش ومعه خمسمائة فارس وأكثر من ألف من رماة البنادق وشن الغارات على طنجة، ويقيم عادة بالقصر الكبير وإن كان يذهب مرة بعد الأخرى لتفقد الحدود وفي عهد السلطان أحمد المنصور السعدي 986-1012م 1576-1603م، أصبحت منطقة الغرب تابعة إلى فاس لأن هذا السلطان كان قد فرق عمالات المغرب على أولاده فاستعمل الشيخ- يعني المامون على فاس والغرب- وولاه عهده – واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها. وفي عهد السلطان سيدي محمد ابن عبد الله (صفر 1171-رجب1204-1790)، حيث كانت البلاد مقسمة إلى سبعة عشر عمالة من بينها الغرب الذي كان تحت نظر القائد ابن الحبيب الحماري المالكي، وعبد الله بن المعروف السفياني الذي سيعوض بالهاشمي السفياني، وأنشأ السلطان عمالة جديدة هي المهدية، وتضم قبيلة بني احسن. وفي عهد السلطان مولاي سليمان (1792-1824)، سيتم فصل عمالة بني احسن عن منطقة الغرب لأنها أصبحت تابعة لعمالة العدوتين، التي أضيفت إليها الشاوية والدار البيضاء وعرب الوديان. وأصبحت منطقة الغرب ككل، أي قبائل بني مالك وسفيان بما في ذلك العرائش في عمالة واحدة تولاها الفقيه حمدون ابن عبد الرحمان ابن الحاج السلمي (1232-1817م) واستقر في العرائش. وفي سنة 1808م أصبحت منطقة الغرب ضمن منطقة

---

1 - توري عبد العزيز، **معلمة المغرب**، الجزء1، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا1989، ص345.

الشمال من تطوان وطنجة والعرائش والقصر الكبير والقبائل المجاورة من أهل الجبل وبني مالك والخلط وطليق. وفي عهد السلطان المولى عبد الرحمان (1824-1859م)، كانت عمالة الغرب تضم سفيان وبني مالك وكان يحكمهم القائد عبد الكريم السفياني الذي استشهد في حرب تطوان 1273شعبان. وخلال القرن العشرين مع الاستعمار الفرنسي خاصة أصبح مصطلح الغرب يطلق على جزء من حوض نهر سبو السفلي الذي يستقر فيه بني مالك وسفيان، وبهذا وقع التمييز بين الضفة اليمنى لنهر سبو، مجال استقرار بني مالك، وسفيان والضفة اليسرى مجال استقرار بني احسن، وستستقر قبائل شراردة بين سيدي قاسم وسيدي سليمان. وأصبحت التسمية الثلاثية "الغرب، شراردة، بني احسن،" ذات مدلول مجالي وبشري، فالغرب يعني الأراضي الواقعة شمال نهر سبو وقبيلة بني احسن ذاتها وكذلك الأمر بالنسبة للشراردة، فالاسم يعني القبيلة تم مجال استقرارها حاليا في المنطقة"[1]. تتميز المنطقة بخصوصيتها الجغرافية، حيث وجود نهر سبو وأراضي خصبة صالحة للزراعة، كانت شبه فارغة لم تعرف التعمير إلا حديثا؛ فكانت قفارا خالية من السكان توجد بها المروج والأعشاب نظرا لغياب الزراعة والوسائل لحرث الأرض، فقد كان عدد الفلاحين المالكين لدواب الحرث قليلا. لذلك نمت الأعشاب في الفيافي نظرا لخصوبة التربة ووجود الماء واتخذتها الذئاب البرية مأوى لها ومنطقة نشاطها، والتي كثيرا ما نسجت حولها الحكايات والقصص التي كانت تروى للأطفال. وشكلت منطقة انتجاع الصلحاء نظرا لوجود الأمن وغالبا ما كانوا يبحثون عن مناطق آمنة تتوفر فيها شروط الخلوة والابتعاد عن العامة أو" الأماكن المكتظة هروبا من الحواضر لتأمين دينهم من الفتن"[2]. هذا بالإضافة إلى وجود الماء "نهر سبو" الذي لعب دورا أساسيا في الاستقرار ونصب الخيام التي كانت عبارة عن بناية بسيطة بالقصب أو الطين والتبن المحلي. ولقد وصف "نولاسك" سكان الغرب بما يلي: " سكان هذه السهول عرب يسكنون دورا مبنية بالأخشاب ومغطاة بجلود الحيوانات. تتخذ هذه المساكن شكل دوائر، وفي وسط الدائرة تقع دار أكبر من الدور الأخرى وهي ملك لكبيرهم الذي يحمل لقب الشيخ، وهو الذي يتولى تسيير شؤونهم وحل مشاكلهم. ويضيف أن استقرار هؤلاء السكان يتم بشكل

1- **معلمة المغرب الأقصى**، الجزء التاسع عشر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المدير المشرف، محمد، مطابع سلا،1425 -2004، ص: 6317.

2 - محمد المامي بن البخاري، **البادية**، الناشر، زاوية الشيخ محمد المامي - انواذيبو، موريتانيا، الطبعة الأولى، 2006م، ص5.

مؤقت، إذ بمجرد ما ينتهون من جني المحصول الزراعي واستهلاك دوابهم للعلف، يجمعون أمتعتهم ويضعونها على ظهور دوابهم لينتقلوا إلى إرض أخرى، وملكية الأرض منعدمة لديهم"[1]. والمعروف عن البدو أنهم "أينما وجد الماء وجدوا ". ولقد كتب "مانس" في هذا الصدد أن " الماء، كالشمس، والنار، يمثل عنصرا أساسيا للحياة، كونت حوله المجموعات الاجتماعية عدة أساطير وجعلته موضوعا لعدة طقوس"[2]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ منطقة الغرب مغمور لندرة الكتابة حوله باستثناء ما قدمه " ميشو بيلير" وجاك بيرك" من معطيات حول المنطقة إبان الفترة الاستعمارية من خلال دراسة المجال ووصف ساكنته التي كانت معدودة على رؤوس الأصابع. لكن التأريخ لظاهرة الصلحاء أو القبور المجهولة النسب لم يحظى بالاهتمام فظل مثل جبل الجليد المغمور جزؤه الأكبر تحت الماء، لا تستطيع تحديده لأنه غير مدون ما عدا الروايات الشفهية المتداولة والتي غالبا ما يغلب عليها الخيال فلا تعكس الحقيقة. ولقد لاحظ "ادموند دوتي" أن "انتشار الأحجار على شكل كراكير بجانب الطرقات بالمغرب أصبحت فيما بعد أضرحة تحمل أسماء أولياء حقيقيين أو وهميين"[3]. وكلما اشتدت فترات القحط إلا وحلت الأمراض والمجاعة واتجه الناس إلى الأضرحة طلبا للنجاة، لأنهم يعتبرون فترات القحط نتيجة لسوء أفعالهم وابتعادهم عن منهج الله. لذلك يحل الزهد ويتم الرجوع إلى جادة الصواب عن طريق التبرك أو التضرع لله داخل ضريح أو زاوية. ولهذا فلا غرابة اليوم عندما نرى بعض الطقوس التي تحيي عندما لا تسقط الأمطار وتنضب المياه من العودة إلى طلب المطر والتوبة أو الكفارة عن الذنوب بالاستغفار أو اللجوء إلى أطفال الكتاتيب القرآنية الصغار ودفعهم إلى حمل الألواح وطلب الغيث، باعتبارهم صبية ليس لديهم ذنوب ولازالت تصرفاتهم بريئة من كل ذنب حسب المتخيل الشعبي. ولم يدرك الإنسان قيمة السحاب والمطر، إلا حينما بدأ حياة الرعي، أو لما تحول إلى مزارع، ومربي الماشية بدون المطر سيفقد القطيع المراعي، وينخفض حجم الإنتاج الزراعي. كما منحت الروح للسحب عبر مخيلة المتوحشين، ومازالت قبائل الزولو إلى يومنا هذا، تمثل حسب غالاواي كقطيع يحرسه رعاة السماوات، المتميزون بسحرهم، فبإمكانهم جمع السحب الجشاء، وتوجهها للوجهة التي

---

1 - « Relation Des Voyages Au Maroc Des Redempteurs De La Merci En 1704.1708 Et 1712' » In **Sources Inedites De Lhestoire Du Maroc '[S.I.H.M]** 2eme Siecle .France , T. Pp.612-818

ألفريد بل، " بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربيين "، ترجمة سميرايت أومغار، **سلسلة ضفاف**، العدد 20.2016، مطبعة بني ايزناسن - سلا، ص: 48.

3 - E.Doutté, **Magie Et Religion Dans 'l'Afrique Du Nord Alger** 1909' ; P421

يريدونها."[1] ومن الملاحظ أنه عندما تحل الأمراض أو الأوبئة والكوارث الطبيعية يتم الرجوع إلى جادة الصواب وتأنيب الضمير الأخلاقي على الأخطاء المرتكبة لاعتقاد مفاده أنها عقاب من الله للبشر عن الأفعال المخالفة للدين، وهذا الاعتقاد ضارب بعمقه في جذور التاريخ، وعلى ضوء ذلك يتم بالارتباط بالأولياء للحصول على البركة. ومن المعلوم أن جل الأولياء المنتشرين في الغرب ترجع أصولهم إلى عمق المغرب الأقصى وتحديدا الساقية الحمراء كما أكد ذلك "إدموند دوتي" من خلال كتابه "الصلحاء": حيث ورد القول الآتي: "عندما نصل إلى المغرب الأقصى وفي أقصى الغرب الإفريقي نجد عدد الصلحاء والزهاد في تزايد بشكل لافت للنظر[2]". وتعد الساقية الحمراء منطقة عبور مركزية لمختلف المتصوفة الوافدين من الشرق إلى شمال إفريقيا حيث انتشروا في مختلف مناطق المغرب وأسسوا زوايا شكلت صلة وصل تجمع شمال إفريقيا بجنوبها ومختلف مناطق المغارب، هكذا يتسنى الحديث عن رحلة التصوف عن طريق رمي عصى الترحال في المناطق الآمنة من الصراعات السياسية وغيرها من الفتن. وفي هذا السياق شكلت منطقة الغرب مجالا خصبا للعديد من مزارات التي يصعب إثبات تاريخها نظرا لغياب التوثيق أو الكتابة، بالإضافة إلى رغبة بعض المتصوفة في إخفاء هويتهم وعدم التظاهر بالتقوى والورع إما طلبا في نيل رضى الله أو خوفا على نفسه من بطش المتطرفين. ويمكن أن نشير إلى مسألة الهبة الممنوحة من طرف المخزن للأضرحة، ودورها في استمرار ظاهرة الأولياء والتي تعد استمرارا لظاهرة التصوف الإسلامي، كما قال جاك بيرك: " كل زاوية جديدة تنشأ عن فرع سابق مثل برعم متمرد وناضر. لكن غايتها الأولى تشبيب تقاليد متقادمة تنحط رويدا رويدا إلى مجرد تسيير للممتلكات التي خلفها المؤسس وأحيانا تتحول إلى صراع قاس من أجل خلافته والاستيلاء إما على الامتيازات أو على بركته"، ومثال ذلك ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش "دفين جبل العلم بالشمال المغربي"[3] والذي نفذ تأثيره إلى منطقة الغرب بحكم جوار هذه المنطقة للشمال المغربي.

1- ألفريد بل، " بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربيين "، مرجع سبق ذكره، ص50

2- إدموند دوتي، **الصلحاء، مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، 2014، ص:27.

3 - **الزوايا في المغرب**، منشورات وزارة الثقافة، مرجع سابق الذكر، ص434

6 - دور الزوايا والأضرحة.

بعد دخول الطرق الصوفية إلى المغرب، وجدت عوامل التمكن والانتشار متاحة، ووجدت أيضا مصلحين منتشرين فيها بكونهم فقهاء وعلماء، وقد عرفت الحركة الصوفية في العهد المريني خصوصا، نشاطا مهما نتيجة الدروس التي كان يقدمها " أبو مدين الغوث " الشيء الذي ساهم في تكريس ثقافة الزهد الصوفي وتعريف الناس بقواعد السلوك الديني، سواء في الداخل أو الخارج حيث ساهم الفقهاء الصوفيون في نشر الإسلام فيما كان يعرف بالسودان الغربي"[1]. ولذلك فإن الدين ورجاله والتنظيمات الدينية على العموم، لعبت ومازالت في البلدان الإسلامية، تلعب أدوارا مهمة ليس فحسب على المستوى الديني والاجتماعي والسياسي، بل على المستوى الاقتصادي في المغرب على الخصوص، لأن الدولة في هذه البلدان لم تعمل على فصل الدين عن الدولة تطبيقا لمبدأ الإسلام دين ودولة، لا ينفصل فيها العمل الدنيوي عن العمل الأخروي. وإذا كانت الزاوية قد اعتبرت لازمة الاستمرارية في تركيب المجتمع المغربي على الأقل منذ القرن 16م. فإن ذلك راجع لأدوارها التي منها: التأطير الديني من خلال تعريف المجتمع بأمور الدين وما يتضمنه من أوامر ونواهي، بالإضافة إلى فك النزاعات والخلافات بين الناس، وتحفيظ القرآن للناشئة وخلق توازنات داخل المجموعات الاجتماعية.

7 -التدين الشعبي وتقديس الأولياء بمنطقة الغرب.

ولقد ذكر "مصطفى بوشعراء" التدين عند قبائل بني احسن من خلال قوله: "كان الحسناويون يقدسون الأولياء والصالحين والأشراف والمرابطين، ويتبركون بأعمالهم ويلتمسون منهم دعواتهم إلى الله، مثلما هو موجود في الحواضر والبوادي. ولا يدعي بنو أحسن البضعة النبوية على غرار غيرهم الذين استوطنوا أرض بني أحسن يذكرون أنهم من ذرية الصحابة مثل شرقاوة، والعروسيين، وأولاد سيدي إبراهيم، وأولاد المفضل بمشرع الرملة، والبوشتيون جوار القنيطرة، وأولاد مليك، وأولاد بن حمادي وكلهم من أولاد يحيى. ومريدو الطوائف كانوا موجودين بالقبيلة، فكان جماعة مختار وأولاد محمد يحجون إلى ضريح

---

1 - أحمد التوفيق، **النسب الشريف والسند الصوفي في تاريخ المغرب**، الدروس الحسنية الرمضانية لعام 1423الموافق 2002م الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط، الطبعة الأولى، 2003، ص:5-6.

سيدي محمد بن عيسى الفهدي السفياني المختارى دفين المدينة[1]. ومن أبرز صلحاء الغرب الشيخ محمد بن منصور السفياني دفين البسابس قال عنه محمد بن العياشي المكناسي في كتابه زهرة البستان" كان كبير الشأن، حدثني الثقات عنه بأنواع من الكرامات، وسمعت الفقيه أبا العباس الزموري يقول، كان سيدي محمد بن منصور آية من آيات الله، لا يشك أحد في فضله وولايته، وقبره بجزيرة البسابس من بلاد أولاد بن جلول، والمعروف نسبته للشيخ التباع، والروضة التي عليها بناها سيدي عبد الرحمان المجذوب، وحين أكملها رآه في النوم فأخذ عنه وألبسه سيدي محمد بن منصور حلة خضراء"[2] ولقد كانت الزوايا بالغرب تركز على التربية الروحية، بمعنى"[3] تهذيب النفس وتقريب العبد إلى ربه". ونموذج ذلك أتباع الزاوية التجانية، نسبة للولي سيدي أحمد التجاني، حيث نجد الأتباع يحافظون على الذكر، ذكر الله في عملهم وحتى الفلاحون في الحقل يحافظون على الأذكار وهي من وصايا الشيخ سيدي أحمد التجاني الذي قال:" أوصيكم ونفسي بما أوصاكم الله به من حفظ الحدود ومراعاة الأمر الإلهي، على حسب جهدكم واستطاعتكم ... فاتركوا مخالفة أمر الله ما استطعتم وقوموا بأمره على حسب الطاعة... أديموا الصلوات المفروضة في الجماعات بالمحافظة على الصدقة وليكن من جملة أورادكم التي تحافظون عليها بعد الورد الذي هو لازم الطريقة الحزب السيفي وصلاة الفاتح... وعليكم بصلة الرحم وتجنبوا معاداة ذوي الأرحام وعقوق الوالدين، وتجنبوا البحث عن عورات المسلمين وعليكم بمناصحة إخوانكم في الطريقة..."[4]. هكذا يمكن الحديث عن دور المتصوفة في التربية الروحية والتماسك الاجتماعي في لحظات تاريخية مفصلية في تاريخ المغرب الذي كان يمر بمراحل انتقالية على مستوى أشكال التنظيم الاجتماعي والموروث الثقافي الذي يشد الوثاق للمجتمعات التقليدية عموما، نظرا لاستمرارية الأعراف والتقاليد المتحكمة في المجتمع البشري. لقد فقد دور الزاوية

1- مصطفى بوشعراء، **علاقة المخزن بأحواز سلا، قبيلة بني أحسن 1912-1860م**، كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996، ص: 26-29.

2- محمد بن العياشي المكناسي، **زهرة البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان**، تحقيق أحمد قدور، 2013، ص: 98.

3 - البشير ابن خير الدين التجاني، " المنهج التربوي عند سيدي أحمد التجاني"، **الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية الخطاب الصوفي التجاني زمن العولمة**، أيام 4،5،6/نوفمبر 2008، ص:136.

4- سعيدة زفزاف، "التربية الروحية للطريقة التجانية في غرب إفريقيا "، **التصوف والحواضر الروحية في بلاد المغارب**، تنسيق عبد الباسط الشرقيي، النشر الجامعي الجديد، السنة 2018، ص: 361.

في مغرب اليوم جزء من أهميته لدى الجيل الحالي، لأنها لم تعد تدرس طلبة العلم وحفظة القران كما كانت في القديم أو فك النزاعات وإيواء الغريب، فقد كان الارتباط بالمزارات والصلحاء بسبب الأوبئة والأمراض التي عرفها الإنسان الغرباوي" كالجذري والجذام" وغيره من الأمراض الفتاكة، حيث لم يكن هناك أطباء أو مجال للاستشفاء غير الذهاب للأضرحة طمعا في نيل الشفاء وتحقيق المآرب فالضعف والفقر وقلة الحيلة والمرض كان سبب مباشر في تقديس المزارات وإقامتها لجلب الارتياح النفسي والتمسك بالأمل وراء الآلام والأحزان، سيكون ذلك سببا في فتح المجال أمام قطاع الطرق والمحتالين والسحرة والكهنة، وهذا نتاج لأزمات الحياة التي تعتبر حسب موسوعة علم الإنسان:" لحظة خاصة ذات أهمية معينة في دورة حياة شخص ما. ومن هذه اللحظات: الميلاد، المرض، الموت وغيرها، وقد يعرف هذا المفهوم بطرق مختلفة حسب الأطر أو السياقات الاجتماعية الثقافية المختلفة، حيث أن أزمات الحياة ليست فقط تلك الأحداث التي تقع بصورة طبيعية، ولكنها أيضا تلك التي تعرف ثقافيا واجتماعيا على أنها كذلك وتكون مصحوبة بممارسات شعائرية ذات أهمية سيكولوجية واجتماعية في تحديد وتفسير طبيعة وسياق نتائج الحدث"[1]. ولقد لاحظ بروديل "أن التاريخ وإن لم يسلط إلا أضواء قليلة على الفقراء، إنما بالرغم من ذلك كانت لهؤلاء دائما وسائل غير مباشرة لإثارة انتباه الآخرين إليهم، ومنها الاضطرابات والفتن والتمردات والعصيان إلى جانب اللجوء إلى وسيلة التلصص وقطع الطرق، التي شكلت في القرنيين 16و17م ظاهرة عامة في دول البحر المتوسط كافة كرد فعل من هؤلاء الفقراء على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة، وكانت تنتشر تلك الظاهرة عادة في المناطق البعيدة عن المركز كالجبال والسهول التي تتقلص فيها سلطة المخزن"[2]. فلما قدم المستعمر ووجد المنطقة على هذا الحال (أرض خصبة وإنسان جاهل)، حافظ على الوضع الديني من خلال توقير المزارات ومساندة الزوايا. ولقد حاز الشرفاء والمنتسبون إليهم أراضي شاسعة بمنطقة الغرب، إما عن طريق الهبة أو عن طريق تقديم خدمات متمثلة في الاستشفاء أو ما يعرف ببركة الولي، "فالبركة حسب "غيرتز" تشكل قوة روحية من يملكها يصبح وليا أو

1- شارلوت سيمور سميث، **موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية**، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري، الطبعة الثانية، 2009، ص: 81.

2- محمد استيتو، **الفقراء في المغرب نماذج من القرنيين 16 و17م**، مؤسسة النخلة للكتاب – وجدة، 2004، ص: 85.

مرابطا"[1]. وكانوا غالبا ما يحصلون على الأرض عن طريق الرأسمال الرمزي المتمثل في الكرامات أو البركة أو قضاء الحاجات. ولقد قال الرحالة "دي شالار" أن المغاربة " يتخذون المعجزات كالخيالات الغريبة غير متصفحين إياها سوى بعقل سفيه ودنيوي مطمور في الطبيعة "[2]. ويدفعهم الجهل إلى تقديس أولياء موتى لا صلة لهم بالإسلام، ولذلك يمكن أن نساءل مغرب العصر الراهن عن سر استمرار هذه الشوائب المخالفة حتى للدين نفسه، ألم تشكل التقنية الرقمية وسائل للحد من طقوس الخرافة وتقديس الأضرحة والمزارات؟ ومن خلال الكتابات الأجنبية عن الحياة الثقافية للمغاربة ومعتقداتهم يمكن استنتاج وجود مفارقة غريبة بين المعتقدات الدينية والواقع بين ما هو ديني روحي وما هو شعائري طقوسي، بين الوثنية والدين. ومن هنا يبدو لنا التساؤل الذي يطرحه جاك بيرك: " هل كان أبو مدين قطب التصوف المغربي مرابطا، أم وليا؟ "[3]. إذ نلاحظ من خلال هذا التساؤل أنه يدرك المفارقة والتعارض بين الممارسة الروحية والاجتماعية، طريق المعرفة وطريق الحب. " الحياة الروحية ليست خيارا بين النور والحرارة "[4]. بمعنى أنها إيمان بالسر الإلهي وبحثا عن الظمأ الأنطولوجي للإنسان لتحقيق الارتياح النفسي والاطمئنان للحياة في العالم الآخر بعد الموت. ولهذا يذكر عن أولياء الغرب ومنهم أحمد الحارثي السفياني نزيل مكناسة الزيتون أنه قطب رباني صحب الشيخ سيدي سليمان الجزولي، وأخذ عنه فهدى الله به أمة عظيمة ومشايخ صوفية يعظمونه غاية التعظيم، ويثنون عليه الثناء الجميل ويحكون عنه عجائب الأسرار، قال في الدوحة سمعت شيخنا أبا الحجاج بن عيسى يقول، سيدي أحمد الحارثي لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى، وكان دأبه يخيط أطباق العزف والقفف، فلا يدخل المخيط ولا يخرج إلا بكلمة الهيللة"[5]. نلاحظ من خلال ما روي عن هذا الشيخ أنه كان يمارس مهنة صناعة "القفف" وهي "وسائل للتخزين وجلب المؤن"، مما يتضح لنا أن صلحاء الغرب رغم كونهم فقهاء وعباد فهم كانوا يمتهنون الحرف والمهن ليكون لهم دخل حلال حسب منظورهم

---

1 - كليفورد غيرتز، **الإسلام من وجهة نظر علم الاناسة، التطور الديني في المغرب وأندونيسيا**، ترجمة أبو بكر أحمد باقادور، دار المنتخب العربي - بيروت، 1993، ص:41.

2 - محمد الكتاني، " إنتاج المقدس بالمغرب من خلال كتابات أوربية ما بين القرنين 17و20م "، الذاكرة **والهوية**، تنسيق محمد جادور . شعيب حليفي، رشيد الحضري، الناشر كلية الآداب بن مسيك الدار البيضاء، سنة 2013، ص: 234.

3- J.Berque، **Linterieur Du Maghreb**، P.54.

4 - نلي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع**، دار الفارابي - بيروت، الطبعة الأولى،2001، ص: 508.

5- محمد بن العياشي المكناسي، **زهرة البستان**، مرجع سابق، ص:94.

الديني للأمور الدنيوية الفانية. وعلى العموم شكل الدين ركن الحياة وبلسمها من خلال الطقوس والعبادات التي تعد امتثالا للقواعد الدينية. ولذلك تعززت مكانتهم في نظر العامة، مما سيجعلهم أصحاب كرامات والكرامة كما يعرفها أحد الباحثين" بنية أساسية في الفكر البشري، وهي كالبنية العقلانية مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود، وهي ممارسة لمعتقد ديني وتأكيد لهذا المعتقد"[1]. و يمكن أن نشير في هذا السياق إلى بعض كرامات الولي الصالح" أبو قاسم بن أحمد ابن اللوشة السفياني" كما وردت في كتاب طبقات الحضيكي منها:" كان -رضي الله عنه -من العارفين بالله، ومن أهل الأحوال الصادقة والشطحات العرفانية والشوقية. وكان أولا من فرسان قبيلته وشجعانهم، ثم جذبته العناية الربانية، فهام على وجهه في البرية، وغاب عن أهله، وصار يألف الوحش، ويأنس بالخلوة سنة أو سنتين أو أكثر، فإذا أخير أخبر مخبر بصفته ركبوا في طلبه، فإذا أتوا به مكث عندهم قليلا، وعندما تكثر عليه الأحوال يجلس في الماء والمروج، وقصده رجل عليه ديون كثيرة، فلما ودعه أعطاه قبضة من تراب جعلها في طرف ثوبه، فلما بلغ الرجل داره وجده تبرا ذهبا ببركة الشيخ."[2] نلاحظ من خلال كرامات الولي التي تتجلى في تحويل التراب إلى ذهب من أجل قضاء مآرب قاصديه، أن هذه الحكايات هي التي تحيط الولي بحالة من التقديس.

إلا أنه هناك في المجتمع المحلي من يذهب للأضرحة بهدف أخد حقه من شخص ظلمه، فبدل أن يقصد السلطة يتوجه إلى الضريح ويطلب من الولي أن ينتقم له من الشخص الذي ظلمه قصد الاقتصاص منه. ونفس الأمر عندما يظلم من طرف السلطة، لأنه يرى نفسه قد توجه للقضاء الأعلى، وهنا يبدو من الضرورة دراسة الموضوع من "زاوية أنثروبولوجية لمعرفة ما إذا كان هذا العنف المنسوب إلى الأولياء والموجه أساسا ضد السلطة السياسية وأعوانها وضد بعض الشرائح الاجتماعية شكلا من أشكال انتقام المجتمع بواسطة الأولياء من العنف المسلط عليهم والممارس من طرف السلطة السياسية، أو من طرف تلك الشرائح الاجتماعية "[3]. وبناء عليه كان يقال في الاصطلاح المحلي دعوته للسيد الفلاني أو "دعوته لمولاي قبتين يأخذ فيه الحق". وهذا فيه تناقض مع الدين الإسلامي الذي يحث على

1- إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، مرجع سابق، ص: 140.

2- محمد ابن أحمد الحضيكي، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، الطبعة الأولى، 2006م، مطبعة النجاح الجديدة –الدار البيضاء، الجزء الأول، ص: 182.

3- نفسه، ص526.

توجيه الأمور كلها إلى الله. وعلى كل حال هناك تركيب وتعقيد تداخل في موقف المجتمع المحلي من الظ صهرة.

نستخلص من خلال ما سبق ذكره أن مسألة الولاية والصلاح بين المعتقد والدين أنه بالرغم من عدم وجود وساطة بين المسلم والخالق من منظور ديني، لازالت بعض الشوائب المتقادمة حاضرة ومثال ذلك عندما تسمع أحد يؤدي اليمين أو يسمى في الاصطلاح المحلي "الحلف" أي القسم يتم بمصطلحات من قاموس الأطعمة على سبيل المثال لا الحصر " حق الملحة" أو "حق طعام" أو "الدم المشروك"، أو اسم ولي معين نظرا لقدسية هذه المفردات في المخيال الشعبي، رغم أن الدين يمنع الشرك بالله وينهى عن الدعاء باسم مخلوقاته أو الكائنات الطبيعية التي يسري عليها ما يسري على الإنسان. إلا أنه بعض الناس لا يزال يعتقد في قدرة الأولياء على تسريع الإجابة وتلبية الطلب أو الدعاء من خلال قصده للولي ليتوسط له مع الخالق يقدم الطلب مكانه. هذا بالإضافة إلى كون الاعتقاد في قدرة الأولياء على جلب المنافع للناس حتى بعد موتهم ساهم في ترسيخ ثقافة تقديس الأولياء بدرجة متفاوتة بين الناس ولاسيما في الفترات القديمة من تاريخ المغرب في الوقت الذي لم تكن فيه وسائل الحياة متطورة كما هو حال التكنولوجية الحديثة في الزمن الراهن. ولذلك اتضح لنا جليا من خلال رصد ظاهرة تقديس الأضرحة والمزارات أنها ليست وليدة اليوم، بل ظروف زمنية غابرة تعود إلى الممارسات السابقة عن الإسلام، من وثنية ومعتقدات شعبية والمجتمعات التقليدية معروفة بالمحافظة على العرف والتقليد، ولذلك فالمزج بين التقليد والتحديث مستمرة حيث تتلاشى بعض التقاليد وتتقادم فلم يعد اليوم تقديس المزارات كالماضي، حيث هناك نوع من التطور على مستوى الحياة الاجتماعية والثقافية التي يتحكم فيها النظام الرأسمالي، وأخذت الأمور منحى آخر هو اقتصادي بالأساس وترفيهي وسياسي أكثر مما هو ديني شعائري. الشيء الذي يشجع على استمرار مواسم الأضرحة في مختلف أنحاء المعمور، كما أن الوعي واليقظة المبكرة للجيل الحالي الذي يتعامل بالتقنية الحديثة التي قيدته وجعلته يدور في فلكها حيث أصبح مشغول بالعالم الرقمي في عوالم الشبكة العنكبوتية التي لا تترك له مجال التأمل في قضايا الحياة بنظرة فاحصة أو بعين ناقدة بل بمنظور استهلاكي يعم فيه الهدر والضياع للطاقة والجهد، لذلك فإن التقاليد القديمة منها ما يتلاشى ومنها ما يستمر، لكن المبادئ والثوابت أصبحت معرضة للخلخلة من جذورها في

إطار النظام العادي للأشياء والتقبل التلقائي الذي يقتل النظرة النقدية الضرورية لتطور المجتمع وتقدمه.

لائحة المصادر والمراجع:

- المراجع المعتمدة بالعربية:

-الكتب:

- إدموند دوتي، **الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، 2014.

- أحمد التوفيق، **النسب الشريف والسند الصوفي في تاريخ المغرب**، الدروس الحسنية الرمضانية لعام 1423الموافق 2002م الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر- الرباط، الطبعة الأولى، 2003م.

- شارل جوليان أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ،الجزء الأول، 1969م.

- فراس السواح، **دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع**، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة - دمشق، الطبعة الرابعة، 2002م.

- كليفورد غيرتز، **الإسلام من وجهة نظر علم الاناسة التطور الديني في المغرب وأندونيسيا**، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، دار المنتخب العربي - بيروت، 1993م.

- محمد استيتو، **الفقراء في المغرب، نماذج من القرنيين 16و17**، مؤسسة النخلة للكتاب - وجدة، 2004م.

- محمد بن العياشي المكناسي، **زهرة البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان**، تحقيق أحمد قدور، 2013.

- محمد الكتاني، "إنتاج المقدس بالمغرب من خلال كتابات أوربية ما بين القرنين 17و20م "، **الذاكرة والهوية**، تنسيق محمد جادور . شعيب حليفي، رشيد الحضري، الناشر كلية الآداب بن مسيك الدار البيضاء، سنة 2013.

- محمد ابن أحمد الحضيكي، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، الطبعة الأولى، الجزء الأول، 2006م.

- نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع**، دار الفارابي - بيروت، الطبعة الأولى،2001.

- إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، 200.

- توري عبد العزيز، **معلمة المغرب**، الجزء1، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا، 1989.

- محمد المامي بن البخاري، **البادية**، نشر زاوية الشيخ محمد المامي - انواذيبو، موريتانيا الطبعة الأولى، 2006م.

- مصطفى بوشعراء، **علاقة المخزن بأحواز سلا، قبيلة بني أحسن 1860-1912م**، كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996م.

- هنري ماسيه، **الإسلام**، ترجمة بهيج شعبان، منشورات عويدات - بيروت باريس، الطبعة الثالثة، 1988م.

الموسوعات والمعاجم:

- شارلوت سيمور سميث، **موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية**، الطبعة الثانية، 2009م.

- **معلمة المغرب الأقصى**، الجزء التاسع عشر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المدير المشرف، محمد حجي، مطابع سلا، 1425 -2004م.

-المجلات:

-ألفريد بل، "بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربيين"، ترجمة، سميرايت أو مغار، **سلسلة ضفاف**، مطبعة بني ايزناسن - سلا، العدد 20، 2016م.

- محمد إبراهيم الصالحي، " الدين بوصفه شبكة دلالية: مقاربة غيرتز "، **مجلة دفاتر إنسانيات - في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية**، العدد 04، 2013م، وهران الجزائر.

- **المراجع المعتمدة بالفرنسية:**

- « Relation Des Voyages Au Maroc Des Rédempteurs De La Merci En 1704, 1708 Et 1712 », In **Sources Inédites De Histoire Du Maroc, [S.I.H.M]** 2eme Siècle France.

- Dale Eikelman," Not Lost In Translation : The Influence Of Cliffort Geertzs Work And Life", On **Anthropology In Morocco ' The Journal Of North African Studies**, 14,13.385.2009.

- E .Doutté, **Magie Et Religion Dans L'afrique Du Nord, Alger, A Jourdan,** 1909.

- **J.**Berque, **L'intérieur Du Maghreb « Xve-Xixe » Siècles,** Gallimard-Paris, 1978.

جوانب من الأدوار السياسية للزوايا بمنطقة تافيلالت قبل الفترة الاستعمارية

عبد الرحمان ملوكي*

مقدمة:

كان للزوايا أدوارا طلائعية على مر العصور الإسلامية، لاسيما في الغرب الإسلامي الذي تفتقت فيه أنوار الدين الإسلامي مع جهود الفاتحين الأوائل، أمثال موسى بن نصير وعقبة بن نافع وغيرهم. وكان المغرب الأقصى ذلك البلد الذي احتضن عددا كبيرا من الزوايا التي انتشرت في مختلف مناطقه وجهاته. وقد نالت تافيلالت نصيبا وافرا من هذه الزوايا التي حطت رحالها بهذه البقعة الجغرافية الواقعة جنوب شرق بلاد المغرب. ومنذ بداية الإشعاع العلمي والديني – الصوفي لتلك الزوايا مع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وهذه الأخيرة تساهم بأعمالها الوازنة في تنظيم مجتمع تافيلالت، ورأب صدعه. فضلا عن إخماد نار الفتن عبر حل مشاكل معظم الصراعات القبلية التي من المؤكد أنها أزهقت الكثير من الأرواح والأنفس.

لا شك أن سلاطين الدولة العلوية أحاطوا هذه الزوايا بالعناية اللازمة، وأسبغوا عليها من جزيل نعمهم وعظيم منحهم. وذلك لما لمسوا فيها من الحس الإنساني والغيرة الدينية، وبفضل جهودها في التوصل إلى حلول لبعض النزاعات التي من دون شك كانت مستعصية على جهاز المخزن المحلي الذي يتزعمه خليفة السلطان. ولهذا حاولت هذه الزوايا تحسين صورة المخزن أو السلطة الزمنية عند الخاصة والعامة، بل تمكنت في أغلب الأحيان من تقوية الروابط بين المخزن من جهة وبين قبائل تافيلالت بنوعيها الرحل والمستقرين من جهة ثانية.

تحاول هذه الدراسة البحث في جوانب من الأدوار السياسية للزوايا بمنطقة تافيلالت قبل فترة الاستعمار الفرنسي؛ من خلال التركيز على علاقة هذه الزوايا بقبائل وقصور المنطقة من جانب أول، وعلاقتها بالمخزن أو السلطة المركزية من جانب آخر. وهكذا تبرز إشكالية هذا المقال في التساؤل عن ماهية الدوافع التي جعلت المخزن يولي كبير اهتمامه لزوايا تافيلالت؟ وتتطلب الإجابة على هذا السؤال تفسيرا واضحا للدور السياسي لأشهر الزوايا

---

* أستاذ باحث في التاريخ المعاصر ومهتم بتاريخ الترحال بالجنوب الشرقي.

بالمنطقة، هذا الدور الذي لا يمكن فهم حيثياته إلا بالعودة إلى علاقة مؤسسة الزوايا بأهل تافيلالت، وعلاقتها أيضا بالسلطة المخزنية؟

أولا: الإشعاع الديني والروحي لزوايا تافيلالت:

1 - مفهوم الزاوية وأصولها التاريخية:

كانت الزوايا في بداية الأمر عبارة عن مساجد خاصة بطائفة من المسلمين، يجتمعون فيها للصلاة وقراءة الأوراد الصوفية، وكان هذا النوع من المساجد الخاصة يدعى في القرون الأولى للإسلام: رُبطا و رباطات*، حيث انتشرت هذه الأخيرة على طول الساحل المغربي في سلسلة متلاحقة، ثم غلب اسم الزاوية وتكاثر عدد الزوايا بالمغرب بانتشار التصوف فيه ابتداء من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي 12م.فأضحت الزاوية - بالإضافة إلى كونها مكانا للعبادة - تأوي الواردين المحتاجين وتطعمهم، ثم مكانا للجهاد، ينطلق منه المريدون والأتباع من أجل الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية.

ثم ما لبثت أن تحولت هذه الزوايا إلى مدارس دينية، لم تقتصر على تلقين الأذكار والتفرغ للخلوة والعبادة، بل تعد ذلك إلى تلقين العلوم الشرعية، وتدريس العلوم الإسلامية، وأقيمت حولها المدارس والأبنية لسكنى الطلبة، فأصبحت بذلك مركزا علميا ودينيا يقصده العلماء والطلبة على حد سواء، فضلا عن وإيواء الغرباء والمسافرين، حتى قيل في تعريفها إنها مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة. وعموما، تعتبر الزاوية مؤسسة اجتماعية وروحية فاعلة ومؤثرة في معظم الأحداث والوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي طرأت على أرض المغرب عامة وفي منطقة تافيلالت خاصة، لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار سرعة خضوع الأرياف المغربية لقرارات مشايخ الزوايا[1]

---

* الرباط لغة مصدر رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان، ويطلق في اصطلاح الفقهاء والصوفية على شيئين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد الهجوم عنها، والثاني عبارة عن المكان الذي يلتقي فيه صالحوا المؤمنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين، وجاء في القرآن الكريم: «وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" (الأنفال الآية 60)، "يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" (سورة آل عمران الآية 200) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه" (حديث صحيح، أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين والنسائي وابن ماجة وغيرهم). وقد عرف المغرب الربط مع الفتح الإسلامي وورد ذكر "رباط ماسة" بالسوس الأقصى في أخبار عقبة بن نافع، وموسى بن نصير وإدريس الأول.

1- من بين أهم ما يميز أغلب القرى و المداشر المغربية سرعة خضوعهم لتوجهات شيوخ الزوايا خصوصا إذا تعلق الأمر بالجهاد ومحاربة العدو، نسجل الاستجابة السريعة لقبائل المغرب لنداءات شيوخ الزوايا، الذين لا يجدون أكبر عناء في

2 - الزوايا المحلية:

إن الحديث عن زوايا تافيلالت يتطلب منا الإشارة في بداية الأمر إلى الظروف التاريخية التي نشأت فيها هذه المؤسسات، وكذا التطورات التاريخية التي ساهمت في تنامي نفوذه. وهكذا أصبح بإمكانها تحريض أهل تافيلالت على الجهاد والمقاومة، فضلا عن دعوة القبائل المتصارعة إلى الصلح وفض النزاع. ولم يكن ليتحقق لها ذلك، لولا وجودها الدائم في قلب المجتمع والسياسة، فكان شيوخها "**فاعلين في تأسيس دوله وتوجيه سياسته وثقافته وتشكيل هويته**"[1].

إن البحث في البدايات الأولى لظهور الزوايا بمنطقة تافيلالت، يتطلب الكشف عن الظروف العامة التي سادت في واحة تافيلالت إبان القرن 19. ومن خلال عودتنا إلى الرواية الشفوية والمصادر التاريخية فضلا عن كتب الرحلات التي دونها الرحالة والمستكشفون الأوربيون، نستنتج أن معظم زوايا تافيلالت سطع نجمها وتعاظم نفوذها خلال هذه الفترة تحديدا، أي خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. هذا القرن الذي شهد مجموعة من التحولات التاريخية العميقة نلخص بعضها فيما يلي:

- مجاليا؛ تزايد التوغل الفرنسي في أراضي الجنوب الشرقي،
- اقتصاديا؛ تعاقبت سنوات الجفاف والمجاعات والأوبئة
- اجتماعيا: اشتدت صراعات القبائل في المنطقة لأسباب تتعلق أساسا باختلافهم حول تدبير بعض القضايا، كان من أهمها شكل توزيع مياه الفيض، وكيفية استغلال غابات الرعي.

ولهذه الاعتبارات تدخل الصلحاء* لحل مجموعة من المشاكل التي عانى منها المجتمع الفيلالي، مما أدى إلى إعادة التوازن السياسي والروحي والاجتماعي لكل مكونات المجتمع

إقناعهم في ضرورة المقاومة وأخذ العدة والعتاد. ونفس الأمر بالنسبة لقبائل تافيلالت بشقيهم الرحل والمستقرين، الذين كانت لهم صفحات خالدة من المقاومة والجهاد بالجنوب الشرقي للبلاد، فسجل لهم التاريخ بطولات وأمجاد .

1- قاسم الحادك، **جوانب من مواقف الزوايا الدرقاوية من الاحتلال الفرنسي 1881 – 1932م**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2014، ص. 7.

* الصلحاء جمع صالح ونقصد به شيوخ الزوايا والساهرين على خدمتها ويطلق عليهم محليا لقب " المرابطين ". غير أن الأنثروبولوجي " إدموند دوتي" يقول في الفصل الثاني من كتابه" الصلحاء، مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر" ترجمة محمد ناجي بن عمر، ص.31: "أن كل يوم يقوم العامة من الناس بإضفاء القداسة على الصلحاء كأفراد يبدو لهم أنهم تلقوا البركة من الله".

الفيلالي. وشكل ذلك بداية ظهور تأثير مؤسسة الزوايا بمجال تافيلالت، ومما تجب الإشارة إليه، أن هذه الزوايا "**منها ما اندرس وانتهى أمره، ومنها ما بقي موجودا إلى يومنا هذا، ولو أن إشعاعها الصوفي والعلمي قد ضعف وخفت** "[1].

لقد كان للزاوية أدوار عديدة داخل مجتمع تافيلالت، بحيث من هذه الأدوار ما ارتبط بتعليم الناس أمور دينهم عن طريق دروس الوعظ والإرشاد، وتلقين المريدين لمفاهيم الطريقة الصوفية، عبر الأوراد والأذكار التي تميزها عن باقي الزوايا والطرقية الأخرى. كما " **كانت الزاوية تقدم دروسا في الآداب والفلسفة**"[2]. وأمام هذه الوظائف المتعددة للزاوية بتافيلالت، لم تتوانى هذه المؤسسة في الانخراط الكامل والمتواصل في الحياة السياسية والاجتماعية لساكنة المنطقة، على أمل أن تساهم ولو بالنزر القليل في التخفيف من معاناتهم الشبه دائمة الناجمة عن سوء أوضاعهم المعيشية المرتبطة أساسا بتوالي سنوات الجفاف، وضعف إمكانات التطوير الذاتي لدواليب الزراعة وتربية الماشية، ناهيك عن تخبط أهل تافيلالت خلال هذه الحقبة في الفقر والأمراض والأوبئة.

على الرغم من عدم تمكننا من تحديد كيفية تعامل الزوايا مع الفيلاليين زمن المجاعة أو الوباء أو غير ذلك من الفترات العصيبة، فإن المؤكد أن زعماء الزوايا استخدموا كثيرا من الدبلوماسية وتليين الخواطر، مما يبين بما لا يدع مجالا للشك، ترجيح هؤلاء للدور السياسي الذي يبدو على أنه عبارة عن تهدئة للنفوس، وترطيب للعقول والقلوب.

تجدر الإشارة إلى أن الأولياء أو المرابطين بتافيلالت اندمجوا في المجتمع وتفاعلوا مع أحداثه، مما جعلهم يحظون بثقة العامة، باستثناء بعض الحالات التي ركنوا فيها إلى حياة العزلة والانفراد. ويعد تقبل قبائل تافيلالت للزوايا وترحيبهم بها، عاملا أساسيا في خدمتهم لها؛ مما جعلهم يغدقون عليها الهبات والعطايا والهدايا، فضلا عن تحبيس أملاك وعقارات كثيرة على هذه الزوايا. فكانت هذه الأوقاف أو الأحباس تقوم هذه المؤسسات باستغلالها

---

1. عبد الرحمان ملوكي، **التاريخ الاجتماعي لتافيلالت خلال القرن التاسع عشر (1845 – 1900) من خلال نماذج من وثائق مخزنية**، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية، 2009 – 2010، (مرقونة)، ص. 84

2. عبد الله استيتيتو، **دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2013، ص ص. 136 – 137.

بشكل مباشر، أو تكتريها لأشخاص آخرين بمقابل مادي، أو تفوتها لبعض الأفراد على أساس منحها ثلث الإنتاج.

إن المسح الطبوغرافي للمجال الفيلالي أظهر بشكل واضح انتشار عدد كبير من الزوايا، التي تغطي تقريبا مجموع تراب واحة تافيلالت. بيد أن هذه الزوايا اندمجت في غالب الأحيان مع قصور أو قصبات، فأصبح بالكاد يتميز القصر عن الزاوية في بعضها، إذ توجد بعض القصور من دون بناية الزاوية، التي تهدم بعض أركانها، أو هدمت بالكامل، في ظروف تتضارب الروايات بخصوص ماهيتها، هل لها ارتباط بالعوامل الطبيعية، أم تدخل فيها العامل البشري.

ومهما كان لهذه العوامل من تأثير فإن الشيء الهام بالنسبة للقارئ هو الدور المحوري الذي لعبته هذه الزوايا قبل دخول الاستعمار الفرنسي بالمنطقة، الذي عمل على خلخلة التوازن البنيوي لهذه المؤسسات وأفرغها من كل محتواها، قبل تغييبها عن الساحة السياسية، عن طريق الإجهاز عن كل وظائفها الداخلية وإشعاعها الخارجي. ويوضح الجدول أسفله أهم الزوايا التي انتشرت بمنطقة تافيلالت*

---

*نقصد هنا تافيلالت الصغرى، أي مركز الريصاني أوحاضرة سجلماسة المندرسة والمشيخات الخمس المحيطة بها: السفالات، واد يفلي، تانيجيوت، السيفا والغرفة. بني امحمد.

جدول رقم 1: أهم الزوايا التي عرفت بإشعاعها العلمي والصوفي
ما بين القرنين 11م/ 5هـ و19م / 13هـ[3].

اسم الزاوية	مؤسسها	حياته	مجال امتدادها	وظيفتها الدينية والصوفية
الزاوية الغازية البوبكرية	العلامة والزاهد والفقيه أبو القاسم الهادي *الملقب بسيدي الغازي وهو من أصل سوسي.	ولد سنة801هـ/ وتوفي حوالي 878هـ	قصر سيدي الغازي مشيخة السفالات جنوب غرب الريصاني	. تعتبر هذه الزاوية من أشهر وأغنى الزوايا بتافيلالت لتوفرها على أملاك كثيرة. . تستقبل الزوار والمريدين من كل أنحاء المغرب وخاصة من قبائل بني مكيلد بالأطلس المتوسط ومن سكان درعة ومختلف قبائل تافيلالت. . تشتهر بالتصوف المنبثق عن الطريقة الشاذلية، لاسيما الملحون الصوفي. . يرجع الفضل في شهرة الزاوية الغازية إلى الشيخ والعلامة سيدي الغازي بن العربي الذي عاش خلال القرن 19م

*أبو القاسم بن محمد بن عمر بن أحمد الملقب ب" سيدي الغازي" السوسي، الدرعي أصلا، السجلماسي دارا وقرارا ووفاة، ترجم له الكتاني في "سلوة الأنفاس"، كان من أئمة التربية والتوجيه، وكانت زاويته ملأى بطلبة العلم والمنقطعين للعبادة: أنظر كتاب "المعجم الوجيز في تراجم نخبة من علماء سجلماسة ووادي زيز للشيخ محمد العمراوي السجلماسي، ص. 378.

3 - عمل شخصي اعتمادا على المراجع التالية:

- عبد الله استيتيتو، **دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر**، م.س، ص ص. 36 – 45.

- محمد العمراوي **المعجم الوجيز في تراجم نخبة من علماء سجلماسة ووادي زيز**، مطبعة طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، 2014/ 1435هـ، تراجم متفرقة لبعض الفقهاء والزهاد.

- لحسن تاوشيخت، "الأوضاع العامة بتافيلالت خلال العهد العزيزي من خلال الوثائق المحلية والمصادر الأجنبية والرواية الشفوية"، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الثامنة، السلطان مولاي عبد العزيز، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، يناير 2003، ص ص. 34 - 35.

- لحسن تاوشيخت، " الحركة العلمية والثقافية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية (القرنين 18 – 19)"، ندوة **الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب بوجدة، أيام 7 – 8 – 9 دجنبر 1993، ص ص. 27 – 31.

الزاوية الحفيانية	الشيخ العابد الزاهد محمد بن علي الحفياني	عاش في نهاية القرن 18م/12هـ	قصر ويغلان (مشيخة السفالات) حوالي 3 كلم غرب الريصاني	. تشتهر الزاوية بضرب الطبل ايذانا للراغبين في الحج بالاستعداد للرحيل، وماتزال إلى يومنا هذا تحتفظ هذه الزاوية بهذا الطبل والراية الخضراء رمز" السلام والتصوف". . اشتهرت الزاوية كذلك بتوفرها على خزانة غنية بالمخطوطات النفيسة
زاوية الماطي	العالم والفقيه الشيخ أبي العباس أحمد الحبيب بن محمد الصديقي الغماري السجلماسي*	ولد في حدود 1090هـ وتوفي في الثالث من محرم من عام1165هـ/ 1751م	أقصى الجنوب من واحة تافيلالت بمشيخة السفالات قرب الزاوية الغازية على بعد 14 كلم جنوب الريصاني	. عرفت الزاوية أوج ازدهارها خلال القرن18م، عندما كان الولي سيدي محمد أحمد الحبيب يعقد فيها جلسات العلم والذكر والتي كان يحضرها عدة رواد من مختلف المناطق. . استمرت الزاوية في نشاطها العلمي والروحي إلى أن دخل الاستعمار الفرنسي الذي قام بقصفها بالمدفعية عام 1351هـ/15 يناير 1932، فانكمشت هذه الزاوية على نفسها وخمد إشعاعها . كان يخدم الزاوية فرقتين من المرابطين: -أولاد سيدي حمزة بلمحي، يستقبلون الزوار ويأخذون منهم الهدايا والزيارات. -أولاد بلغزال، يحرسون الزاوية ويقومون بحرائة الأرض والتجارة.

*أحمد الحبيب بن محمد بن صالح بن أحمد بن يحي بن يحي بن محمد بن يحى، أبو العباس الصديقي السجلماسي اللمطي، الأستاذ المحدث المقرئ، الولي الكبير. شهرته تغني عن الإطناب في ذكره..(انظر: "طبقات الحضيكي"،ج1، ص: 104 و"موسوعة أعلام المغرب"، ج6، ص: 2175.

زاوية سيدي أبوبكر بن عمر اللمتوني الصنهاجي المرابطي*	نقل إليها جثمان أبوبكر بن عمر اللمتوني الذي توفي في أحد غزواته في الصحراء	القرن 5ه/11م	قصر سيدي أبوبكر قرب قصر مزكيدة مشيخة تانيجيوت على بعد 5 كلم شمال شرق الريصاني	- تعد هذه الزاوية أقدم زاوية في تافيلالت حيث يعود تاريخها إلى ق5ه/11م. - يخدم الزاوية بعض المرابطين من قصر سيدي أبوبكر، فيتلقون الزيارات والهبات من الساكنة المجاورة وخاصة من قبائل آيت خباش. - يقوم خدام الزاوية بإحياء الموسم الديني الخاص بالولي في فصل الصيف من كل سنة.
زاوية عمار	الشريف الإدريسي المراكشي الأصل سيدي الساسي	القرن 12ه/ 18م	قصر عمار قرب زاوية سيدي الغازي وزاوية سيدي احمد الحبيب	-يوجد ضريح هذا الولي بداخل قصر عمار وبجانبه أضرحة أولاده وخاصة منهم سيدي احمد منديل. -كانت زاوية سيدي الساسي تابعة للزاوية الدرقاوية بفاس ولزاوية أحمد بن عبد الصادق (الصادقية) بأوفوس -اشتهرت هذه الزاوية خلال القرن 19م، فكانت تعرف عدة زيارات وتتلقى مجموعة من الهبات والهدايا من لدن مريديها وأتباعها وعلى رأسهم رحل ذوي منيع، أولاد بلقيس، أولاد جرير وآيت خباش.
زاوية مقطع الصفا	الشيخ الناسك الزاهد الشريف	القرن 13ه/19م	قصر مقطع الصفا بين قصري وطارة	- عُرفت الزاوية بمحاربة المستعمر الفرنسي

* أبو بكر بن عمر اللمتوني هو الزعيم الثوري للمرابطين والذي قاد الحركة المرابطية بعد وفاة الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين، بهدف بسط السيطرة على طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى ومراقبة المنفذ الرئيسي لهذه القوافل: معبر سجلماسة.

	سيدي أحمد بن الحاج المدني		وتينغراس (مشيخة السفالات)	- اشتهرت بدور الوساطة والصلح بين القبائل المتصارعة - شكلت الزاوية مكانا هامة للزيارة والذكر لأهالي منطقة تافيلالت.
زاوية من لا يخاف	الشيخ علي بن يوسف		مشيخة السفالات	- يقصدها العديد من الزوار من تافيلالت وأحوازها: قبائل ذوي منيع وآيت خباش على وجه الخصوص، وتقوم بنشاطها الصوفي كل خميس. -يتوافد عليها المريدين والزوار كل يوم خميس محملين بالهدايا والذين غالبا "ما يقضون ليلة كاملة بضريح الولي طلبا للعفو وأشياء أخرى"[1]
الزاوية البوبراهيمية	الشيخ أبو إبراهيم بن منصور العمري	القرن 8هـ/ 14م	مقاطعة السفالات	استقر بها جد الأشراف الحسنيين السجلماسيين عند قدومه من الينبوع الحسن بن القاسم، و"كان يقرئ فيها العالم المفتي إبراهيم بن هلال*السجلماسي"[2]

من خلال دراسة معطيات هذا الجدول يتضح العدد الكبير للزوايا بتافيلالت، علما أن هناك زوايا أخرى لم ندرجها ضمن هذا السياق، نظرا لعدم شهرتها، فضلا عن اقتصار

---

1 - لحسن تاوشيخت، م. س، ص. 35.

*ابراهيم بن هلال المشترائي أبوسالم، وأبو إسحاق، إبراهيم بن هلال بن علي السجلماسي، مفتيها وعالمها، الفقيه الإمام العالم الحافظ الصالح. أخذ عن ابن آمال، والإمام القوري مفتي فاس وغيرها. له نوازل وفتاوي مشهورة، وله(الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير)، وله (شرح مختصر خليل) وله (شرح البخاري)...وكان آية في النظم والنثر ونوازل الفقه، حتى لقب بباز النوازل، وله في النوازل كتاب حافل اشتهرب(نوازل ابن هلال). راجع "المعجم الوجيز في تراجم نخبة من علماء سجلماسة ووادي زيز" للشيخ محمد العمراوي، ص: 42 . 43.

2- سعيد واحيحي، **سجلماسة/تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور، 796هـ/ 1393م إلى أواخر القرن 11هـ / 17 م (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية: 1426 – 1427 / 2005 – 2006م، (مرقونة)، ص:209

خدماتها على عدد محدود من الأشخاص. كما نستنتج تنوع الخدمات التي تقدمها هذه الزوايا للزوار والمريدين، من حلقات الذكر، والنصح والإرشاد، ثم موائد الطعام وغيرها. ومن غير المستبعد أن تكون هذه الزوايا تستغل ظروف اجتماع الحشود الغفيرة من القبائل وسكان القصور لتقوم بدورها المعهود كطرف ثالث للصلح والتحكيم بين المتخاصمين من خلال تقديم النصيحة وجمع الكلمة، خاصة بين الرحل والمستقرين، الذين غالبا ما كانت تنشب بينهم صراعات بسبب مصادر المياه ومراعي الماشية.

ثانيا: دور الزوايا في تنظيم العلاقات بين المخزن والقبائل بمنطقة تافيلالت

1 – الزاوية والقبائل

لا شك أن للزاوية دور هام في "تهدئة" القبائل المتصارعة بمنطقة تافيلالت، من خلال اضطلاعها بوظيفة التحكيم بين هذه القبائل، إذ كثيرا ما كان شيوخ الزوايا أو "الصلحاء "حسب تعبير إدموند دوتي* يتدخلون حيث يسعفهم علمهم لفض صراعات المصالح التي **"لم تستطع أي سلطة تسويتها، فهم يمثلون الصلح والعدل والتسامح، ووقارهم يضمن لهم احترام قراراتهم".**[1]

كانت زوايا تافيلالت تتولى الوساطة السياسية أو التحكيم بين سكان القصور والرحل في المنطقة. وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الأسرة الرائدة في هذه المنطقة هي أسرة أولاد الغازي، التي كانت تقيم في الجانب الغربي من منطقة السفالات. وهذه الأسرة هي التي أقامت السلم في الغرفة* بعد المعركة الأولى بين أولاد بوعنان وأولاد بلكَيز سنة 1894م، وكتب شيوخ وقواد ذوي منيع رسالة للسلطان يوضحون فيها **"ما قام من نزاع بينهم وبين المهاجرين من الجزائر: قبيلة أولاد سيدي الشيخ، وبسببه تعرضوا لعداء بعض قبائل المنطقة، بيد أن**

* استخباراتي فرنسي قام بعدة رحلات استكشافية للمغرب أوائل القرن 20 تهدف إلى جمع معطيات عن ثقافة المغرب ولغاته وعاداته وسكانه وأنساقه السياسية والتاريخية، فألف مجموعة من الكتب بخصوص ذلك: كتاب "الصلحاء"، كتاب "السحر والدين في إفريقيا الشمالية"، كتاب "مهمة في المغرب: بين القبائل"...

1. إدمون دوتي، **مهام في المغرب من خلال القبائل**، ترجمة ودراسة وتعليق عبد الرحيم حزل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2015، ص. 125.

*إحدى المشيخات الست لتافيلالت تقع بالجنوب الغربي للواحة، وهي مجموعة من القصور أسست حوالي ق8هـ / 14م، انظر صور بعض قصور الغرفة في الملحق الخاص بالوثائق

المرابطين القنادسة تمكنوا بوساطتهم من عقد الصلح بين الأطراف المعنية ورجعت العلاقة بينهما إلى سالف عهدها"[1].

تأسست علاقة قبائل تافيلالت بالزوايا المحلية على الحب والاحترام والتوقير، الشيء الذي كان يساهم حسب اعتقادنا في استجابة السكان لقرارات وتوجيهات المْرابطين، والامتثال للقرارات الصادرة من هؤلاء تجاه المتخاصمين. وقد كانت أعمال الصلح تلك، التي اعتمدت على فض النزاع بالتي هي أحسن، كافية لأن تجعل من المْرابْط صاحب الزاوية وليا مشهورا ورجلا صالحا، يلتمس كل الناس بمختلف طبقاتهم بركة دعواته، ولا يترددون في أي حال من الأحوال، في طلبه لفض نزاعاتهم المستعصية.

2 – الزاوية والمخزن

ارتبط المخزن السلطاني بالزوايا ارتباطا وثيقا، على الرغم من تميز علاقتهما بالمصالح المشتركة، فإن السلطان كان لا يتوانى في تسخير هذه المؤسسة للقيام بعملية المصالحة بين القبائل والقصور المتنازعة، ناهيك عن مساعدة المخزن على حث الناس وإرشادهم على طاعة الأوامر المخزنية والحفاظ على الأمن العام للمعابر الطرقات. ويحيلنا هذا على طرح بعض التساؤلات من قبيل: لماذا قام المخزن باستغلال مؤسسة الزوايا في حفظ الأمن؟

تدل كل المعطيات التاريخية على أن الزوايا تظهر على الساحة السياسية المغربية كلما ضعفت السلطة المركزية. نظرا لاعتبارها الأداة الوحيدة القادرة على تنظيم الجماهير قصد ضبط الأمن الداخلي والتصدي للهجمات الخارجية. غير أن إمكانياتها الكبيرة في جمع الحشود وتوحيد الصفوف، أدى في بعض الأوقات إلى تقوية نفوذها السياسي إلى درجة **"التطلع إلى ممارسة السلطة العليا في البلاد كما وقع بالنسبة للزاوية الدلائية مثلا"**[2]. لذلك نجد أن السلاطين السعديين منذ بداية عهدهم، عملوا كل ما في وسعهم، من أجل تطويق الزوايا والحد من خطرها على المنافسة السياسية، من خلال العمل على إضعافها اقتصاديا؛ فالناصري يقول أن ضريبة "النايبة" فرضها السعديون على الجميع بما في ذلك الشرفاء

---

1. أحمد مزيان، **المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845- 1912)**. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج2، ط2، 2007، ص. 150

2. عبد اللطيف أكنوش، **تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب**، مطابع إفريقيا الشرق، 1987، البيضاء، ص: 106.

وشيوخ الزوايا. وقد وصل الأمر بالسلطان محمد الشيخ المهدي إلى **"مصادرة كل الودائع التي كانت في حوزة الزوايا منذ العهد المريني"**[1].

تجب الإشارة إلى أن المخزن العلوي كان يتعامل بحذر مع مؤسسة الزوايا، شأنه في ذلك شأن المخزن السعدي، لكن مع كثير من المرونة، رغم أن بعض الزوايا دخلت في صراع سياسي مكشوف مع الدولة العلوية منذ نشأتها إلى القرن 19، إما **"للتنافس على السلطة (مثل الزاوية الدلائية و الشرقاوية وزاوية أحنصال وزاوية أمهاوش في الأطلس المتوسط) أو للحفاظ على استقلالها ودفع السلطة المركزية إلى الاعتراف بنفوذها على تلك المناطق زاوية "إليغ" وإلى حد ما الزاوية الدرقاوية بمدغرة (تافيلالت)"**[2].

طُبعت العلاقة بين المخزن العلوي والزاوية بالمد والجزر وأيضا بالعطاء والقبض؛ فقد سجلت الظهائر السلطانية مدى الاهتمام الكبير للسلاطين العلويين بأهل الزوايا في تافيلالت، حيث أسبغوا عليهم النعم الكثيرة والعطايا الجزيلة. ومن جهة أخرى تعامل سلاطين الدولة العلوية بشدة وصرامة مع بعض الزوايا التي لمسوا فيها ملامح الخيانة أو شككوا في ولائها وإخلاصها، مثلما حدث مع الزاوية الحنصالية التي **"اتهمها المخزن بالتواطؤ مع قبائل آيت عطا نومالو، فكانت نهاية الشيخ الحنصالي مأساوية"**[3]

أصدر السلاطين العلويين عدة ظهائر تحث على ضرورة احترام وتوقير مرابطي الزوايا، ووصل الأمر إلى إعفائهم من الضرائب والكلف المخزنية ومنحهم هدايا وعطاءات مالية، ومن ذلك ظهير السلطان الحسن الأول إلى شيخ الزاوية القندوسية محمد بن عبد الله في 24 جمادى الثانية 1304هـ/ مارس1887م يأمر فيه ولاة الأمر في المنطقة أن يستوصوا خيرا بالمرابط ويحموا حمى الزاوية ويدبوا عن ساحتها"[4]

وكان السلطان محمد بن عبد الله قد أصدر ظهيرا يرد بموجبه للمرابط أبي مدين بن محمد بن أبي زيان ما كان له من أصول ودور بالغرفة في تافيلالت[5]، وكثيرا هي الرسائل

---

1 - أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص ص. 26 – 31.

2 . مزيان، **المجتمع والسلطة المخزنية**، ص.140.

3-Magali Morsy, **Les Ahansals, Examen Du Rol Historique D'une Famille Maraboutique De L'atlas Marocain,** Paris, 1972, P.15.

4 - مديرية الوثائق الملكية، **ملف الصحراء الشرقية**

5. كتب هذا الظهير في 11 ذي القعدة 1197 هـ / أكتوبر 1783م.

السلطانية التي تبين العلاقة الوثيقة بين زوايا تافيلالت وسلاطين الدولة العلوية، سواء منها الصادرة عن السلطان العلوي وهي في مجملها ظهائر توقير واحترام لمرابطي وشيوخ الزوايا، أو ظهائر فيها حث عمال وقواد تافيلالت والتخوم الشرقية على الإكرام والإنعام على زوايا المنطقة[1].

ويمكن القول إجمالا، أن هذه الزوايا كانت تابعة للمخزن المركزي[2]؛ فبالنسبة للزوايا البعيدة عن المركز السلطاني والمتمركزة مثلا في الساورة، وتوات، وشنقيط فإن السلطان كان يتنازل لها عن بعض السلطات والمهام الاجتماعية والسياسية، أما بالنسبة للزوايا التي تشكل أهمية اقتصادية أو سياسية أواستراتيجية، فإن السلطان العلوي يأبى إلا أن "**يدجنها "ويمخزنها" لتصبح مجرد دواليب إدارية في يد المخزن السلطاني**" [3].

إضافة إلى الوظائف الدينية والجهادية، فقد وظفت الزوايا، وبدعم من المخزن العلوي في "**محاربة أهل البدع والنحل الضالة**"[4]. كما وظفت كدواليب "دبلوماسية" للمخزن المركزي أثناء الحملات التأديبية أو"الحرْكات" التي كان يقوم بها السلاطين العلويين ضد القبائل "السائبة". فقد كانت الزوايا تضغط على هذه القبائل للتفاوض السلمي مع المخزن السلطاني. والشاهد على ذلك الدور الذي كانت تقوم به الزاوية الوزانية في علاقة المخزن بقبائل "زمور"، والزاوية العمرانية تجاه قبائل "بني مطير" و"آيت سغروشن". وجدير بالذكر أن محلة*

1- نذكر ثلاث أمثلة لهذه الرسائل التي اطلعنا عليها في مديرية الوثائق الملكية ولدينا نسخة منها:

- رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى قواد قبيلة ذوي من منيع يأمرهم بمعاملة شيخ الزاوية القندوسية بما يليق من التوقير والاحترام: 22 محرم 1316 / 12 يونيو 1898

- رسالة من خليفة السلطان مولاي رشيد إلى السلطان المولى الحسن يخبره بعزم مرابطي زوايا تافيلالت(أهل "زاوية من لا يخاف"، أهل "زاوية سيدي أبو إبراهيم العمري"، أهل "زاوية سيدي علي بن عبد الله"، أهل زاوية "سيدي أحمد الحبيب"، أهل "زاوية عمار"، أهل "زاوية سيدي أحمد أبدله"، أهل "زاوية القاض" على زيارته وتجديد العهد معه: في 7 من صفر الخير 1311هـ

- رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمان إلى شيخ الزاوية القندوسية محمد بن عبد الله القندوسي يثني عليه رغبته في القدوم إلى حضرة السلطان لتجديد العهد معه ويدعو له والتوفيق والصلاح: في 8 صفر عام 1284هـ

2 . أكنوش، م.س، ص. 106.

3-Abdellah Laroui, **Les Origines Sociales Et Culturelles Du Nationalisme Marocain (1830-1912),** Centre Culturelle Arabe, 2ème Édition, 2001, P.14

4 - إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، الدار البيضاء، 1965، ص. 186

*يقصد بالمحلة تلك الحركة أو الغزوة التي يقوم بها السلطان رفقة جيشه وحريمه من أجل ردع قبيلة، أو تجديد العهد مع أخرى أو غير ذلك من الغايات المتعددة لهذا التحرك السلطاني

السلطان كانت تصطحب معها بعض شيوخ الزوايا كالناصرية والوزانية[1] لتحقيق الأبعاد التالية:

✓ وجود شيوخ الزوايا في المحلة السلطانية يضفي عليها صبغة دينية وروحية.

✓ عند وصول المحلة السلطانية ورفض قبيلة أو مجموعة قبائل الانصياع لقرارات السلطان، يقبل شيوخ الزوايا التوسط بين القبائل الثائرة وبين السلطان، بفعل ما عرف عنهم عند العامة والخاصة من زهد وورع وخصال حميدة.

✓ مصاحبة شيوخ الزوايا للسلطان في محلته تعني الشيء الكثير لأتباع هذه الزوايا ومريديها ومحبيها، مما يؤدي إلى تزايد حدة هؤلاء للمخزن.

وهكذا نخلص إلى أن علاقة الزوايا بالمخزن المركزي في تافيلالت تميزت بتعدد أشكالها وتمظهراتها، وتدخلت عدة مؤثرات خارجية لتحدد تموضع الزاوية: موالية للمخزن/ معارضة/ محايدة. غير أنه من خلال دراستنا لمجوعة من الوثائق المخزنية؛ خلصنا إلى أن المخزن المركزي استطاع استمالة معظم زوايا تافيلالت، والتي لم تنضم إلى صفه، فإنها ظلت محايدة ولم تدخل في مواجهة مباشرة مع السلطة المخزنية، وهذه التبعية كانت بطبيعة الحال لاعتبارات كثيرة نذكر أهمها:

❖ **الاعتبار الأول**: يقوم السلطان بمنح امتيازات كثيرة للزوايا، إذ أن ظهائر "التوقير والاحترام" التي تتضمن إعفاء شيوخ ومرابطي الزوايا من الضرائب واستفادتهم من الهدايا والمنح المادية السلطانية، تجدد عند كل بيعة جديدة لسلطان جديد. وهذا يفرض على الزاوية تجديد الطاعة وعدم إظهار المنافسة أو العداء للسلاطين.

❖ **الاعتبار الثاني**: يعد قبول الشيخ الجديد للزاوية من طرف السلطان شرطا ضروريا لاستخلافه على الزاوية على نحو قانوني ورسمي، ولو زكاه جميع أتباع الزاوية. الشيء الذي لا يترك مجالا لخدام الزاوية للتلاعب بهذا المنصب أو الاستهتار بمكانة السلطان أو التطاول على قراراته.

❖ **الاعتبار الثالث**: يتعلق بموارد الزاوية؛ إذ أن الهدايا والزيارات التي تتلقاها من الأتباع والمريدين غير كافية لسد كل حاجياتها، بيد أن الموارد المالية المهمة والأساسية تبقى شرعا بيد السلطان، وهي الزكاة والأعشار التي تؤدى كضرائب شرعية للسلطان، الذي

---

1 -Laroui, Les **Origines**, Op. Cit ,P. 137

له الحق في أن يتنازل عليها لصالح الزوايا. هذا من دون إغفال مداخيل الأملاك المحبسة التي يتكلف بتسييرها موظف مخزني يدعى "ناظر الأحباس". وهكذا يتضح أن التدخل المخزني المباشر في الشؤون الداخلية للزاوية هو السر في المراقبة المستمرة لثرواتها، بهدف وضع حد لكل تطلعاتها السياسية.

3 – دور الزوايا في تنظيم العلاقات بين المخزن والقبائل

تؤكد الدراسات الأنثروبولوجيا حول الصلحاء أو مرابطي الزوايا في البوادي المغربية تميزهم بطابع المسالمة والحياد، **"وترفعهم عن الصراعات الانقسامية بين القبائل وتفرغهم للعبادة والوساطة بين فرقاء النزاع"**[1]. ولهذا فإن وظيفة أهل الزوايا والصلحاء تقتصر على التفرغ للعبادة والوساطة بين الناس، وإرشادهم إلى الصلاح وتهدئتهم تجاه الحكام، ومساعدة المخزن على حفظ الأمن والسكينة.

لا أدل على ذلك، تنبيه أحد المقربين من المخزن بتافيلالت السلطان عبد العزيز إلى الاهتمام بالزاوية القندوسية في رسالته المؤرخة في 22 ربيع النبوي 1319هـ/ يوليوز 1901م، مذكرا السلطان بقوله: " **لكون زاويتهم زاويتنا وخدمتهم صادقة وسيرتم محمودة مع أسلاف سيدنا...وطلبوا منا مطالعة علم سيدنا بحالهم...وقد شاهدنا فيهم الخصال المحمودة من إطفاء نار الفتنة وإصلاح ذات البين وبذل النصيحة للمسلمين...وما قصروا في سد الذرائع كدأب أسلافهم"**[2]. وقبل ذلك التاريخ تسلم الْمرابط محمد بن عبد الله القندوسي من نفس الزاوية رسالة من السلطان الحسن الأول في 10 ذي القعدة 1308هـ/ يونيو 1891م يأمره فيها أن يقف مع مرسوله **"الطالب العربي المنيعي حتى يصل إلى وادي الساورة آمنا**[3]

هكذا يتضح أن للزاوية دورا كبيرا في تثبيت السلم الاجتماعي داخل مجتمع تافيلالت، حيث حاولت معظم الزوايا أن تسهل عمل الجهاز المخزني بالمنطقة، من خلال حث مختلف القبائل بما فيها المترحلة على سماع وتنفيذ أوامر السلطان الذي كان ممثلا بنائب عنه يدعى خليفة السلطان، هذا الأخير كانت له أدوار عظيمة في حل الخلافات بين القبائل وتدبير شؤون السياسية والاجتماعية لأهل تافيلالت، بل وصل نفوذه إلى توات والتخوم الشرقية للمغرب استجابة ذوي منيع وزاويتها بالقنادسة.

---

1. مزيان، **المجتمع والسلطة**، صص.139.- 140.
2. م. و. م/ ملف الصحراء الشرقية
3. م. و. م / ملف الصحراء الشرقية

ونظرا لما كانت تحظى به زوايا تافيلالت من سمعة طيبة لدى ساكنة المنطقة، فإنها استطاعت أن تشكل قطب الرحى بالنسبة للكتلة القبلية – المخزنية؛ حيث حاول كل طرف التمسك بها والبحث عن نيل "بركتها"، مما أتاح للزاوية الحصول على جرعات جديدة من الهبة والاحترام، الذي استغلته في تقريب وجهات النظر بين السلطة المخزنية من جهة وبين القبائل من جهة أخرى، سيما إذا علمنا أن بعض القبائل الفيلالية كانت تتعنت وترفض أداء الضرائب وجميع الكلف المخزنية، مما كان له أكبر الأثر في توتر العلاقة بين الطرفين.

أمام هذا العصيان لقبائل المنطقة ورفضهم أداء ما عليهم من التزامات مالية، تضطر الأجهزة المخزنية إلى استعطاف شيوخ الزوايا من أجل معالجة هذا المشكل بالتي هي أحسن، وبطبيعة الحال في غالب الأحيان كانت الزوايا تنجح في إيجاد حلول ترضي الطرفين معا، ولم يكن ليتأتى لها ذلك لولا مراكمتها لسجل حافل من التجارب حول وسائل وطرق التعامل مع السكان. وهذا ما زكته بعض الرسائل السلطانية التي كانت تلجأ إلى الزوايا وتأمرها بوضع حد لمجموعة من الصراعات القبلية، وتدعوها أيضا إلى التقريب بين الساكنة وممثلي المخزن محليا من خلال رأب الصدع وتجميع الكلمة فضلا عن لم الشتات وتوحيد الصفوف.

خلاصة

ختاما، حاولنا في هذا المقال تفسير بعض أدوار الزوايا وأهميتها السياسية والاجتماعية بتافيلالت قبل الاستعمار الفرنسي، إذ يستحيل الحديث عن تاريخ المنطقة خلال هذه الفترة دون الإشارة إلى الزاوية وتأثيرها البالغ في أفكار وذهنيات ساكنة تافيلالت.

هذا الارتباط الوثيق بين الزوايا والقبائل لم يكن محض الصدفة، بل يرجع إلى عهود طويلة من الجهود والأعمال المضنية لشيوخ وأتباع هذه الزوايا التي كانت على ما يبدو، تصب في خدمة المجتمع الفيلالي بجميع شرائحه وأطيافه دون تمييز بين غني أو فقير، رئيس أو مرؤوس؛ تجلت مظاهر ذلك في أعمال البر والإحسان تجاه كل الأفراد الذين هم في حاجة لذلك، فكانت الزاوية الحفيانية على سبيل المثال، تطعم المريدين والزوار، وأقامت زاوية الماطي موائد إطعام لطلاب العلم والفقراء فضلا عن المتسولين والحمقى والمشردين.

لا شك في أن تلك الأعمال الخيرية ستزيد من توثيق الروابط وتمتين العلاقات، ليس بين الزوايا والقبائل فقط، ولكن أيضا بين الزوايا والمخزن المركزي، مما أدى إلى تعاظم المكانة الدينية والروحية لهذه الأخيرة، بل وترسيخ قدمها داخل مقدرات المنطقة اقتصاديا وماليا.

وهذا ما مكن هذه المؤسسات من تبوء تلك المكانة المرموقة، لما توافرت لها في واقع الأمر من أراضي زراعية وأشجار نخيل كثيرة، فأصبح لها ثقل اقتصادي إلى جانب ثقلها الروحي – الديني.

وعلى هذا الأساس أسست زوايا تافيلالت مجدها القديم، الذي مازالت بعض معالمه إلى وقتنا الحالي، وهذا الإرث التاريخي والحضاري لهذه الزوايا لم يوجد من فراغ، وإنما جاء نتيجة الجهود المضنية التي لم تنفك تلك من بذلها، ساهرة في نفس الوقت عن أمن وأمان أهل المنطقة. حيث لم تكتفي بأدوارها التقليدية المتمثلة في الأنشطة الروحية والدينية، بل خاضت في تافيلالت تجارب أخرى، توزعت بين الخدمات الاجتماعية والسياسية والإحسانية. فشكلت من هذا المنطلق قبل الاستعمار، تلك الحلقة الجوهرية من العقد الذي يربط المجتمع بالسلطة، هذه الحلقة التي من الأكيد كانت ترمي إلى تحقيق التوازن السياسي والاجتماعي داخل منطقة تعج بالمشاكل البيئية والتعقيدات الإثنية/ القبلية؛ لكن مؤسسة الزوايا بفضل ما أوتيت من القوة المادية والروحية، استطاعت أن تخلق نوعا من التعايش بين أطياف بشرية شتى، يعيشون أنماطا متباينة في الحياة: الرحل والمستقرون، الأمازيغ والعرب، السود والبيض، اليهود والمسلمون...

المصادر والمراجع

- العربية:

1- أكنوش عبد اللطيف، **تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب**، مطابع افريقيا الشرق، 1987، البيضاء.

2 - تاوشيخت لحسن، "الأوضاع العامة بتافيلالت خلال العهد العزيزي من خلال الوثائق المحلية والمصادر الأجنبية والرواية الشفوية". ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الثامنة، السلطان مولاي عبد العزيز، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، يناير .2003

3 –"الحركة العلمية والثقافية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية (القرنين 18 - 19)"، ندوة **الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب بوجدة، أيام 7 – 8 – 9 دجنبر .1993

4-الحادك قاسم، **جوانب من مواقف الزوايا الدرقاوية من الاحتلال الفرنسي 1881 – 1932م**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2014.

5-حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، الدار البيضاء، 1965.

6- دوتي إدمون، **مهام في المغرب من خلال القبائل**، ترجمة ودراسة وتعليق عبد الرحيم حزل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2015

7- استيتيتو عبد الله، **دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2013.

8 - العمراوي محمد، **المعجم الوجيز في تراجم نخبة من علماء سجلماسة ووادي زيز، مطبعة طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، 1435هـ /2014م.**

9 - مديرية الوثائق الملكية، **ملف الصحراء الشرقية.**

10- مزيان أحمد، **المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845- 1912)**. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج2، ط2، 2007.

11- ملوكي عبد الرحمان، **التاريخ الاجتماعي لتافيلالت خلال القرن التاسع عشر(1845– 1900) من خلال نماذج من وثائق مخزنية**، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية، 2009 – 2010، (مرقونة).

12-الناصري أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.

13- واحيحي سعيد، **سجلماسة/تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور، 796هـ/ 1393م إلى أواخر القرن 11هـ / 17 م (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية: 1426 – 1427 / 2005 – 2006م، (مرقونة).

– **الفرنسية:**

14–Laroui Abdellah، **les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912) ,** Centre culturelle arabe, 2ème édition, 2001.

15- Magali Morsy, **Les Ahansals, examen du rol historique d'une famille maraboutique de l'atlas marocain,** Paris, 1972.

المحور الثاني:
إضاءات حول التراث العلمي والحضاري للمغرب

الخزانة العياشية للمخطوطات
تراث علمي واعد بسفوح الأطلس الكبير الشرقي

د. حسن امحرزي[1]

مقدمة:

قامت مجالات الأطلس الكبير الشرقي بدور مهم في تنشيط الحركة العلمية والثقافية ببلاد المغرب الأقصى خلال الحقبتين السعدية والعلوية، ولعل هذا ما يبرز الثقل الحضاري، والماضي التاريخي والعلمي المتميز لهذه المنطقة التي مازالت تضم عددا كبيرا من الخزانات العلمية الغنية بالمخطوطات والوثائق؛ الدالة على ثرائها العلمي وإشعاعها الثقافي، ومنها الخزانة العياشية، التي ما تزال تحتوي على كنوز ودرر في كافة العلوم، سواء في التفسير أو الفقه أو الأصول أو اللغة العربية والتاريخ والتصوف والنوازل وغيرها، التي تعود إلى فترات تاريخية مختلفة تمتد من فترة ما قبل القرن السادس عشر الميلادي إلى حدود بداية القرن العشرين، وهو ما يبرز بوضوح كيف كانت هذه الخزانة العلمية منبرا للتنوير، ومدرسة للتثقيف ومصدرا لنشر العلوم والمعارف؛ ومن ثم فإنها تعني الشيء الكثير في تراثنا التاريخي.

وعليه نرى أن دراسة وبحث موضوع التراث المخطوط بالخزانة العياشية أمر ضروري وله أثر حيوي، حتى يتبين لنا كيف بدأت الحركة العلمية بهذا المجال، وما هي عوامل ازدهارها ونتائج مجهودات علمائها، وحتى نميط اللثام عن طبيعة الذهنية السائدة في المنطقة، وتحديد الأثر الذي أحدثته هذه الخزانة العلمية في تثقيف المجتمع ونشر الوعي وحفظ العلم، ثم تبيان تأثيراتها في المجالات المحيطة بها.

1-الخزانة العياشية: النشأة والتطور

تعد الخزانة العياشية - الحمزاوية - من الخزانات الحبسية الواقعة في المجالات الجغرافية لسفوح الأطلس الكبير الشرقي جنوب مدينة ميدلت بستين كيلومترا، منها خمسة وثلاثون كيلومترا على الطريق الرابطة بين ميدلت والرشيدية، والباقي على طريق منحرف يمر بعدد كبير من المنعرجات التي توصل إلى قرية صغيرة تعرف بزاوية سيدي حمزة الواقعة بين جبل العياشي وبعض الهضاب، تأسست هذه الخزانة خلال القرن الحادي عشر الهجري،

1 . أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، مختبر المغرب والبلدان المتوسطية.

على يد محمد بن أبي بكر العياشي المتوفى سنة 1067هـ/1657م، إلا أنها عُرفت واشتهرت في المنطقة باسم حفيده سيدي حمزة (1068هـ - 1658م)[1].

ترجع الأصول الأولى لنشأة وتأسيس هذه الخزانة العلمية، إلى الكتب التي تم توقيفها على المكتبة أيام الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي (ت 1067هـ/1657م)، وأخيه عبد الجبار بن أبي بكر المتوفى سنة 1082هـ/1672م، إضافة إلى ما تمّ نسخه أو اقتناؤه أو تحبيسه من قبل أبناء وحفدة مؤسسي هذه النواة الذين سلكوا المسلك نفسه،[2] وما تزال مخطوطاتها تحمل قيود تحبيساتهم إلى الآن، ففي وثيقة دونت على الصفحة الأولى لأحد مخطوطات المكتبة يحمل الرقم 517 نجد ما نصه: " **الحمد لله، حبس المرابط سيدي محمد بن أبي بكر العياشي وأخوه سيدي عبد الجبار، جميع كتبهما التي من جملتها هذا التأليف المبارك وهو سيرة سيد البشر عليه الصلاة والسلام تأليف ابن سيد الناس اليعمري، على بنيهما الذكور دون الإناث، حبسا مؤبدا، لا يورث ولا يوهب حتى يرث الله الأرض ومن عليها وتولى حيازة ذلك طالب الخير سيدي عبد الكريم بن محمد المذكور، وسيدي محمد بن عبد الجبار المذكور أيضا، حوزا تاما، وقبلا ذلك منهما قبولا تاما، وشهد بذلك من عرفهما، فيما سلف من تاريخه بنحو عام، وتأخر الوضع لأواخر جمادى الثانية عام ثمانية وخمسين وألف، عبيد ربه تعالى وعبد الله تعالى: محمد بن عبد الله الصنهاجي لطف الله به، وأبو زيان بن محمد بن الحاج الندي لطف الله به** "[3]، أما تحبيس الأحفاد فقد جاء في أحد مخطوطات المكتبة الحامل للرقم 405، وهو لبعض الأجزاء من شرح صحيح البخاري للقسطلاني كتب فيها على الجزء الأول والثاني أنه ممّا اتفق على تحبيسه أولاد سيدي محمد بن أبي بكر وأولاد أخيه سنة 1103هـ/1692م، كما تشتمل الخزانة على عدد من المخطوطات

1- عبد الله العياشي، **الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش**، مخطوط بالخزانة الحمزاوية رقم 244، 2/91-101.

2- حسن جلاب، **بحوث في ببليوغرافيا التراث المغربي المكتوب**، ط1، المطبعة الوطنية، مراكش،(1995م / 1416 هـ)، ص.32؛ - بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ترجمة مصطفى طوبي، ط1، منشورات الخزانة الحسنية، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2003، ص. 138.

3- حسن جلاب، **بحوث في ببليوغرافيا التراث المغربي المكتوب**، ص. 31.

المشرقية والفاسية[1] التي اشتراها أبو سالم عبد الله العياشي (1037هـ[2].1090هـ)[3] وهي في المكتبة ضمن ملف يحمل رقم 253، أو التي حبسها العلامة أبو سالم العياشي على أولاده وإخوانه وبني عمه وأقاربه، للقراءة والإقراء والمطالعة كما جاء في الأسفار الخمس من الجامع الصحيح عام 1087هـ.

الوثيقة **1**: وثيقة تحبيس العلامة أبو سالم العياشي للأسفار الخمس من الجامع الصحيح على أولاده وإخوانه وبني عمه وأقاربه للقراءة والإقراء والمطالعة. (عام **1087هـ**)



ويرجع الفضل في العناية بهذه المكتبة لابنه سيدي حمزة (1068هـ 1130هـ) الذي اشترى الكتب من المشرق والمغرب، بل واشتهر بشراء مكتبات بعينها أحيانا،[4] كما يدلُّ على ذلك

1. بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ص.138.

2. أبو سالم العياشي، **اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر**، تحقيق ودراسة نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1996، ص. 28.

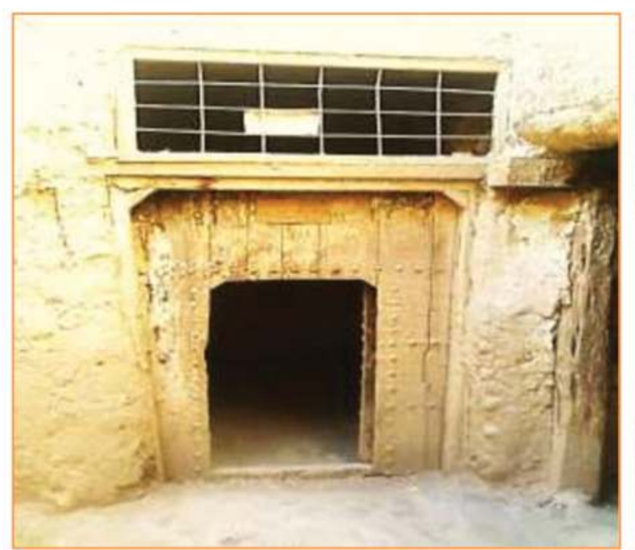
3. عبد الله العياشي، **الإحياء والانتعاش**، 22/2.

4. حميد لحمر، **الفهرس الوصفي لمخطوطات خزانة الزاوية الحمزية العياشية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، مطبعة الأمنية، الرباط، 9/1.

المخطوط رقم 290، علاوة على من جاء بعده أمثال محمد بن حمزة بن أبي سالم العياشي، وعبد الله بن محمد بن حمزة، وعبد الرحمان بن أحمد بن عبد الله (أبو سالم العياشي) ومن المتأخرين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن أبي سالم العياشي (ت1235هـ/1820م)، زيادة على ما نسخ في الخزانة، أو ما اقتناه شيوخها أو أهدي إليها أو ما حبّس عليها، أو ما تمت استعارته لفائدة الطلبة، أو ما وُهب لها؛ كما هو مبين في المخطوط رقم 311 بالخزانة الذي وهبه الأمير العلوي عبد المالك بن السلطان المولى إسماعيل[1]. وخلال السنوات الأخيرة نشير إلى بعض المحاولات التي قام بها القائد عبد الله العياشي في مسعى لضم مخطوطات خزانة قصر أند[2] المتبقية والبالغ عددها حوالي 170 مخطوطا إلى الخزانة الحمزاوية.

بعد المرور بزقاق مظلم مغطى بسقف متهالك من عيدان الصفصاف تم تدعيمه ببعض الأعمدة لتفادي سقوطه، تصل إلى باب منكّب يمثل المدخل الرئيس لدار أبي سالم العياشي المكونة من مجموعة من الغرف أهمها الغرفة الخاصة بخزانة الكتب.





الصورة 2: المدخل الرئيس المؤدي إلى الخزانة الحمزاوية

1. بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ص.138.

2. **قصر أند**: أحد قصور ومداشر سفح جبل العياشي قريبا من قصر زاوية سيدي حمزة، ينحدر سكانه من سلالة سيدي عيسى بن موسى الدغوغي كما هو وارد في مجموعة من الظهائر السلطانية التي بيد أهل القصر، عرف هذا القصر بشهرته العلمية وبتدريس القرآن الكريم، وبتوفره على خزانة علمية أصبحت في خبر كان، وما تبقى منها حوالي 170 مخطوطا، سلمت للسيد عبد الرحمن لكبير الذي كان يقطن آنذاك بآيت عياش بميدلت منذ ما يقرب سبعين سنة، عندها حاول وقتئذ القائد عبد الله العياشي أن يضمها إلى خزانة أبي سالم العياشي.

فبعد الدخول وفي مرتقى صعب داخل الدار، تصل إلى حجرة صغيرة حيث توجد الخزانة المخصصة للكتب، والتي تقع في مستوى منبسط من البناية في حدود ثمانين سنتمترا، يصل طولها إلى أربعة أمتار على أربعة أمتار عرضا، شيّدت بالطين المدكوك (الرْكَزْ محليا) وسقفها من عيدان خشب الصفصاف وهو في حالة متهالكة حاليا، يتوسطه منفذ للتهوية والضوء على شكل مربع قياس ضلعه حوالي متر، وقد وزّعت على جنبات هذه الغرفة مجموعة من الخزانات الحديدية الموصدة التي تحمل فهرسة وأرقاما بعدد المخطوطات الموجودة بداخلها والمواضيع التي تتناولها، حيث نجد في الغرفة حوالي تسع خزانات حديدية، وفي الوسط توجد خزانة عاشرة خشبية مكونة من رفين كبيرين، يصل طولها إلى مترين وعرضها حوالي مترين ونصف[1].



الصورة 3: بعض رفوف الخزانة العياشية

تضم عددا من المخطوطات أغلبها مشرقية الخط، ولعلها مما حمله شيوخ آيت عياش في رحلاتهم، أو استنسخوه هناك أو مما أهدي إليهم، وهذه الخزانة هي المسموح بمشاهدتها للزوار، كما تضم بعضا من أدوات أبي سالم العياشي العتيقة التي استخدمها في رحلاته من قبيل الزير المخصص للمؤنة الذي مازالت رائحة السمن تفوح منه إلى الآن، إضافة إلى القنديل، والنعل الذي كان يلبسه، علاوة على القبعة التي قطّعت منها بعض الأجزاء من قبل بعض الزوار طلبا للبركة، ولا ننسى أن نشير إلى وجود بعض الآلات التي كان يستخدمها النسّاخ بالخزانة في عملية تسفير وترميم المخطوطات (الزيّار).

1. معاينة مباشرة.



الصورة 4: أدوات استخدمت في عملية التسفير بالخزانة العياشية

إنشاء مقر جديد مجاور لها، سيتم نقل كافة المخطوطات والأدوات إليه في إطار عملية رد الاعتبار لهذا التراث وتثمينه بغية تسهيل الاستفادة منه. كما لا يفوتنا أن نشير إلى العدد الإجمالي لمخطوطات هذه الخزانة البالغ حوالي 1202 مخطوطا، ناهيك عن المخطوطات الأخرى النفيسة التي مازال أحفاد أبي سالم العياشي يحتفظون بها، والتي تقول الرواية الشفوية أنها من أنفس المخطوطات وأندرها، حيث فقدت على إثر قيام الدولة بضم هذا المرفق وجعله تابعا لها عبر وزارتي الثقافة والأوقاف والشؤون الإسلامية. فاحتفظ بعض أحفاده بجزء منها خاصة تلك المخطوطات النفيسة المكتوبة بماء الذهب. كما كانت الخزانة تضم محترفا لترميم وتجليد المخطوطات وزخرفتها، وهذا ما تشهد له أدوات الترميم التي ماتزال محفوظة بالخزانة إلى وقتنا هذا،[1] فقد زخرف محمد بن يوسف بن موسى العياشي العدد الثاني من قاموس الفيروز آبادي وذلك لصالح الخزانة العياشية، مما يعكس انشغال الساهرين عليها بمسألة صيانة الكتب والمحافظة عليها إلى أقصى درجة[2].

أما ما يتعلق بإعارة الكتب فكان مسموحا بها للأساتذة والطلبة، وفق منهج منظم، تسجل فيه عناوين الكتب وأسماء المستعيرين في سجل للإعارة، وإذا تجاوز المستعير الفترة المحددة يتم تنبيهه مكاتبة، وهذا ما نجده في الملف المحفوظ تحت الرقم 388 بالخزانة، وهو عبارة عن رسالة اعتذر فيها محمد طلحة أهوس للشيخ محمد بن عبد الله العياشي لعدم

1- معاينة مباشرة.

2. بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ص.144.

إعادته للمخطوطات التي استعارها في الوقت المحدد،[1] وفي بعض الحالات تتم كتابة اسم المستعير على ورقة المخطوط الذي استعاره، كما ورد في مخطوط الأنوار القدسية الذي استعاره احسين وسعيد نيت أشعُ وغيره من سيدي محمد بن عبد الوهاب العياشي على وجه الأمان.



الصورة 5: مخطوط الأنوار القدسية الذي استعاره احسين وسعيد نيت أشعُ وغيره من سيدي محمد بن عبد الوهاب العياشي على وجه الأمانة (تصوير شخصي)

2 – الخزانة العياشية: الإشعاع العلمي والثقافي

حظيت الخزانة العياشية باهتمام الدارسين والباحثين، منذ أسس نواتها الأولى الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي عام 1044هـ/1635م، الذي أوقف رفقة أخيه جميع كتبهما على الخزانة.

وبعدما آل أمرها لأبي سالم عبد الله العياشي الذي عرف باشتغاله بتدريس العلم، وولعه بشراء وانتساخ الكتب في المغرب والمشرق، عرفت الخزانة نموا وإشعاعا بين المشايخ وطلبة العلم، ولمّا انتقلت مفاتيحها لابنه حمزة بن أبي سالم العياشي، الذي تنسب إليه،[2] اعتنى بها عناية بالغة، واهتم بتنشيط حركتها العلمية وبذل كل ثروته في شراء الكتب

1- بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ص. 145.

2- محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، ط 2، مطبعة النجاح الجديدة، 1988، ص. 69.

واستنساخها، ثم تتابع دور أبنائه وأحفاده الذين جاؤوا بعده في تنمية هذه المعلمة العلمية، ومع بزوغ نجم الدولة العلوية الشريفة كادت الخزانة العياشية أن تلقى مصيرها، بعد حادثة تغريب السلطان المولى الرشيد (10821075هـ) بأهلها إلى فاس، رغم توسلاتهم له بإرجاعهم إلى ديارهم، إلا أن المولى إسماعيل وبعد اعتلائه سدة الملك أذن بإرجاع العياشيين إلى موطنهم أوائل عام 1083هـ/1672م[1].

في ظل هذه التطورات، مازال جبل العياشي منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم يحتضن خزانتها العلمية الفاخرة، التي تشهد على الماضي العلمي لهذا المجال الجغرافي، فقد حظيت مكتبتها العلمية بوصف مجموعة من العلماء المغاربة أمثال أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي[2] (ت 1175هـ/ 1762م) الذي قال في حقها:

وجدت بها ما يملأ العين قرّة ويسلّي عن الأوطان كل غريب

دواوين في جل الفنون جليلة ينال بها الآمال كل أريب



الصورة 6: إجازة الشيخ الهلالي لتلميذه عبد الوهاب بن عمر بن محمد بن أبي بكر العياشي سنة

وقد أجاز الهلالي بعض تلامذته فيها مثل: الشيخ عبد الوهاب بن عمر بن محمد بن أبي بكر العياشي كما نوّه بها العلاّمة محمد بن الطيب القادري (ت1187هـ/ 1773م)، في كتابه

1. بنبين، **تاريخ خزائن المغرب**، ص.137.

2- ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، دار المغرب، الرباط، 1997م/1377هـ، ص. 225.؛ - الحجوي محمد بن الحسن، **الفكر السامي**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1416هـ/1995م، 344/2.

"نشر المثاني" وبما تحويه من نوادر الكتب التي لا توجد في سواها بسائر ربوع المغرب، مما جعل العلماء السابقين واللاحقين يستفيدون منها، ثم الأمير المولى عبد الرحمان ابن السلطان المولى سليمان الذي أشاد بها وبشيوخها بعد زيارته لها سنة 1270هـ/1854م.



الصورة 7: تقريظ بخط الأمير مولاي عبد الرحمان ابن السلطان المولى سليمان يشيد فيه بالخزانة العياشية وشيوخها بعد زيارته لها سنة 1270هـ/1854م

إضافة إلى العلامة أبي مدين بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري (ت1181هـ/ 1768م) الذي ذكرها في شرحه لتائية الشريسي[1] في التصوف، وغيرهم من العلماء الذين انتسخوا منها أو استعاروا بعضا من كتبها أمثال: أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الحريشي الفاسي (ت1143هـ/ 1731م)، وعبد الكبير بن عبد الرحمن المجذوب بن عبد الحفيظ (1295هـ/ 1878م) وغيرهم. واللافت للنظر فيما سلف ذكره، ما يشهد على المكانة العلمية التي احتلتها الخزانة العياشية بسفوح الأطلس الكبير الشرقي، حيث اهتمت أكثر

1. توجد ضمن مجموع محفوظ بالخزانة الوطنية بالرباط، تحت الرقم: ك 930.

بالجانب العلمي، ورهنت نفسها للاتجاه التعليمي الصّرف، رغم بعض مظاهر الشعوذة التي مازالت ماثلة إلى الآن على بعض مداخلها.



الصورة 8: بعض مظاهر الشعوذة على أبواب مدخل الخزانة الحمزاوية

ولعلّ هذا ما يفسر النجاح الذي لقيته، والتوقير والاحترام الذي حظي به شيوخها وعلماؤها، منذ مرحلة أبي سالم العياشي، حيث لم يقتصر نفوذها على هذه المجالات فقط، بل تعدّاه إلى المناطق المغربية الأخرى، وهذا ما تؤكده العديد من المصادر التاريخية التي أشارت إلى أهميتها العلمية وأشادت برجالاتها وبخزانة مخطوطاتها النفيسة أمثال: الحسن اليوسي الذي توجد العديد من مؤلفاته بالخزانة الحمزاوية، وكذا المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان، وأبي القاسم الزياني وغيرهم، الذين أثنوا عليها، كما ارتبطت أيضا بعلاقات حميمية خاصة مع الخزانة التمكروتية بدرعة عبر تبادل العلماء والكتب ومع الخزائن الفاسية وقبلهم بخزانة الدلاء.



الصورة **9** : مخطوط شواهد العيني بالخزانة العياشية الذي نسخ ببلاد درعة سنة **944**هـ /**1538**م

ومما زاد من المكانة العلمية لهذه الخزانة الجبلية، كونها شكلت قاعدة علمية ودينية منذ فجر العصر الحديث، اضطلع علماؤها بمهام التعليم والتأليف والتثقيف، وهو ما أضفى عليهم وعلى مؤلفاتهم تلك المكانة الاجتماعية والعلمية التقديرية والاعتبارية، سواء داخل المجال أو خارجه، فكانت إسهاماتهم على المستوى الديني والفكري والعلمي بوجه عام، تقتضي من الباحثين الإلمام بكل مظاهر الحركة العلمية في المنطقة، مع ضرورة وضعها في إطار ما تسمح به المادة العلمية المتوفرة لدينا.

وبعدما كانت الخزانة العياشية قلعة تحدّ في العالم الإسلامي خلال القرن 17م/11هـ، وصلت بإشعاعها إلى حد نافست فيه خزانات الحواضر المشهورة وقتئذ في مراكش وفاس وتلمسان على مستوى العمران وعلى مستوى العرفان،[1] لكن ومنذ بزوغ شمس القرن الثاني عشر الهجري، أخذت قيمة هذه المكتبة في التراجع، بسبب فتور الحركة العلمية وقلة الكتب الجديدة الداخلة إليها، إضافة إلى التفريط الذي لحق عددا من كتبها، مما أدى الى تهاوي شهرتها وقيمتها العلمية في المغرب. وما تزال المكتبة التي احتلت رفوفها غرفة من منزل الشيخ أبي سالم العياشي تشهد على ذلك التحدي الذي قاوم الصعاب والنسيان والإهمال جنوب جبل العياشي إلى يومنا هذا.

3- عناية العياشيين بالنساخة وكتب الخزانة

اهتم العياشيون بنسخ الكتب العلمية، وهذا ما نجده مدوّنا في بعض التقاييد والملاحظات الواردة في العديد من الكتب المخطوطة بها، فقد كانت النسّاخة أحد العناصر الأساس المكونة للمكتبة، حيث اضطلع بها عدد من أعلام البيت العياشي وآخرون منهم: أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (المخطوط 182) وابنه حمزة (المخطوط 519)، وعمر بن محمد بن أبي بكر (المجموع رقم 271)، ومحمد بن حمزة بن أبي سالم (المجموع رقم 279)، وأحمد بن محمد بن عبد الجبار (المجموع رقم 260)، ومحمد بن يوسف بن موسى (المجموع رقم 266) وغيرهم، وهؤلاء من البيت العياشي، وإلى جانبهم أفراد آخرون كانوا يقومون بالنسخ للعياشيين نذكر منهم: بلقاسم بن عبد الرحمان بن عبد العزيز التزروفتي (المخطوط رقم 488)، وأحمد بن عيسى البويزمي التزروفتي، ومحمد بن محمد بن أحمد الوكيلي، وعلي بن عبد الله بن محمد المنصوري الجبلي إلخ، إضافة إلى هؤلاء النساخ كان العياشيون

1- آيت الفقيه "الزاوية العياشية الحمزاوية بين الكتابية والشفاهية الأمازيغية"، **كتاب التراث الشفوي بتافيلالت، الأنماط والمكونات**، إشراف سعيد كريمي وموحى صواك، ط1، مطبعة إيماجوري، فاس، 2008، ص. 653.

يستكتبون المؤلفات خارج الخزانة من فاس والآفاق الأخرى، وفي حالات أخرى من الهدايا التي كانت تقدم لها من بعض الجهات، وفوق هذا وذاك ركز العياشيون في عنايتهم بالمكتبة على مقابلة الكتب وتصحيحها، بل ويعتنون بتزويق بعضها تزويقا تزدوج فيه البساطة بالملاحة كما كان يفعل محمد بن يوسف بن موسى العياشي، هذا ووجد بالمكتبة أيضا بعض الأفراد المهتمين بمهنة التسفير،[1] علاوة على عنايتهم بإتمام الكتب الناقصة، وكلها عمليات كان الهدف منها المحافظة على المكتبة والاعتناء بصيانتها.

أما عملية تنظيم الإعارة، فكان القيّم عليها الذي يتم اختياره من سلالة الحمزاويين،[2] يسجل اسم الكتاب واسم المستعير، ويكاتبونه إذا اقتضى الحال قصد مطالبته بإرجاع الكتاب في حالة التأخر، كما مرّبنا، ويقوم بالعملية قيم خاص كان على رأس المكتبة، وماتزال هذه العادة سارية المفعول إلى الآن، إضافة إلى قيامه بدور ضبط وترتيب محتويات الخزانة وتصنيفها وكذا مهمة المناولة وترتيب الوثائق والإعارة واقتناء الكتب ووظيفة التربية والتعليم،[3] دون أن ننسى الإشارة إلى أن الخزانة كان لها سجل يضم فهرسة لكافة كتبها نجده في الملف رقم 253 وآخر في المخطوط رقم 245، وقد صنفت حسب التخصصات التالية: المصاحف، التفسير، أحكام القرآن، التصوف، الحديث، جوامع الحديث، السير، الفقه، النحو، التصريف، البيان، اللغة، دواوين الشعر، المقامات، الأصول، التوحيد، المنطق، المجامع، كتب التعديل والتوقيت والهندسة والحساب، كتب الطب، كتب التاريخ والجغرافيا والطبقات والرحلات، وقد ظل هذا الفهرس معتمدا إلى حين إعادة فهرستها من جديد وفق المواصفات الحديثة واستنادا إلى الفهرسة القديمة.

1- حسن جلاب، **بحوث في ببليوغرافيا التراث المغربي المكتوب**، ص. 32.

2. بنبين، **دراسات في علم المخطوطات**، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 7، جامعة محمد الخامس، ط 1، مطبعة النجاح، البيضاء، 1993، ص. 139.

3. بنبين، **دراسات في علم المخطوطات**، ص ص. 141-145.



الصورة 10: مخطوطة فهرس الخزانة العياشية القديم رقم 245 (تصوير الباحث)

4 - الفهرسة الحديثة للخزانة العياشية

احتوت الخزانة العياشية على مخطوطة خاصة بالفهارس التي اعتمدها مشايخ الخزانة والساهرون عليها، كما توجد لها فهرسة أخرى مازالت نسختها المخطوطة بالمكتبة الوطنية في باريس تحت رقم 4725،[1] إضافة إلى فهارس أخرى بالخزانة؛ لكنها لم تخضع لأي منهج أو ضابط في تصنيفها، وهي عبارة عن لوائح لمؤلفات الخزانة فقط هنا وهناك، وهذا ما نجده في الملف رقم 253 الذي وضعه المؤسسون الأوائل للخزانة في تاريخ غير معروف، ولعله الملف الوارد في الفهرس الأخير للمكتبة الصفحة 143 بعنوان: "مجموع فيه أسماء الكتب"، وكذلك فهرس ثان كتب في شهر رجب لعام 1268هـ، ويحمل الرقم 245 [2] ضمن مخطوطات الخزانة؛ وهو الفهرس الذي كان معمولا به دون سواه عند محافظي الخزانة في معرفة أسماء كتبها وأماكن وضعها قبل تنظيمها تنظيما حديثا[3]، فقد صنف كتب الخزانة إلى جملة من الأبواب والتخصصات منها: المصاحف القرآنية، كتب التفسير، كتب التصوف، كتب الحديث، الجوامع، كتب اصطلاح الحديث، كتب التعديل والتوقيت والهندسة والحساب، كتب الطب، كتب التاريخ والطبقات، وغيرها، وفي حدود سنة 1961 و1962 قامت بعثتان من العاصمة الرباط بزيارة الخزانة ووضع فهرسة منظمة لها، حيث بلغت إحصائيات عدد المخطوطات بها حوالي 1202 مخطوطا، وهي من إنجاز الأستاذ محمد المنوني الذي نشرها في

---

1. بنبين، **دراسات في علم المخطوطات**، ص. 142.

2. فهرس يوجد حاليا بالخزانة الحمزاوية، يحمل الرقم 245، وغالبا ما كان يقدم للباحثين المهتمين بالخزانات العلمية، قبل أن تضع وزارة الأوقاف الفهرس الأخير للدكتور حميد لحمر الذي يقدمه قيم الخزانة الحالي للزوار والباحثين.

3. حميد لحمر، **الفهرس الوصفي لمخطوطات خزانة الزاوية الحمزية**، 14/1.

مجلة تطوان العدد الثامن سنة 1963، قام خلالها بترتيب وفهرسة مخطوطات المكتبة في خمس خزانات بلغ عدد مجلداتها 864، تضم الخزانة الأولى منها حوالي 179مجلدا، والخزانة الثانية تضم 215 مجلدا، والخزانة الثالثة تضم 70 مجلدا، وتضم الخزانة الرابعة 83 مجلدا، أما الخزانة الخامسة فتضم قرابة 317 مجلدا.

في حين بقيت حوالي 317 مخطوطا بدون ترقيم، وقد أشار الأستاذ المنوني في مقالته بمجلة تطوان إلى وجود حوالي 188 مخطوطا من النوادر[1] منها:

1- المصاحف والقراءات من الرقم 1 إلى 16.

2- الحديث وملحقاته من الرقم 17 إلى 44.

3- التوحيد والتصوف من الرقم 45 إلى 49.

4- الفقه وملحقاته من 50 إلى 74.

5- النحو والصرف من 75 إلى 105.

6- الأدب من 106 إلى 121.

7- التراجم والأنساب من 122 إلى 135.

8- الجغرافيا والرّحلات من 136 إلى 138.

9- المنطق من 139 إلى 143.

10- الرياضيات والفلك من 144 إلى 148.

11- الطب من 149 إلى .156

12- المجامع من 157 إلى 188.

كما قامت هيئة التصوير بتصوير حوالي 221 مخطوطا تعادل 249 مجلدا، ومع بزوغ عام 2009، قامت لجنة علمية مكلفة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإعادة فهرسة الخزانة من جديد وفق المواصفات الحديثة من إنجاز الأستاذ حميد لحمر،[2] الذي أحصى حوالي 1911 عنوانا، كاشفا عددا كبيرا من العناوين التي ظلت في حكم المجهول بالخزانة خاصة ما وجد في كتب المجاميع، وقد سلك الباحث في هذه الفهرسة القواعد والمنهجيات المتبعة في تقنية الفهرسة الحديثة، رغم بعض الهنات اليسيرة، فقام بترتيب مخطوطات الخزانة حسب المواضيع وذلك حتى يسهل على الباحث الاستفادة منها. وعموما فقد تضمنت

1- حسن جلاب، **بحوث في ببليوغرافيا التراث المغربي المكتوب**، ص. 33.

- صدرت هذه الفهرسة في أربع مجلدات عايناها مباشرة داخل الخزانة الحمزاوية وغيرها.2

الفهرسة حصرا للموجود ووصفا وتصنيفا له، وجعلت لكل مخطوط رقمين الأول ترتيبي تسلسلي، والثاني رقم الكتاب الأصلي بالخزانة، أما معلومات الكتاب المخطوط فقد رتبها الباحث على الشكل الآتي:

-عنوان المخطوط مع ذكر الجزء إذا دعت الضرورة لذلك أو رقمه إذا كان ضمن مجموع.

. الاسم الكامل للمؤلف، ولقبه، وكنيته، وشهرته، وتاريخ وفاته.

. تاريخ التأليف.. اسم الناسخ وتاريخ النسخ إن وجد.

. نوع الخط.. مسطرة الكتاب.

. تسجيل فقرات من أول الكتاب وآخره.

. ملاحظات عامة، تنبّه على قيمة الكتاب ونسخه بالمكتبة وأحيانا في غيرها، مع الإشارة إلى المقابلات والتملكات والتحبيسات إذا ما سجلت بالمخطوط.

. ذكر بعض المصادر والمراجع التي ترجمت للمؤلف أو تعرضت لذكر الكتاب.

وفيما يلي نماذج لبعض المخطوطات التي تمكنّا من معاينتها مباشرة بالخزانة الحمزاوية:



الصورة 11: الخزانات الحديدية المغلقة بالخزانة الحمزاوية



الصور 12: نماذج من مخطوطات الخزانة العياشية





مخطوط الاحياء والانتعاش



مخطوط "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار"





المخطوط 763: شرح شواهد الرضى على كافية ابن



مخطوط شواهد الكافية



مخطوط الأنوار القدسية

خلاصة: يمثل التراث المخطوط صورة حية لنتاج الفكر الإنساني في مجالات العلم والمعرفة، بشتى فنونه وفروعه، والخزانة العياشية كغيرها من المجالات المغربية تفاخر بوجود وثائق ومخطوطات مهمة ونادرة، تضم مصنفات الفقهاء ودواوين الشعراء، وتجارب العلماء واستنتاجاتهم في أغلب التخصصات، وفيها تكمن روح الحياة الثقافية والمعرفية التي ميزت هذا المجال، والحياة التي عاشها أولئك الصفوة من المؤلفين طوال القرون الماضية، والعصارة الفكرية للعقول والألباب، التي يعز نظيرها في التراث الثقافي.

كما ينطوي هذا التراث – المخطوط -الذي تحتضنه الخزانة الحمزاوية على قيمة معرفية هائلة، تنبثق من محتواه العتيق، فضلا عن الحقائق التاريخية التي يكشف عنها، والسيميولوجيا الفنية التي يعكسها في أدواته التدوينية، والقيمة الرمزية التي يعبر عنها، لهذا فالحفاظ عليه حفاظ على المعرفة والحضارة والتاريخ والفن والذوق والهوية. وهو ما يدفعنا إلى الدعوة لردّ الاعتبار له عبر صيانته وترميمه، ووضع فهرسة دقيقة تُسهّل مهمة الشروع في دراسته وتحقيقه؛ لأن الفهارس تمثل مفاتيح للكتب، وبها يستطيع الباحث أن يهتدي إلى ما يريده، قبل اندثار وفناء هذا النوع من التراث. والله الموفق

لائحة المصادر والمراجع:

- الحجوي محمد بن الحسن، **الفكر السامي**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1416هـ ./1995م، ج 2.
- العياشي أبو سالم، **اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر**، تحقيق ودراسة نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1996.
- العياشي عبد الله، **الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش**، مخطوط بالخزانة الحمزاوية رقم 244، ج2.
- آيت الفقيه لحسن "الزاوية العياشية الحمزاوية بين الكتابية والشفاهية الأمازيغية" **كتاب التراث الشفوي بتافيلالت، الأنماط والمكونات**، إشراف سعيد كريمي وموحى صواك، ط1، مطبعة إيماجوري، فاس، 2008، صص. 651-653.
- بروفنصال ليفي، **مؤرخو الشرفاء**، دار المغرب، الرباط، 1997م/1377هـ.
- بنبين أحمد شوقي، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ترجمة مصطفى طوبي، ط1، منشورات الخزانة الحسنية، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2003.
- بنبين أحمد شوقي، **دراسات في علم المخطوطات**، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 7، جامعة محمد الخامس، ط 1، مطبعة النجاح، البيضاء، 1993.
- جلاب حسن، **بحوث في ببليوغرافيا التراث المغربي المكتوب**، ط1، المطبعة الوطنية، مراكش، 1995م/ 1416 هـ.
- حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، 1988.
لحمر حميد، **الفهرس الوصفي لمخطوطات خزانة الزاوية الحمزية العياشية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، مطبعة الأمنية، الرباط، ج1

جوانب من الشخصية التاريخية والحضارية لمنطقة سوس

د. مولاي الزهيد علوي[1]

منذ أن أكد المختار السوسي في كتابه " **سوس العالمة** " على ضرورة الاهتمام بالتواريخ الخاصة والمحلية لمختلف قرى وحواضر المغرب، لقيت هذه الدعوة وغيرها استجابة واسعة لدى الباحثين المغاربة في مجال التاريخ، إلى درجة أن الاهتمام بالتاريخ المحلي أصبح من أهم فروع الدراسات التاريخية، ومع مرور فترة من الزمن ترسخ المنهج المونوغرافي ترسيخا قويا في البحث التاريخي؛ وأصبحت أغلب مناطق المغرب موضوعا للعديد من البحوث والدراسات التاريخية.

تعتبر منطقة سوس من أهم المناطق التي اقتضت الضرورة العناية بها في مجال البحث التاريخي، اعتبارا لكونها منطقة سجلت حضورها القوي في تاريخ المغرب بمختلف حقبه، حيث شكلت نموذجا للمناطق المغربية التي كان لها دور حاسم في الصيرورة التاريخية والحضارية التي عرفتها البلاد، وقد قدمت عنها المصادر التاريخية والجغرافية معلومات هامة تتنوع بين المعلومات الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية، كما اهتمت بها الكثير من الدراسات المختلفة المنحى في إطار إبراز مختلف الوظائف والخصائص التاريخية التي تميزت بها، ومن بين المؤلفات التي انكبت على سوس، نذكر المؤلفات التي خلفها الراحلين الأستاذ **المختار السوسي** والأستاذ **عمر أفا**، حيث ركز الأول على إعطاء صورة متكاملة عن المنطقة، خصوصا في المجال العلمي والثقافي، وركز الثاني على إحياء عدة نصوص ووثائق في إطار إبراز البعد الاقتصادي والسياسي للمنطقة.

قد يبدو الغنى العلمي والمعرفي الذي ميز هذه الدراسات وغيرها كافيا لإبراز خصوصيات منطقة سوس، ورفع " الدجى عن أفاقها " كما يقول المختار السوسي[2]، وقد يبدو الحديث عن سوس بعد كل ما خلفه السابقون نوع من الترف الفكري أو التكرار المعرفي الذي لا فائدة منه؛ لكن مصادفة بعض النصوص ومحاولة إحياءها أو إعادة قراءتها وتوظيفها، قد يزيد من صقل صورة المنطقة، والمساهمة في مزيد من الوضوح بخصوص أبعادها التاريخية والحضارية.

---

1. أستاذ وباحث في التاريخ - الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة فاس مكناس

2 - المختار السوسي، **سوس العالمة**، مطبعة فضالة – المحمدية، 1960، ص: 7.

انسجاما مع ما سبق نحاول استجلاء بعض من مخزون منطقة سوس التاريخي والسياسي والاقتصادي والثقافي، وذلك بحكم ما كان لها عبر تاريخها المشرق من دور سياسي، وازدهار اقتصادي، وإشعاع علمي وثقافي، ودور طلائعي في ربط علاقات التواصل الروحي والسياسي والتجاري بين مناطق المغرب، وبين بلاد المغرب ومحيطه الإقليمي والعالمي.

أولا: المجال الجغرافي والإطار الطبيعي لسوس:

I -المجال الجغرافي لسوس:

لم تكن المصادر التاريخية والجغرافية المتقدمة تحدد المجال الجغرافي لسوس بشكل دقيق كما هو على صورته الحالية، فمدلول كلمة سوس في المجال كان غير ثابت ويكتنفه الكثير من الغموض، لأنه كان يتسع ليشمل مناطق بعيدة المدى، ثم يتقلص ليقتصر على مناطق محدودة، تبعا للتطورات السياسية التي شهدتها المنطقة في مختلف مراحلها، ويرجع الغموض والاضطراب في توطين منطقة سوس على خريطة المغرب الى عدم استقرار الوضع السياسي خلال الفترات الأولى لتاريخ الغرب الإسلامي، فاليعقوبي صاحب كتاب البلدان يحددها اختصارا بقوله: " وسوس هو ما وراء جبال درن وينتهي عند نول لمطة "، وهو نفس التحديد الذي وضعه البكري في القرن الخامس الهجري[1]. أما الادريسي فلم يكن ذو أفق واسع في حديثه عن المجال الجغرافي لسوس، حيث اكتفى بقوله عنها: " في هذا الجزء من بلاد الصحراء نول لمطة وتازكغت واغرنوا وفيه من بلاد السوس الأقصى مدينة تارودانت وتيويوين وتامامت وهي بلاد السوس "[2].

وبشكل تدريجي مع تطور الجهاز الإداري والنظام السياسي للدولة المغربية خلال العصر الحديث؛ بدأت سوس تبرز في بعض المصادر كمنطقة ذات هوية مجالية واضحة، فبنوع من التدقيق يحددها الحسن الوزان بقوله: " تبتدئ غربا من المحيط، وتنتهي جنوبا في رمال الصحراء، وشمالا في الأطلس عند حدود حاحا، وشرقا عند نهر سوس الذي سميت هذه الناحية باسمه "[3]، وهذا التحديد هو الذي أكدته الخرائط التي تضمنتها بعض الكتب، كالخرائط التي وضعها الأستاذ عمر أفا في تحقيقه لكتاب " **ديوان قبائل سوس في عهد**

1- أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، ص: 86.

2 - الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 2002، ج 1، ص: 221.

3 - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط 2، 1983، ج 1، ص: 113.

السلطان أحمد المنصور السعدي " لإبراهيم الحساني[1]، وتعريبه لكتاب " **أخبار سيدي إبراهيم الماسي عن تاريخ سوس خلال القرن 19م** "[2]، وكتابه " **النقود المغربية بسوس خلال القرن 19م** "[3]، وإن كان هناك بعض الاختلاف المرتبط بتمدد أو تقلص المجال الجغرافي لسوس؛ فذلك مرتبط ببعض الصراعات القبلية حول مصادر المياه أو المراعي، لكنه لا يؤثر على أصالة المجال وهويته التاريخية والحضارية.

انطلاقا من هذه الخرائط يخلص عمر أفا إلى تحديد منطقة سوس بقوله: " فالمنطقة تمتد من مساقط المياه المنحدرة على سفوح الأطلس الكبير نحو الجنوب، في خط يضم إلى سوس مجموعة من القبائل الأطلسية..........، ومن جبل سيروا إلى سكتانة وتيسينت، محاديا لمجرى وادي درعة، منتهيا إلى قبائل تاكنة عند مصب هذا الوادي "[4].

ويعزز ذلك قول المختار السوسي: " نعني بسوس في كل أعمالنا التاريخية .... ما يقع في سفوح درن الجنوبية إلى حدود الصحراء من وادي نول وقبائله من تكنة والركائبات وما إليهما إلى حدود طاطة وسكتانة"[5].

هذا الموقع الجغرافي يجعل منطقة سوس تنفتح على ثلاث جهات، بواسطة جسور تمتد إلى إفريقيا عبر الصحراء جنوبا، وإلى بلدان المغرب الشمالية عبر ممرات جبلية، كما تمتد نحو أوروبا عبر موانئ ماسة وأكادير والصويرة[6].

II- بعض المعطيات الطبيعية المميزة للمجال السوسي:

-الوديان والأنهار بسوس:

تحدثت المصادر التاريخية عن وجود شبكة مائية مهمة بمنطقة سوس، تضم الأنهار والوديان والبحيرات، وقد أحصى إبراهيم الماسي مختلف الأنهار الموجودة بالمنطقة وعرفها

1 - إبراهيم بن علي الحساني، **ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي**، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة -الدار البيضاء، 1989، ص: 36 -37.

2 - إبراهيم الماسي، **أخبارسيدي إبراهيم الماسي عن تاريخ سوس في القرن التاسع عشر**، ترجمة من الأمازيغية إلى العربية عمر أفا، نشر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - الرباط، ط 1، 2004، ص: 99.

3 - عمر أفا، **النقود المغربية في القرن 19 أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ط 1، 1993، ص: 34 -35.

4 - نفسه، ص: 32.

5 - المختار السوسي، **سوس العالمة**، ص: 16، هامش 1.

6 - عمر أفا، **النقود المغربية**، ص: 32.

بقوله: " سأعرفك هنا بأسماء الأنهار كلها من بلدة واد نون إلى مدينة الصويرة، الأول منها يوجد في بلدة واد نون يسمونه وادي درعة، والثاني نهر تازروالت، والثالث نهر ولغاس والرابع نهر سوس والخامس نهر تامراغت، والسادس نهر أوركا، والسابع نهر آيت أمر، والثامن نهر إيكوزولين، والتاسع نهر اوكرض، وهذا النهر هو الذي بنيت على مصبه مدينة الصويرة، هذه أسماء الأنهار الموجودة ما بين الصويرة وبلاد الصحراء[1].

كما أكد العربي المشرفي على أهمية واد سوس ومنفعته لأهل المنطقة، فقال: " وهذا القطر له واد عظيم السيل والمجرى، يدعونه بوادي سوس، فهو لأهله أنفع من نيل مصر، وفرات بغداد ودجلة، إذ منفعة الثلاثة عند أهلها الحرث على الفيضة فقط، ومنفعة هذا الوادي الحرث، وأشجار الزيوت والفواكه "[2].

وتوجد أيضا عدة بحيرات موزعة بين جهات المنطقة كما وصف ذلك الماسي بقوله: " أما المعادير[3] فهي الأماكن التي يقف فيها الماء على الدوام ولا يجري فيها كما هو الشأن في الأنهار، ففي منطقة واد نون يوجد معدران: أحدهما يوجد في وسط بلاد الركيبات والثاني في وسط بلاد ايزركين، أما المعادير الأخرى، فيوجد أحدها وسط أزاغار بإداولتيت، والثاني في منطقة الخنابيب، والثالث في وسط إداو كيلال، والرابع في بلدة توكا. هذه هي المعادير التي أعرفها في سوس كلها، والسلام "[4].

-الغطاء النباتي:

وصف المشرفي الغطاء النباتي بسوس بقوله: " فهو إقليم متسع المساحة، رحب الجوانب والساحة طولا وعرضا، وأرضه مشعة بنبات الأشجار، تلالها وجبالها، شعابها وأوديتها، سهلها وحزنها، كراها ورباها؛ ومن كثرة الأشجار طرقه ضيقة المسالك، يكنفها الحجر والشجر، فلا تمشي في طرقه إلا بهيمة بعد أخرى، وسواء في المنبسط والمنخفض من الأرض،

---

1 - إبراهيم الماسي، نفس المرجع، ص: 91.

2 - العربي المشرفي، **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار**، تقديم وتحقيق مولاي الزهيد علوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ط 1، 2020، ص: 454.

3 - هي البحيرة باللغة العربية، وتختلف أسماءها حسب مناطق المغرب، فتسمى في سوس " **المعدر** " أو " **أكلميم** " أو " **أدمام** "، وفي منطقة حاحة تسمى " **إيفرض** " أو " **تينسخت** "، وفي الأطلس الكبير" **تامدا** " وفي الأطلس المتوسط " **أكلمام** "، وفي باقي الجهات تسمى " **الضاية** " أو " **المرجة** " أو " **الولجة** " إذا كانت قلية الماء. أنظر: إبراهيم الماسي، نفس المرجع، ص: 93، هامش: 99.

4 - إبراهيم الماسي، نفس المرجع، ص: 93.

وإذا خرج الراكب عن الطريق؛ فلا يدري أين يذهب، ولا يجد سبيلا، لا عن يمينه ولا عن شماله من غير الطريق التي يسلك معها، من تضافر نبت الشجر، وتشابك الشجر"[1]، وبنوع من المبالغة يضيف: " فتمشي في ظل أشجاره مسيرة أيام في عُرْوَتَيْهِ، بحيث لا تر شمسا وقت المصيف في سائر النهار، ومن تضافر أشجاره في بعضها بعضا، كأنك ماشيا في ظل شجرة واحدة من أعلى الوادي إلى أسفله "[2].

ثانيا: الأهمية الاقتصادية لسوس:

I – الإنتاج الفلاحي:

عرفت منطقة سوس بوفرة خيراتها وغناها المفرط، ولا أدل على ذلك مما وصفها به الرحالة العرب. فابن حوقل وصفها بقوله: " ليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيرا منها "[3]، ويعدد خيراتها المتمثلة في الجوز واللوز والنخل والقنب والسمسم، ونفس الشيء يؤكده إبراهيم الماسي بقوله: " وفي بلدة ماسة يوجد كل ما يذكر الناس من الأشجار، حيث يوجد بها العنب والتين، والتين الشوكي والتمر والبرتقال والليمون الحامض والتفاح والمشمش والبرقوق والدلاح والبطيخ والخيار، وكذا زيت الزيتون، وزيت أركان "[4]، " واللوز والجوز والرمان......، وجميع الأشجار المعروفة "[5].

ويقول الادريسي في نزهة المشتاق: " وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب العذارى والسفرجل والرمان الأمليسي والأترج الكبير المقدار الكثير العدد وكذلك المشمش والتفاح المهند "[6].

نفس المشهد تقريبا يعيد رسمه العربي المشرفي عند رحلته لسوس خلال القرن التاسع عشر: " وكل قرية من قرى هذا القطر السوسي طولا وعرضا، لها بساتين مختلفة الأصناف، بشجر الزيت، وكرم العنب، وشجر التين، والإجاص، والتفاح، والبرقوق بأنواعه، وحتى شجر الخلاف، وأقوى شجره المعتمد عليه في سائر الفصول، شجر الزيتون، وكثرة غرسهم له دون

1 - العربي المشرفي، **نزهة الأبصار**، ص: 453.

2 - نفسه، ص: 454.

3 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1996، ص: 90.

4 - إبراهيم الماسي، نفس المرجع، ص: 35.

5 - نفسه ص: 49.

6 - الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج 1، ص 226.

ما عداه، وقد امتد شجر الزيتون بامتداد القطر، فَقَلَّ أن تجد ماء جاريا إلا وعليه غرس الزيتون "[1].

- التفرد بشجر الأركان:

أكد المشرفي على تفرد منطقة سوس على غيرها من مناطق الأرض بشجر الأركان، وفي ذلك يقول: " وهذا الشجر المعروف بأركان، لا يوجد والله أعلم في الأقاليم الستة، وقد جلنا في البلدان، وما وجدناه إلا بسوس، وما ذكره لنا أحد من الجائلين في الأقطار؛ ويحكى لنا أن المغاربة يذكرونه لأهل الهند والسند، والصين واليمن، ولأهل الشام والعراق عند تلاقيهم بهم، ولم يجدو من يعرفه بهذا الاسم - والله أعلم - [.......] وقد ذكره قطب القطر السوسي **سيدي أحمد وموسى** - نفعنا الله ببركاته - هنالك في المشرق، وامتحنه بعضهم بإحضاره، فأخذ فرعا من شجرته، وأراهم إياه وهم جلوس، فكانت له كرامة، ولو كان موجودا في الأقاليم المذكورة لذكروه في أصناف الزيوت، فهو مخصوص - والله أعلم - بهذا القطر السوسي وببلاد حاحة "[2].

وفي وصف شجر الأركان يقول المشرفي: " له ثمر في حجم ثمرة الزيتون، إلا أنه لا يسود في زهره كالزيتون، بل يصفر في زهره اصفرار البلح، ويستخرج من لب نواته زيت بعد طحنها، يستعمله الغني والفقير، ولا فارق في اللون بين زيته وزيت الزيتون، وربما كان مذاق هذا أطيب من مذاق الأخر، يُؤْتَدم به كثيرا حتى في حاضرة مراكشة، وسعره وسعر الزيت المستخرج من الشجرة المباركة واحد، إلا أنه فشا على ألسنة الناس أن هذا الزيت يحرك لأكله عرق الجذام. وشجره هائل الخلقة، يستظل الركب تحت ظل الشجرة الواحدة، وربما كان لها عشرون أصلا، وقلَّ أن تجد الشجرة فارقت الأرض بقامة إلا وتفرعت فروعها بعد ذلك، بل غالب شجره مفارقته للأرض بشبر أو ذراع ويتفرع، وفروعه إن فارقت الأرض، تشتبك في جو السماء، ويكتنف قضبانها ورق رقيق أدق من ورق الأس، وهذا أدق وأطول، ولا يقدر الإنسان أن يصعد فوق شجرة لقطع غصن منها مثلا، أو يجني ثمرة منها لأنها تفرع بالشوك الحاد، وشوكه أعظم من شوك القتاد لسعا"[3].

---

1 - المشرفي، **نزهة الأبصار**، ص: 455.

2- نفسه، ص: 453 - 454.

3 - نفسه، ص: 454.

ويزيد صاحب كتاب الاستبصار في وصف شجرة الأركان وزيتها وكيفية استخراجه فيقول: " ويعمل بهذه المدينة زيت الهرجان وشجره يشبه الكمثرى، إلا أنه لا يعلو كعلو شجرة الكمثرى ولا يفوت اليد، وأغصانه نابتة من أصله لا ساق لشجرته ولها شوك، وثمرته تشبه الأجاس المعروف عندنا بالعبقر، فيجمع ويترك حتى يذبل ثم يوضع في مقلاة فخار على النار فيستخرج دهنه، وطعمه يشبه طعم القمح المقلو، وهو جيد محمود الغذاء يسخن الكلي ويدر البول"[1].

أما البكري فزاد بقوله: " وبأرض اغمات والسوس شجر الهلجان، لا يكون إلا هناك يستخرج من حبه زيت طيب كثير النفع، وذلك أنهم يجنون ثمره فتعلفه الماشية ثم يعمدون إلى عجمه[2] فيطحن ويطبخ ويستخرج منه دهن، فيكادون يستغنون به عن جميع الزيوت لكثرته عندهم "[3].

-إنتاج السكر:

اختصت منطقة سوس بإنتاج السكر وتجارته، وقد أكدت جل المصادر على ذلك، فالإدريسي يقول: " وقصب السكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء، ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب إليها ما يعم أكثر الأرض، وهو يساوي السكر السليماني والطبرزد، بل يشف على جميع أنواع السكر في الطيب والصفاء "[4]. وقال عن ذلك صاحب الاستبصار: " وهي أكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة، وهذا البلد أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات، ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقية وهو المشهور بالطبرزد "[5]. أما الوزان فقال: " وينبت فيها أيضا قصب السكر بكثرة...... ويَقْصِد تيوت عدد كثير من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر "[6]. كما يضيف البكري: " وهي مدينة على نهر كبير كثير الثمر وقصب السكر ومنها يحمل السكر

1 - مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، 1986، ص: 212.

2 - يقصد عظمه أو النواة التي تكون بداخله، فالماشية تأكل القشور وتترك النواة حيث لا تستسيغ أكلها.

3 - أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، ص: 163.

4 - الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص 226.

5 - مجهول، **الاستبصار**، ص: 212.

6 - الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص: 115.

إلى جميع بلاد المغرب "[1]، ثم يضيف: " وقصب السكر أكثر شيء بها يحمل الرجل بربع درهم منه ما يوده ثقله ويعمل بها السكر كثيرا وقنطار سكرها يبتاع بمثقالين "[2]

أهمية منتوج السكر بالمنطقة لا ترتبط فقط بوفرته كما تدل النصوص السابقة على ذلك، بل ترتبط أكثر بقيمة العائدات المالية التي تدرها تجارة هذه المادة على خزينة الدولة، ولعل ذلك هو الذي جعل سلاطين الدولة السعدية يهتمون بنشر زراعة قصب السكر بجنوب المغرب، ويعملون على تطوير صناعته، بإدخال وسائل تصفيته وتبييضه إلى سوس[3].

II – المعادن بسوس:

ارتكزت الحرف والصنائع بسوس بشكل أساسي على الغنى المعدني الذي تميزت به المنطقة، فالمعادن كان لها صيت شائع في المصادر القديمة، حيث تحدث عنها البكري والإدريسي وابن حوقل والوزان، وحتى الأجانب مثل مارمول وجاكسون ودوفوكو، فمن خلال كتابات كل هؤلاء وغيرهم نستنتج أن المنطقة كانت خزانا للثروات المعدنية. وهذا من بين الأسباب الرئيسية التي كانت تغذي التنافس والصراع بين الدول والحركات السياسية الهادفة إلى السيطرة على المنطقة.

-معدن النحاس: . . . .

تؤكد الكثير من الدراسات أن مناجم النحاس بالمغرب تتركز بمنطقة سوس والأطلس الصغير[4]، كما أن السوسيين اشتهروا بمهارتهم في استخراج النحاس وتصفيته واستعمالهم للأواني النحاسية، كما أن طوبونيمية الكثير من المواقع ارتبطت بمناجم النحاس مثل " ادرار وَّانَاس = جبل النحاس " و" إفران وَّانَاس = غيران النحاس "[5].

ومن أهم مناجم النحاس هناك نذكر: منجم تازالاغت الذي يقع على بعد أربعين كيلومتر من مركز تاقراوت، بين قبيلة ايلالة وقبيلة ايت عبد الله، ويعتبر أهم المناجم القديمة بالمغرب، إلا أن المعلومات التاريخية عنه تعتبر قليلة[6]. وكذلك منجم أكَجكَال الذي يقع على

---

1 - البكري، **المغرب**، ص: 161.

2 - نفسه، ص: 162.

3 - المختار السوسي، **ايليغ قديما وحديثا**، المطبعة الملكية - الرباط، 1966، ص: 210 – 211.

4 - يذهب إلى ذلك مثلا المؤرخ الفرنسي برنار روزانبيرجي ومحمد سميح عافية وغيرهم، أنظر: عمر افا، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر**، دار الأمان - الرباط، 2006، ص: 264.

5 - نفسه، ص: 264.

6 - نفسه، ص: 266.

مسافة 12 كلم من قرية دُوگَادير بين قبيلتي آيت وافقا وأمانوز[1]، وقد وصف المختار السوسي هذا المنجم بأنه منجم متوارث، ويوجد: " في كدية إزاء قرية أكَجكال: معدن النحاس متوارثا. فيها غيران تمتد تحت الأرض بطول الأزمنة، كان أهل هذه القرية يعملون فيها هم أو من أذنوا لهم؛ فقد كان المعدنيون يستخرجون منذ أجيال النحاس "[2]، وتحدث الفقيه المنوزي وهو ابن هذه المنطقة عن وجود مناجم أخرى غير بعيدة من منجم أكجكال، وقريبة من زاوية تمكدشت، يقول: " لما أقمت في تامساوت في ايت منصور ثلاثة أيام للضيافة متجولا في أنحائها وأطراف جبالها، وقد رأيت خلال هناك من مغارات أنواع المعادن كثيرا تقدم فيها العمل للأقدمين من أهل القرن العاشر إلى الرابع عشر، ثم صارت مهجورة شأن المعادن بالمغرب الأقصى لغلبة الاشتغال بالتجارة "[3].

- الفضة:.

لا يحظى معدن الفضة بنفس الأهمية التي لمعدن النحاس، وذلك لقلة ومحدودية مناجمه بسوس[4]، ومن أهم مناجم الفضة بسوس، نذكر مناجم تامدولت التي تحدث عنها البكري في القرن الحادي عشر فوصفها بأنها تتوفر على " معدن غزير كثير المادة "[5]، ورغم أن البكري لم يذكر في حديثه نوع المعدن إلا أن الأستاذ عمر افا يؤكد اعتمادا على عدة قرائن أن المقصود في كلام البكري هو معدن الفضة[6]. وقد جاء في حديث الحسن الوزان عن قبائل ايلالة: " يتحاربون فيما بينهم باستمرار من أجل منجم فضة يوجد بالجبل، ويستغله المنتصرون "[7]. أما عن منجم زجندر فيذكر عبد الواحد المراكشي: " أن بسوس مدينة صغيرة تدعى زجندر هي على معدن الفضة، يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن "[8]. وفي رسالة أوردها المختار السوسي للعلامة المرغتي تتضمن أحداثا حول هذا المنجم في العهد

---

1 - نفسه، ص: 267.

2 - المختار السوسي، **المعسول**، مطبعة النجاح - البيضاء، 1961، ج 1، ص: 41.

3 - نفسه، ج 3، ص: 352.

4 - عمر أفا، **التجارة المغربية**، ص: 269.

5 - البكري، **المغرب**، ص: 63.

6 - عمر أفا، **التجارة المغربية**، ص: 270.

7 - الوزان، **وصف افريقيا**، ج 1، ص: 121.

8 - عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مطبعة الاستقامة -القاهرة، الطبعة الأولى، 1949، ص: 361.

المريني: " فيه جماعة يقاتلون ويقتلون هناك موضع يقول له الروم وكندر، وفيه كثير من المعادن والأموال ما لا يحصى إلى قيام الساعة "[1].

- الذهب:.

باستثناء نصوص قليلة فباقي المصادر لا تتحدث بوضوح عن ذهب سوس، بل تتضمن بعض الإشارات التي يمكن أن يفهم منها بشكل غير صريح وجود الذهب بالمنطقة، وحتى حديثها عن أهمية الذهب هناك يأتي في إطار الحديث عن موقعها الجغرافي الذي يجعلها تنفتح بكل سهولة على ذهب السودان أو أودغست، وأبرز النصوص هي التي تحدث فيها اليعقوبي عن تامدلت، حيث قال: " وحولها معادن ذهب وفضة، يوجد كالنبات، ويقال: إن الرياح تسفيه "[2]، ويفهم من هذا الكلام وجود الذهب بوفرة وسهولة الوصول إليه، كما أشار الوزان عند حديثه عن تيوت إلى أن: " السكة الوحيدة المتعامل بها هنالك هي التبر"[3]، وهذا فيه إشارة على أهمية معدن الذهب بالمنطقة.

إذا استثنينا هذين النصين فأغلب النصوص تربط ذهب سوس بمناجم السودان، ويزيد من تعزيز هذا المعطى الحملة التي قام بها أحمد المنصور السعدي على السودان، فمن أهم الأسباب المفسرة لهذه الحملة هي السيطرة على مناجم الذهب هناك، وفي نهاية القرن السادس عشر أكد سفير بريطانيا توماس سوميرفيل انعدام الذهب بسوس، حينما أعلن لدولته أنه: " لا يوجد ذهب في سوس كما كان الناس يعتقدون ذلك من قديم، فذهب سوس يأتي من السودان بواسطة القوافل "[4].

III – المجال التجاري:

لا شك أن ما تمت الإشارة إليه سابقا من غنى في المنتوجات الفلاحية والمعادن، إضافة إلى منتوجات الحرف والصنائع، ستكون نتيجته الطبيعية خلق رواج تجاري بمنطقة سوس، فالمنطقة عرفت بكثرة الأسواق الأسبوعية والمواسم السنوية الموزعة جغرافيا في كل أرجاء سوس، تسعى إلى تحقيق التوازن في تبادل المنتجات داخل المنطقة، زيادة على إشعاعها نحو الشمال والجنوب، باعتبار أن سوس تعد منطقة اتصال تجاري لا تنقطع عنها القوافل منذ

---

1 - المختار السوسي، **المعسول**، ج 10، ص: 177.

2 - أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان**، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 2002، ص: 198.

3 - الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص: 115.

4 - عمر افا، **التجارة المغربية**، ص: 276.

القديم[1].

وبالاعتماد على الوثائق المحلية تمكن الأستاذ عمر افا من حصر لائحة لأهم الأسواق والمواسم بسوس خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين، حيث ضمت حوالي 57 سوقا و29 موسما[2]. وترداد هذه الأسواق والمواسم عامة الناس، لتسويق بعض منتوجاتها الفلاحية والرعوية، وابتياع المواد التي يجلبها تجار المناطق الأخرى من المغرب والبضائع الأوروبية المستوردة. ويكفي هنا أن نورد حديث البكري عن سوق أغمات الذي قال فيه: " فسوق أغمات وريكة يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة، وينفد في ذلك اليوم جميع ذلك "[3]، وهذا دليل على حجم الرواج التجاري الذي كان يعرفها هذا السوق الأسبوعي.

وقد قامت مدن ومراكز سوس التجارية خلال العصر الحديث بدور رئيسي في العلاقات التجارية التي نمت بين المغرب وبلاد السودان، خصوصا بعد التحولات الكبرى التي عرفتها التجارة العالمية خلال هذا العصر، بانتقال ثقل التجارة العالمية من البحر الأبيض المتوسط نحو المحيط الأطلسي، حيث شكلت هذه المراكز، نقط انطلاق أو وصول القوافل المتجهة أو الوافدة من إفريقيا جنوب الصحراء، مما جعلها تمثل بحق " القلب النابض لنظام تجارة القوافل "[4].

ثالثا: الدور التاريخي والسياسي لمنطقة سوس:

شكل الجنوب المغربي على مر العصور التاريخية مجالا حساسا وحاسما في التطورات التاريخية التي عرفتها الدولة المغربية، ومنطقة سوس باعتبارها جزءا من هذا المجال لم تخرج عن هذه الخاصية، لكن الإشكال الذي يطرح بهذا الخصوص هو اختلاف الآراء حول مصدر الأهمية التاريخية التي حظيت بها المنطقة، حيث نجد اختلافا كبيرا بين الكثير من الباحثين حول الدور الذي قامت به المنطقة، هل تمثل أساسا في الجانب السياسي؟ أم في

---

1 - نفسه، ص: 286.

2 - نفسه، ص: 287 – 292.

3 - البكري، **المغرب**، ص: 153.

4 - الحسين عماري، " سوس حلقة تواصل تجاري وثقافي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث "، **الأمازيغ والمجال الصحراوي عبر التاريخ**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - الرباط، 2015، [163 - 193]، ص: 171.

الجانب الاقتصادي؟ وهذا طبعا هو نتيجة لجدلية العلاقة بين السياسي والاقتصادي في قيام الدول والإمارات عند المؤرخين.

يعتبر الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش سوس منطقة تاريخية ساخنة منذ العصر الوسيط[1]، فأهميتها ظهرت منذ الفتح الإسلامي للمغرب، حيث شكل الاهتمام بسوس حيزا هاما من البرنامج السياسي لدولة الخلافة، وتمخضت عن العلاقات التي ربطت سوس بدولة الخلافة منذ عصر الولاة نتائج بعيدة الغور إلى درجة أنها أثرت في مصير المنطقة، وأرست المعالم الأساسية لصيرورتها التاريخية، وحددت بالتالي آفاق مستقبلها السياسي والاقتصادي[2]. فسوس شكلت منذ عصر الولاة القاعدة التي انطلقت منها الحملات العسكرية نحو السودان الغربي، ومن ثم كانت المدخل الطبيعي لامتداد الإسلام وتسرب الثقافة العربية نحو افريقيا جنوب الصحراء، ويؤكد ذلك الناصري في **الاستقصا** بقوله: " ثم بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا أرض المغرب، فانتهى إلى السوس الأقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم إلى تخوم السودان "[3].

وبالأهمية نفسها أصبحت المنطقة تتمحور حولها وحدة شمال المغرب وجنوبه، كذا شرقه وغربه في فترة لاحقة[4]. وهذا ما ذهب بالأستاذ بوتشيش إلى حد القول بأن منطقة سوس تهيأت في عصر الولاة لكي تكون الخيط الموجه لعلاقات الشرق الإسلامي مع الغرب المسيحي، ورسم سياسة متوسطية لها طابعها الخاص[5].

وتعتبر منطقة سوس أيضا مهدا لأكبر وأعظم الدول التي حكمت المغرب خلال العصر الوسيط، حيث ساهمت في تأسيس الدولة المرابطية بالدور الذي قام به رباط أكلو بتمنارت في هذا التأسيس، فكل المصادر تجمع على أن الفقيه السوسي الجزولي عبد الله بن ياسين انطلق من هذه المدرسة وأسس رباطا له في الصحراء، جمع فيه أتباعه ومناصري دعوته من

1 - إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة - بيروت، ط 1، 1994، ص: 37.

2 - نفسه، ص: 39.

3 - أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب - البيضاء، 1997، ج 1، ص: 162.

4 - نفسه، ص: 51-52.

5 - نفسه، ص: 53.

قبائل صنهاجة الملثمين الذين أسس بسواعدهم الدولة المرابطية[1].

ومن سوس انطلقت دعوة الموحدين أتباع المهدي بن تومرت، وقد قال ابن خلدون عن ذلك في تاريخه: " كان للمصامدة في صدر الإسلام بجبال درن عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم، وكان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته. فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهاجة بإفريقية "[2]، وعندما نتحدث عن قبيلة مصمودة فأغلب بطونها ارتبطت عند أغلب المؤرخين بمنطقة سوس[3]، كما أن المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية تصفه المصادر التاريخية بكونه ينحدر من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة التي كانت تستوطن بلاد جزولة، وبالضبط من قرية تفكيت الواقعة بالجنوب الشرقي من تارودانت، قال ابن خلدون: " وأصل المهدي من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت "[4].

وحتى الثورة على الموحدين كانت من سوس، حيث خرج محمد بن هود بن عبد الله السلاوي المعروف بالماسي على عبد المومن، واتخذ لنفسه رباطا بمنطقة ماسة، وجمع الأتباع، وانتشرت دعوته بسجلماسة ودرعة ودكالة ورجراجة وتامسنا وهوراة[5]، وأكد ذلك صاحب القرطاس بقوله: " بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المومن إلا مراكش، فسرح إليه عبد المومن عسكرا من الموحدين......"[6].

أما إذا انتقلنا إلى فترات التاريخ الحديث فنجد منطقة سوس قد قامت مرة أخرى بدور سياسي كبير في تاريخ الدولة المغربية، حيث شكلت مهدا للدولة السعدية، واستمرت

---

1 - عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية - بيروت، 2009، ج 6، ص: 196. المختار السوسي، سوس العالمة، ص: 16 - 17. الناصري، الاستقصا، ج 2، ص: 9.

2 - عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر**، ج 6، ص: 239.

3 - الحسين أسكان، **الدولة والمجتمع في العصر الموحدي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية – الرباط، ط 1، 2010، ص: 13.

4 - عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر**، ج 6، ص: 240.

5 - الناصري، **الاستقصا**، ج 2، ص: 110.

6 - علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، 1972،

تقوم بنفس الدور السياسي الذي كان لها خلال العصر الوسيط، وعن قيام الدولة السعدية يقول محمد المشرفي في كتاب **الحلل البهية**: " وكان قيامه سنة خمس عشرة وتسعمائة بسبب تكالب العدو وإحاطته بأرض سوس. وبقي المسلمون في ضيق وقلة ناصر لذلك، لأن بني وطاس فشلت رياح ملكهم في بلاد السوس، وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب مع ما كانوا فيه أيضا من قتال الكفار بثغر أصيلا وحجر بادس وغيرهما. فطلب أهل سوس من الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك بأن يقوم بأمرهم، وشكوا إليه حالهم مع الكفار، فدلهم على **أبي عبد الله محمد القائم** فبايعوه سنة ست عشرة وتسعمائة بقرية تدس قرب تارودانت، ففتح الله على يده وأجلى الكفرة من أرض السوس "[1]. وعن دور فقهاء سوس في إرساء دعائم الدولة السعدية يقول المختار السوسي: " كان الفقهاء السوسيون الجزوليون أول من أقام عماد الدولة السعدية حوالي سنة 918 هـ، فنجحوا في عملهم نجاحا باهرا، ثم جنوا من وراء ذلك ثمرة يانعة، فمدت عليهم الدولة السعدية ظلا وريفا، واتخذت منهم لحاشيتها كتابا وشعراء وقوادا وسفراء، ورؤساء للشرطة"[2].

وأثناء فترة اشتداد التنافس الاستعماري حول المغرب شكلت منطقة سوس بؤرة لتوتر العلاقات بين ألمانيا وفرنسا، فلما أرادت ألمانيا أن تعاكس فرنسا في أطماعها الاستعمارية بالمغرب فقد جاءتها من منطقة سوس، حيث أرسلت بارجتين حربيتين إلى ميناء أكادير، لإشعار الفرنسيين بأن مصالحهم بالمغرب صارت مهددة، إذا لم يصلو مع الألمان إلى تسوية بخصوص تقاسم المصالح الاستعمارية المتنافس حولها بإفريقيا.

كما أن دخول المستعمر الفرنسي إلى منطقة سوس لم يكن بالأمر السهل، حيث وجدت الجيوش الفرنسية مقاومة شرسة من طرف قبائل سوس، وكانت **معركة سيدي بوعثمان** أول معركة يخوضها أهل سوس خاصة وأهل الجنوب بصفة عامة ضد الفرنسيين، وكان أهل سوس قد التفوا حول الشيخ أحمد الهيبة ابن الشيخ ماء العينين، وبايعوه على الجهاد ضد المحتل الفرنسي، لما سمعوا أن مولاي عبد الحفيظ وقع معاهدة الحماية مع الفرنسيين، وهم الذين كانوا قد سبقوا إلى مبايعته لما علموا أن الفرنسيين احتلوا وجدة والشاوية، راجين

---

1 - محمد المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، تحقيق ادريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشوؤن الإسلامية – المغرب، ط 1، 2005، ج 1، ص: 261.

2 - المختار السوسي، **ايليغ قديما وحديثا**، ص: 29.

أن يكون طرد هؤلاء الدخلاء على يديه[1].

خلاصة القول فالحديث عن أهم محطات التاريخ السياسي للمغرب منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم، لا يمكن أن يتم دون استحضار منطقة سوس، باعتبار الدور الأساسي الذي قامت به في الصيرورة التاريخية للبلاد، إن على مستوى الاستقرار السياسي وتأمين وحدة البلاد، أو على مستوى ربط العلاقات والتواصل مع القوى الخارجية.

رابعا: الدور العلمي والإشعاع الثقافي لسوس:

في كتابه " **سوس العالمة** " قدم المختار السوسي صورة عامة عن الحياة العلمية بسوس، مركزا على جميع الجوانب التي يمكن أن تبرز الشخصية العلمية لهذه المنطقة، فكل ما تفرق في كل أعمال المختار السوسي - التي ناهزت الخمسين جزءا - من إفادات تهم هذا الموضوع، قام بتلخيصها في كتاب سوس العالمة، الذي يعتبر نافدة فقط إلى تلك الكتب كما عبر السوسي نفسه[2]، حيث تضمن هذا الكتاب قاعدة بيانات عامة تبرز الهوية العلمية لسوس.

يتحدث المختار السوسي عن كون منطقة سوس، كانت دائما في مقدمة أطراف المغرب من حيث ترسيخ العلوم ووجود قادة الدين وعلمائه الذين قادوا المجتمع المغربي بعد تدينه بدين الإسلام، لكن النهضة العلمية بسوس لم تبدأ إلا مع القرن التاسع الهجري، فهذا القرن جاء " بفاتحة خير، وطلع بفجر منير، وسفر عن وجه يقطر بشاشة وبشرا،......، ففيه ابتدأت النهضة العلمية العجيبة التي رأينا أثارها في التدريس والتأليف، وكثرة تداول الفنون، وقد تشاركت سملالة وبعقيلة، ورسموكة، وآيت حامد وأقا، والجرسيفيون، والهشتوكيون، والوادنونيون، والطاطائيون، والسكتانيون، والراسلواديون، وغيرهم فيها"[3].

أما القرن العاشر فقد عرف حركة علمية وأدبية أوسع مما قبلها، حيث اتجه اهتمام العلماء نحو معالجة قضايا تهم الحياة الاجتماعية والسياسية، وبذلك استحوذوا على قيادة المجتمع، وساهموا في توطيد حكم الدولة السعدية[4]. ثم استمر الأمر كذلك خلال القرن

---

1 - عبد الله كيكر، **الاحتلال الفرنسي لسوس معارك ووقائع وأحداث**، مطابع الرباط نت - الرباط، الطبعة الثانية، 2015، ص: 40.

2 - المختار السوسي، **سوس العالمة**، ص: 153.

3 - نفسه، ص: 20.

4 - نفسه.

الحادي عشر بزبدة عالية من فطاحل العلماء؛ أما مجيء الدولة العلوية فقد شكل حسب تعبير السوسي "سعد السعود على السوسيين"، حيث تكاثرت المدارس، وزخرت بالطلبة، كما نشطت الحركة العلمية والثقافية بشكل لا مثيل له، وذلك بفضل اعتناء ملوك وأمراء الدولة العلوية بهذا الجانب، واحتضانهم للعلماء، حيث لقي علماء سوس حظا وافرا من ذلك[1].

I – العلوم التي اعتنى بها السوسيون.

تعاطى السوسيون لعلوم مختلفة بلغ عددها حسب المختار السوسي واحد وعشرين علما، نذكرها كالتالي: القراءات، التفسير، الحديث، السيرة، علوم الحديث، النحو، التصريف، اللغة، البيان، الأصول، علم الكلام، الفقه، الفرائض، الحساب، الهيأة، المنطق، العروض، الطب، الأسانيد، الجداول، والأدب[2].

يتضح أن المختار السوسي بالغ في تفريع هذه العلوم، حيث قسم علم الحديث إلى فرعين، وقسم علوم اللغة إلى أربعة فروع، وعزل الفرائض عن الفقه، في حين أغفل علوم أخرى برع فيها السوسيون، كعلم التاريخ والفهارس والتراجم والفلك، مع أنه اعتمد على الكثير منها في تأليفه المختلفة.

ففي علم الفهارس يعتبر كتاب " **الفوائد الجمة في إسناد علوم هذه الأمة** " للتمنرتي أول مؤلف من نوعه في سوس في هذا الفن، وقد أشار التمنرتي إلى ذلك في مقدمته عندما قال: " وهذا الفن لم أر له في بلادنا السوسية، مع تقادم الأجيال، وتوافر الرجال، ذاكر، ولا سنح لي من خَلَفِهِم من رسم في سلف أفاضيلهم أولا ولا آخر "[3].

أما التراجم والتاريخ فلم تكن غريبة عن العلماء السوسيين، فالكتب التي ألفت فيها كثيرة، تعددت واختلفت أشكالها، وشكلت أعمالا فكرية متكاملة، مثل " **طبقات الحضيكي** "، و" **مناقب البعقيلي** "، و" **وفيات الرسموكي** "، و" **روضة الاكراري** "، ولا أدل على أهميتها كونها من المصادر الأساسية التي اعتمدها المختار السوسي في كتاباته، حيث أورد مضامين

---

1 - نفسه، ص: 22 - 30.

2 - نفسه، ص: 31.

3 - عبد الرحمان التمنرتي، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 2، 2007، ص: 67.

بعضها كاملا ومقتطفات من بعضها الآخر[1].

II – الأسر العلمية بسوس:

أحصى المختار السوسي حوالي 160 أسرة تسلسل العلم فيها بسوس، وأعطى صفة العالمية لكل أسرة توالى فيها العلم لثلاثة أجيال أو جيلين على الأقل، أو كثر فيه العلماء فتجاوزوا الأربعة[2]. وأهم الأسر العلمية بسوس تفرقت بين أهم القبائل، كأملن التي ضمت 15 أسرة علمية، وسملالة التي ضمت 14 أسرة، وبعقيلة التي ضمت 13 أسرة، وهشتوكة التي ضمت 12 أسرة، ورسموكة التي ضمت 10 أسر، وأقلها قبيلة جطيوة واداوزال وسموكن وغيرها التي ضمت أسرة أو أسرتين[3].

وقد بين المختار السوسي في موسوعة "**المعسول**" أخبار جل تلك الأسر، وسمى رجالاتها وحرر تراجمهم، زيادة على ما جاء به في كتاب "**رجالات العلم العربي بسوس**" وكتاب "**خلال جزولة** " وكتاب "**من أفواه الرجال**".

III – المدارس والخزائن السوسية:

أفرد المختار السوسي كتابا خاصا للمدارس السوسية، ويعتبر أن مدرسة أكلو هي أول مدرسة عرفتها بوادي المغرب الإسلامي، وقد أسست هذه المدرسة نواحي تزنيت في أواخر القرن الخامس الهجري، ثم ازداد عدد المدارس بعد هذا التاريخ بقرى وحواضر سوس إلى أن بلغ حوالي المائتين، هذه المدارس تختلف عن الكتاتيب القرآنية التي لا تخلو منها كل قرية وإن صغرت، وهي مدارس شعبية يقوم بها أفراد القبائل بجهودهم الخاصة، دون أن تلقى إعانات من الدولة[4]، كما تعتمد نظاما داخليا بشكل مطلق، حيث يستقر الطلبة بها وينقطعون كليا عن عائلاتهم حتى لو كانوا من أبناء القرية التي توجد بها. أما إدارة المدرسة ومراعاة شؤون الطلبة فتعتبر من اختصاص الأستاذ أو الشيخ، الذي يلقى احتراما كبيرا ويعتبر هو مفتي القبيلة وقاضيها[5]. أما تموين المدرسة وأجرة أستاذها، فيكون من ثلث أعشار المحصول الذي

1 - محمد بن أحمد الحضيكي، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة – البيضاء، 2006، ج 1، ص: 7.

2 - المختار السوسي، **سوس العالمة**، ص: 121.

3 - نفسه، ص: 236 -237.

4 - نفسه، ص: 154.

5 - نفسه، ص: 155.

يؤخذ من أصحابها، ويضع في خزائن المدرسة تحت إشراف وتدبير شيخها أو من يتم تعيينه أمينا لذلك[1].

ومن أهم المدارس السوسية التي ذكرها المختار السوسي مدرسة اكلو التي تعتبر أقدم مدرسة بالمنطقة، وهي التي مر بها الشيخ عبد الله بن ياسين زعيم المرابطين[2]، ثم المدرسة التمكدشتية التي تعد أكبر مدرسة يقصدها الطلبة من الجنوب، وهي أم المدارس البالغة نحو خمسين مدرسة متفرقة بالحوز المراكشي[3]، ثم المدرسة الإليغية التي تأسست عام 1297 ه، واشتهرت بالفنون العربية خصوصا الأدب الأندلسي[4].

أما الخزائن فقد شكلت محورا أخر لتجذر العلوم في قبائل سوس، وقد بلغت حسب المختار السوسي زهاء عشرين مكتبة، زيادة على المكتبات الخاصة التي كان يملكها كل فقيه في داره[5].

خلاصة:

يمكن أن نخلص إلى أن مصادفة بعض النصوص ومحاولة إحياءها أو إعادة قراءتها وتوظيفها، قد يزيد من صقل صورة منطقة سوس، والإسهام في مزيد من الوضوح بخصوص أبعادها التاريخية والحضارية، باعتبارها من أهم المناطق التي اقتضت الضرورة العناية بها في مجال البحث التاريخي، واعتبارا لكونها منطقة سجلت حضورها القوي في تاريخ المغرب بمختلف حقبه، وهذا ما جعل الكثير من المصادر التاريخية تعتني بتقديم معلومات هامة عنها تتنوع بين المعلومات الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

---

1 - نفسه، ص: 154.

2 - المختار السوسي، **رجالات العلم العربي بسوس**، مؤسسة التغليف - طنجة، ط 1، 1989، ص: 9.

3 - المختار السوسي، **سوس العالمة**، ص: 162.

4 - نفسه ص: 165.

5 - نفسه ص: 168.

لائحة المصادر والمراجع:

- إبراهيم بن علي الحساني، **ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي**، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة -الدار البيضاء، 1989.
- إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة - بيروت، ط 1، 1994.
- إبراهيم الماسي، **أخبار سيدي إبراهيم الماسي عن تاريخ سوس في القرن التاسع عشر**، ترجمه من الأمازيغية الى العربية عمر أفا، نشر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - الرباط، ط 1، 2004.
- ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1996.
- أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.
- أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان**، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 2002.
- أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب - البيضاء، 1997، ج 1.
- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط 2، 1983، ج 1.
- الحسين أسكان، **الدولة والمجتمع في العصر الموحدي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - الرباط، ط 1، 2010.
- الحسين عماري، "سوس حلقة تواصل تجاري وثقافي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث"، **الأمازيغ والمجال الصحراوي عبر التاريخ**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - الرباط، 2015، [163 - 193].
- الشريف الادريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 2002، ج1.
- عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية - بيروت، 2009، ج 6.
- عبد الرحمان التمنرتي، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 2، 2007.
- عبد الله كيكر، **الاحتلال الفرنسي لسوس معارك ووقائع وأحداث**، مطابع الرباط نت - الرباط، الطبعة الثانية، 2015.

- عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أحبار المغرب**، مطبعة الاستقامة - القاهرة، الطبعة الأولى، 1949
- العربي المشرفي، **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار**، تقديم وتحقيق مولاي الزهيد علوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ط 1، 2020.
- علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، 1972.
- عمر أفا، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر**، دار الأمان - الرباط، 2006.
- عمر أفا، **النقود المغربية في القرن 19 أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ط 1، 1993.
- مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، 1986.
- محمد بن أحمد الحضيكي، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة – البيضاء، 2006، ج 1.
- محمد المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، تحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ط 1، 2005، ج 1.
- المختار السوسي، **ايليغ قديما وحديثا**، المطبعة الملكية - الرباط، 1966.
- المختار السوسي، **رجالات العلم العربي بسوس**، مؤسسة التغليف - طنجة، ط 1، 1989.
- المختار السوسي، **سوس العالمة**، مطبعة فضالة - المحمدية، 1960.
- المختار السوسي، **المعسول**، مطبعة النجاح - البيضاء، 1961، ج 1 - 10.

المحور الثالث:
قراءات في تاريخ المغرب زمن الحماية

جوانب من السياسة الاستعمارية الفرنسية بمنطقة زيان من التمهيد إلى التطويع

د: إدريس أقبوش[1]

مقدمة:

تكتسي منطقة زيان أهمية بالغة ومكانة بارزة في تاريخ المغرب، نظرا لما تتميز به من موقع جيو استراتيجي ومقومات طبيعية واقتصادية هامة، ولقد حفز هذا الوضع الاستراتيجي الهام الذي يميز هذه المنطقة المخطط التوسعي الفرنسي، سرعان ما وجه بمقاومة عنيفة من قبل سكان المنطقة مكنتهم من احتلال مكانة بارزة على خريطة المقاومة الشعبية في المغرب، لأنها قضت مضاجع دهاقنة الاستعمار وأصبحت بالنسبة إليهم المنطقة الغامضة[2]، إذ أنه لم يتم إخضاع هذه المنطقة بصفة نهائية إلا في حدود 1930 م وهذا ما يؤكد الصعوبات الجمة التي واجهت المحتل في تحقيق ما كان يسميه ب "التهدئة" حيث أن فرنسا فقدت خيرة ضباطها في معركة الهري. ومن ثمة أدركت فرنسا أن تهدئة المغرب والتحكم فيه لا يمكن أن تتم إلا بالقضاء على المقاومات وخاصة الأطلسية التي شكلت مصدر قلق للسلطة الاستعمارية وعرقلة لمخططاتها، ومن أجل تحقيق ذلك لجأت إلى تطبيق مشاريع استعمارية ترمي إلى المحاصرة والعزل من أجل الاستسلام.

وجهت هذا البحث عدة أسئلة، ومنها: ماهي الخصوصيات الجغرافية والتاريخية لمنطقة زيان؟ وماهي المشاريع الاستعمارية بالمنطقة؟ وما مدى مساهمتها في تطويع الساكنة الزيانية؟ انطلاقا من هذه الأسئلة، قسمنا الموضوع إلى محورين أساسيين، يتعلق المحور الأول بالظروف الطبيعية والبشرية، بينما أفردنا المحور الثاني للمشاريع الاستعمارية.

---

1 . باحث في التاريخ المعاصر، أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي بثانوية سيدي المخفي التأهيلية- إفران.

2- محمد بنجلون، "محطات من أمجاد الأطلس المتوسط وفي جهاد قبائل خنيفرة ومقاومتها للاحتلال"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907 - 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص، 46.

أولا: المعطيات الطبيعية

1- الموقع:

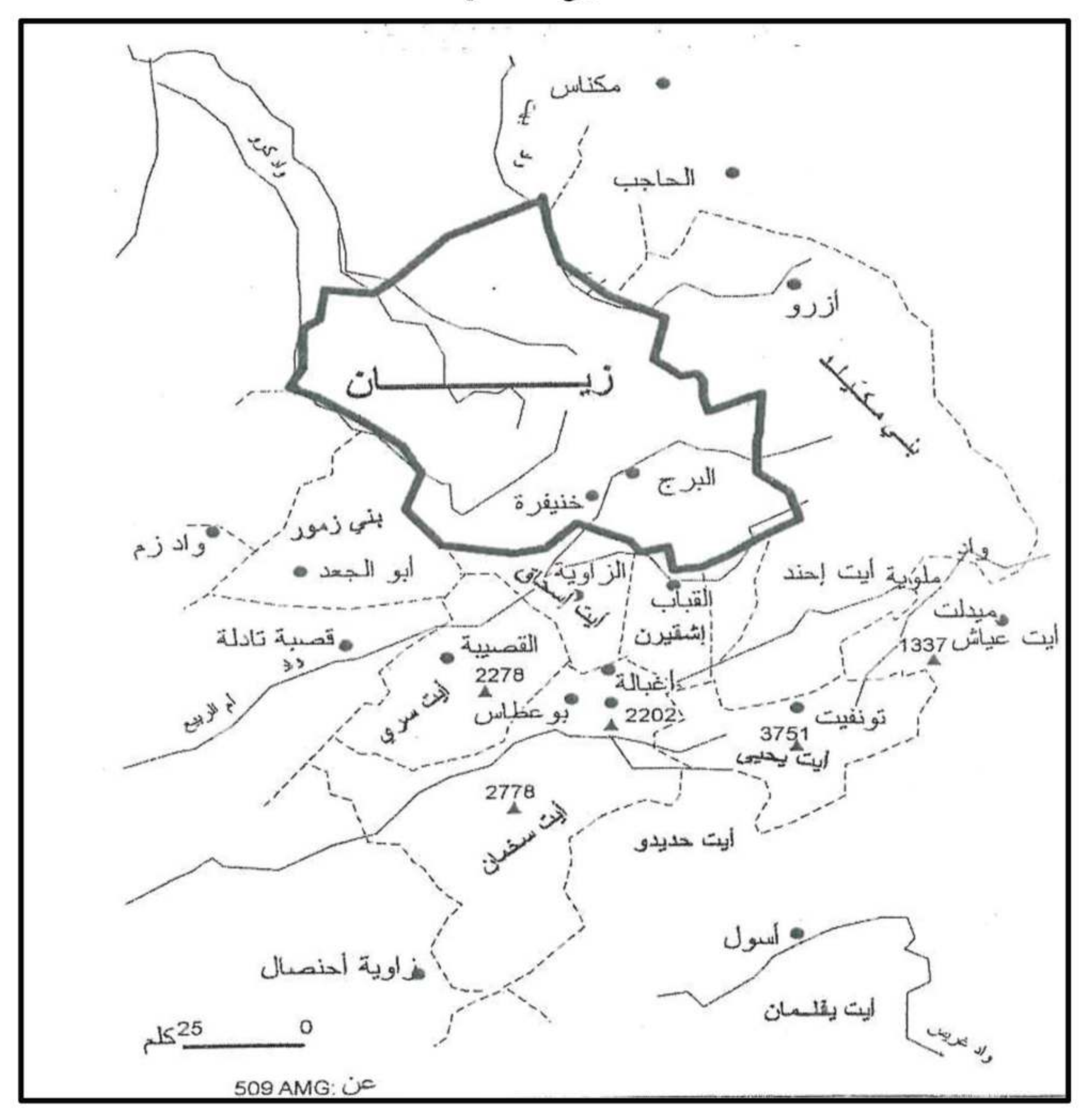
تقتضي دراسة منطقة زيان التعريف أولا بالإطار الطبيعي الذي كانت تتحرك فيه المقاومة.

يشكل موقع زيان صلة وصل بين شمال المغرب وجنوبه، لأنه يتموقع وسط المنحدرات الأطلنتية للأطلس المتوسط. كما أنه يربط شرق المغرب بغربه، بل يحقق التواصل بين آيت مكيلد وآيت احند واشقيرن وآيت اسحاق وزمور ويتزر وآيت نظير والسماعلة[1]. وهكذا فإن مجال زيان محاط بعدة قبائل من مختلف الواجهات. فمن الشرق تحده قبائل بني مكيلد، ومن الشمال تحده قبائل آيت نظير، ومن الغرب قبائل زمور، ومن الجنوب قبائل آيت احند وإيشقيرن. تقع المنطقة إذن في الأطلس المتوسط الذي يشكل سلسلة جبلية تمتد من شمال دمنات، عند ثغرة تساوت، حيث تختلط منحدراتها الأخيرة بمنحدرات الأطلس الكبير، ويحدها سهل تادلة جنوبا، وتنتهي عند هضبة الضهراء العليا[2]. ولعل ذلك ما جعل موقع زيان ذو قيمة إستراتيجية هامة في مخطط الاحتلال الفرنسي.

1- Mohamed Ben Lahcen, **Moha Ou Hamou Zayani, L'âme De La Résistance Marocaine À La Pénétration Militaire Française Dans Le Moyen Atlas (1908-1921)**,Imp. Info - Prient, Fès, 2000,P, 13.

2- شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب 1883-1884**، ترجمة المختار بلعربي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999، صص، 132-133.

موقع قبائل زيان



المصدر: محمد بن لحسن، **معركة لهري (13 نونبر 1914) صفحات من الجهاد الوطني**، مطبعة انفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى، 2001، ص، 138.

2- التضاريس:

يعتبر إقليم زيان من المناطق التي تعرف تنوعا تضاريسيا، حيث يشمل وحدات تضاريسية متباينة تتمثل أساسا في الجبال والهضاب والسهول، إلا أنه يتسم بسيادة الطابع الجبلي بالقسم الشرقي وقلة المجالات السهلية، ومن ثم قلة الأراضي الزراعية. وأول مجموعة تضاريسية تثير الانتباه هي السلسلة الجبلية الممتدة من واد سرو إلى واد أم الربيع، والسلسلة الثانية الممتدة من واد أم الربيع إلى الحمام، وتضم هاتين السلسلتين الجبليتين ارتفاعات مهمة يتجاوز أعلاها 2000 متر وخاصة في المناطق المجاورة للحمام[1]. وترتبط هاتين السلسلتين الجبليتين بمسطحات عبارة عن هضاب، ويتركز في هذه الوحدة منخفض مريرت الذي يوجد على ارتفاع ما بين 1000 و1200 متر[2]. ومنخفض خنيفرة الذي يوجد ارتفاعه ما بين 800 و1000 متر[3]، وهضبة أجدير، إضافة إلى بعض السلان[4]. وتتميز الوحدات التضاريسية غرب هذه المسطحات الهضبية بسيادة مجالات سهلية، تسمى أزغار[5]، ولها مساحة ممتدة في شمال وغرب خنيفرة، وغرب مريرت، وتستغل لرعي القطعان، نظرا لحرارتها المعتدلة، ووفرة المياه[6]. ويشير **سعيد كنون**، إلى أن أزغار كان قبل وصول السلطات الفرنسية يشمل مجالا لانتجاع القبائل ومنها قبيلة زيان، وكانت جل أراضيه جماعية لا تتمتع فيها الفخذات التي تستغلها إلا بحق الانتفاع المؤقت[7].

1- أحمد العلمي، **حركة تحرير الأطلس**، مطبعة الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1979، ص، 38.

2- الخريطة الطبوغرافية لمريرت بمقياس 1/100.000.

3- الخريطة الطبوغرافية لخنيفرة بمقياس 1/100.000.

4- سلان: جمع سليل وهو أخفض بقعة محلية للتضاريس.

5- أزغار يعني المكان الذي يتموقع بالقرب من المناطق الجبلية، وأزغار كمفهوم جغرافي يعني السهل المتموقع في قدم الجبل أو المساحات السطحية في منحدر الجبل، ويتميز شكله التضاريسي بالمساحة السطحية، مع ميلان ضعيف نسبيا، وأودية غير متعمقة، وارتبط مفهوم أزغار بالمجال الرعوي. باعتباره مجالا منبسطا تستغله القبائل المنتجعة من الجبل خلال الفصل الشتوي، وبهذا فهو يشكل مجالا مهما لتربية الماشية، ونظرا لأهميته الاقتصادية فهو يعرف مشاكل في التسيير، الأمر الذي يؤدي إلى المجابهة بين القبائل، ومن أجل وضع حد لهذه النزاعات وضعت قوانين عرفية تسمى "إزرفان" أنشأت من طرف تجمعات رعوية، راجع:

Hassan Remon, « Essai D'interprétation De Quelques Termes Amazighes Du Relief », **Les Termes Géographiques Amazighes**, Publications De l'Institut Royal De La Culture Amazigh, El Maarif Aljadid, Rabat, 2011, P, 75.

6 -Said Guennoun, **La Montagne Berbère Les Ait Oumalou Et Le Pays Zaian**, Comité De L'Afrique Française, Paris, 1929, P, 07.

7 - Ibidem.

3- المعطيات المناخية:

يسود بالمنطقة مناخ قاري، حيث تشتد البرودة شتاء ويشتد الحر صيفا[1]، وتلعب الرياح دورا مهما في تحديد خصائص مناخها، إذ تعرف هبوب صنفين رئيسيين من الرياح، الأولى تسود خلال فصل الشتاء فتهب رياح شديدة البرودة[2]، تسمى السيحل[3] (الرياح الغربية)، محملة بالأمطار والرطوبة مع تسجيل تساقطات على شكل ثلوج خلال بعض أيام السنة. أما خلال فصل الصيف تأتي الرياح من الجهة الشرقية وتسمى رياح الشركي[4]، تمتاز بالحرارة والجفاف، وهي المسؤولة عن جفاف هذا الفصل الذي يمتد من شهر ماي إلى شتنبر[5]، كما تؤثر هذه الرياح سلبا على المحاصيل الزراعية[6].

أما فيما يتعلق بدرجات الحرارة، فنسجل تباينا كبيرا بين فصلين:

في الشتاء: يكون البرد قارسا وتساقطات مطرية وثلجية مهمة، حيث تبدأ الثلوج من دجنبر وتستمر إلى شهر مارس[7]، وتنخفض الحرارة إلى 4 درجات تحت الصفر خلال شهر يناير[8].

في الصيف: يكون جافا وقاحلا، ينعدم فيه الجريان بشكل نهائي، كما يرتفع معدل الحرارة خلال شهري يوليوز وغشت إلى 39 درجة بمحطة خنيفرة[9]، مما يدفع بالأهالي إلى الترحال نحو الجبل، حيث الحرارة معتدلة[10].

4- الشبكة المائية:

نظرا للطبيعة الجيولوجية للإقليم ولغلبة الجبال على تضاريسه، يعتبر المجال من الخزانات المهمة للمياه، بل ويساهم بشكل كبير في الاحتياطي المائي للمغرب، ذلك أن الجبال

1-Etude Hydrologique Du Haut Oum Rabia, Direction De La Recherche Et De La Planification De L' Eau, 1984, P, 4.

2- Mohammed El Idrissi, **Projet De Développement Agricole De Khenifra, Etude Pédologique Au 1 100.000**, Ministère De L'agriculture Et De La Réforme Agraire, Institut National De La Recherche Agronomique, 2007 P, 15.

3 -Lieutenant Pillant, « Notes Contributives À L'étude De La Confédération Zaian », **Archives Berbères**, V IV, Publication Du Comité D'Études Berbères De Rabat, Maison Ernest Leroux, Paris, Année 1919-1920, P, 92.

4-Ibidem.

5 -Mohammed El Idrissi , Op. Cit, P, 15.

6- مونوغرافية المديرية الإقليمية للفلاحة بخنيفرة.

7-Lieutenant Pillant, Op. Cit, P, 92.

8- Badault George, « Etude Des Conditions Atmosphériques De La Compagne Agricole 1944-1945 », **Bulletin Économique Et Social Du Maroc**, Publié Par La Société D'études Économiques Et Statistiques, N°26, 1945, P, 56.

9 -Mohammed El Idrissi, Op. Cit, P, 15.

10-Lieutenant Pillant, Op.Cit, P, 92.

تلعب دور المغذي وهي أيضا خزان ومنبع لعدد من الأنهار والبحيرات والعيون. وفي هذا الإطار يقول الباحث **جاك مارتان**Jaques Martin «**يتوفر الأطلس المتوسط على أغنى خزان مائي في المغرب، حيث تنبع منه أكبر المجاري، وهما نهري سبو وأم الربيع... إلى جانب شبكة هيدروغرافية ثانوية كثيرة التشعب** »[1].

يخترق الإقليم مجموعة كبيرة ومهمة من المجاري التي تأخذ منبعها منه، ونخص بالذكر هنا: نهر أم الربيع، كما أن الإقليم يضم أيضا مجموعة من البحيرات المائية التي تشغل منخفضات مائية واسعة ناتجة عن تحلل الكلس وفي مقدمتها: بحيرة أكلمام أزكزا، وبحيرة أكلمام نسيدي علي وبحيرة ويوان، إضافة إلى ضايات وبحيرات صغيرة أهمها تيكلمانين وبحيرة نمعمي. تتميز المنطقة بوفرة العيون وفي مقدمتها: عين أروكو بصبيب يصل إلى 38 لتر/الثانية، وعين أسول ذات صبيب 46 لتر/الثانية، كما نجد عين العايدي بصبيب يصل إلى 15 لتر/الثانية[2]. وعين جنان أماس.

هكذا نستنتج مما سبق أن منطقة زيان تعرف شبكة هيدروغرافية غنية بالموارد المائية، وتتركز في القطاع الجبلي، وهذا يعود إلى طبيعة طبقاتها الجيولوجية النفاذة المثلة أساسا في الكلس جعل منها خزانا كبيرا للمياه.

ثانيا: الجانب البشري

زيان هي مجموعة قبلية معظمهم من برابرة صنهاجة، تضم قبائل الظل حسب المفهوم الخلدوني "ايت آمالو"، وآيت آمالو حسب صاحب الاستقصا "**هم من برابرة فزاز، وهم من بطن صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ضيان[3] وبني مكيلد... قد عمروا جبال فزاز وملئوا قننها وتحصنوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الإسلام بأعصار طويلة"[4]**، نخلص من هذا أن القبيلة كانت مستقرة ببلاد فزاز منذ قرون خلت، إلا أن هذا الطرح يبدوا بعيدا لأن الهجرة ظلت ظاهرة ملازمة للقبائل المغربية منذ القدم، وبالتالي فإن ظاهرتي الطرد والنزوح أصبحتا أمرا واقعيا يفرض نفسه، وهذا ما جعل **أبي القاسم الزياني** يقول " **إن**

1- Jaques Martin, **Société D'études Techniques Et D'ingénierie Emménagement De « La Forêt d'Ajdir»**, Étude Préliminaire, 2001, P, 38.

2- مديرية التجهيز، قسم المياه، خنيفرة.

3- وردت الكلمة ضيان لكن الصواب هو زيان.

4- أحمد بن خالد السلاوي الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء التاسع، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ص، 199.

القبيلة اعتنقت الإسلام أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وهي آنذاك بفزان من أرض الصحراء قبل أن تدخل سجلماسة"[1]، ويرجح أنهم هاجروا إلى مناطقهم الحالية في إطار الهجرات الكبرى لقبائل الجنوب الشرقي في اتجاه الشمال الغربي، وأزاحوا قبيلة معقلية- زعير-وكذا إخوانهم آيت عمر من موطن استقرارهم[2]، تدل إذن رواية الزياني أن زيان ينتمون لصنهاجة الجنوب، الذين كانوا يجوبون قبل القرن الحادي عشر الميلادي الصحراء بين واحات جنوب المغرب وبين بلاد الزنوج[3].ورغم قلة المعلومات وشح الشهادات التاريخية عن استقرارهم بالجنوب المغربي، فإن **محمد بنلحسن**[4]، **وجور جكولان**[5]، رأيا بأن الزيانيين بدأوا زحفهم في اتجاه مواقعهم الحالية منذ بداية القرن 16م، واستمر هذا الزحف على مستوى الجماعات والأسر والأفراد طيلة ثلاثة قرون إلى أن استقرت الأوضاع خلال القرن 19م بالأطلس المتوسط.

يضم مجال زيان العديد من القبائل التي تندرج ضمن سياق موضوعنا،ومنها قبائل آيت حركات وآيت كراظ وابوحسوسن وآيت عمر وآيت سكوكو. وقد أظهرت هذه القبائل صمودا وقوة في مقاومتها للاحتلال الفرنسي منذ بداية سنة 1907م. لما شرعت القوات الفرنسية في التدخل بقبائل الشاوية، لم تتردد قبائل زيان عن مساندتها، فشارك مقاومون في عدة معارك إلى جانب مقاومي الشاوية، وهذا ما يوضحه **فرانسوا بيرجيfrancois Berger** عندما قال **"لما شرعت كتائبنا سنة1908م، في تهدئة الشاوية، أعلن موحا وحمو الجهاد ضدنا.....وكانت تدخلاته الأولى بإرسال تعزيزات إلى الشاوية، والفرق الصغيرة شاركت في القتال، تطلق عيارات نارية ثم تعود إلى الجبل"**[6]. وتتحدث الوثائق الأجنبية أيضا عن سلسلة من المعارك

1- أحمد أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1967، ص، 548.

2- المصدر نفسه، ص، 34.

3- محمد بن لحسن، **نظرية المقاومة من خلال مخطوطة كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، دراسة تنظيرية مع توثيق النص**،أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، تحت إشراف الدكتور لحسن أغزادي، الموسم الجامعي1997-1998، ص، 59.

4- المرجع نفسه، ص، 69.

5-Georges Colin, "Origine Arabe Des Grands Mouvement De Population Berbères Dans Le Moyen Atlas", **Hespéris**, Archives Berbères Et Bulletin De L' Institut Des Hautes-Études Marocaines, Tome 5, Librairie Larose, Paris, 1938, P, 267.

6 - فرانسوا بيرجي، **موحا وحمو الزياني (1877-1921)**، ترجمة وتعليق محمد بوستة، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة الأولى، 1999، ص، 55.

دارت بالمنطقة في مواقع متعددة من تراب زيان بهدف تهدئة القبائل وتأمين المخططات الاستعمارية.

تعد القبائل الزيانية من بين القبائل التي كانت تعتمد على حياة الترحال والتنقل بين السهل والجبل، ولم تكن تعتمد على الزراعة إلا بشكل محدود، حيث شكل النشاط الرعوي المصدر الأساس لعيش ساكنة زيان، وقد أدى تدخل الاستعمار إلى الحد من حركة التنقل الشيء الذي ساهم إلى جانب عوامل أخرى في إخضاعهم.

ثالثا: المشاريع الاستعمارية بمنطقة زيان.

تحظى منطقة زيان بمكانة إستراتيجية هامة، فهي تشكل صلة وصل بين شمال المغرب وجنوبه، لذلك فإن احتلالها كان من بين الأولويات المسطرة في الأجندة الاستعمارية الفرنسية منذ السيطرة على تازة. وتجدر الإشارة إلى أن محاولة التحكم في هذه المجالات تعود إلى فترات تاريخية قديمة، فقد عمل السلاطين العلويون على فتح هذه الطرق تارة بالقوة وتارة أخرى بالديبلوماسية، وفي هذا السياق، يمكن القول أن رغبة العلويون في التحالف مع موحا وحمو الزياني ترجع إلى مكانة قبيلة زيان وأهميتها في السيطرة على مراكز المواصلات بين فاس ومراكش، فكان هدف الحسن الأول هو جعل زيان حراس هذه الطريق[1]، وقد شكلت هذه الوضعية الجغرافية هاجسا للمخزن ثم الإقامة العامة، ومن ثم انصب اهتمامهم وبشكل دائم في محاولة احتلال هذه المنطقة لأهميتها في منطقة الأطلس المتوسط. ومن الأشياء المهمة في هذا المجال أيضا أن زيان ساعدهم نمط عيشهم القائم على الترحال وراء قطعانهم وتقاليدهم الحربية حول المجال، إلى جانب تحكم بلادهم في طريق المواصلات التي تربط بين كل من فاس ومراكش في لعب دور محوري في شرايين التجارة بالمغرب، ونظرا لأهمية المنطقة اصطدمت منذ وقت مبكر بالقوات الفرنسية منذ تبلور المخططات الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تهديد مصادر رزقهم بمحاصرتهم واحتلال مناطق رعيهم. إذن ما هي طبيعة المشاريع الاستعمارية بمنطقة زيان، وما أهدافها؟

1- أحمد العلمي، م.س، ص، 43.

أ -الحصار العسكري:

احتلت فرنسا خنيفرة في 12 يونيو 1914 بعد أن حاصرتها من الشمال والجنوب والغرب، تحت قيادة الجنرال هنريس، والذي رسم خطة عسكرية محكمة، وتم الهجوم من ثلاث جهات:

- من جهة الشمال مجموعة الجنرال **كرو** **Gros**، قائد منطقة الرباط، فتح بلاد زعير وزمور ووصل إلى حدود ولماس واحتل مولاي بوعزة، بقوات تعدادها 3 كتائب ونصف كتيبة، وسريتين ونصف سرية، ومدفعية ونصف تجمعوا في أفوغال.
- من جهة الجنوب: وقع الهجوم بقيادة الكولونيل **كلوديل** **Claudel** ووصل إلى منطقة إيطو في الجنوب الشرقي، بقوات تعدادها 5 كتائب ونصف كتيبة، وثلاث سرايا، وثلاث بطاريات مدفعية، تجمعوا في واد إفران.
- من جهة الغرب مجموعة الكولولنيل **دوبليسيس****garnier Duplessis** ويتوفر على 5 كتائب، وسريتين، وقطعتين مدفعيتين، تجمعوا في بوجعد[1].

كانت المجموعات التي اقتحمت مدينة خنيفرة تتألف من ثلاثة عشر كتيبة، وسبعة سريات ونصف، وخمس بطاريات مدفعية ونصف، وانطلقت في آن واحد متجهة نحو خنيفرة. أقامت فرنسا أيضا مجموعة من المواقع العسكرية، لتضييق الخناق على زيان، كأزرو وإيطو، وأگوراي، وولماس، ومولاي بوعزة، وبوجعد، وجند هنريس قوات ضخمة لهذه الغاية بلغت أكثر من 15000 جندي أغلبيتهم من المرتزقة من سنغاليين، وجزائريين وتونسيين، إضافة إلى فرق الگوم والمخازنية، و385 ضابطا، مدعمين بأحدث الأسلحة من مدفعية ورشاشات ومتفجرات[2].وإذا كانت سياسة المراكز العسكرية الفرنسية قد نجحت إلى حد ما في تطويق المقاومين ومحاصرتهم إلا أنها لم تحقق الأهداف المتوخاة منها، إذ لم تتوقف هجومات القبائل الزيانية تجاه المراكز العسكرية الفرنسية إلا بعد نفاذ كل وسائلها، وهذا ما صرح به ليوطي إذ قال **"لم تخضع لنا أية قبيلة بكيفية**

---

1 -Rapport Mensuel D'ensemble Du Protectorat, Situation Politiques Et Militaire Du Maroc Occidental Et Du Maroc Oriental, Résidence Générale De La République Française Au Maroc, Direction Du Service Des Renseignements, Juin 1914, P, 05.

2- Jean Pichon, **Le Maroc Ou Début De La Guerre Mondiale, El-Herri (Vendredi 13 Novembre 1914)**, Librairie Militaire Charles- Lavauzelle, Paris, 1936, P, 06.

تلقائية، ولم تخضع أية واحدة منها بدون مقاومة، بل أن بعضها لم تخضع إلا بعد نفاذ كل وسائلها في المقاومة عن آخرها"[1]. وقد سبق لأحد النواب الفرنسيين أن حذر حكومته قائلا: "**سيكون من الخطأ اعتقاد إخضاع المغاربة، بسبب تفاوت في القوى، يمكنكم عبور هذه البلدان، وتخريبها، ونهبها، يمكنكم خنق الناس، لكنكم لن تتمكنوا من جعلهم يقولون: إننا خاضعون إلى الأبد**"[2].

ب -في المجال الإداري:

بعد استكمال سيطرتها على زيان، قامت الدولة الفرنسية بإرساء شبكة للإدارة الاستعمارية، وتقوم فلسفة الإدارة الاستعمارية على مبدأ سياسة الأهالي المتبعة من طرف ليوطي، والتي تقوم على الاشتراك الشكلي لأهل البلد المستعمر إبان فترة الاستعمار إذ يحتفظ المعمرون بالقرارات والسلطة الفعلية. وفي هذا السياق تقرر أن تعهد قيادة القبائل الزيانية لزعمائها القدامى، وبدأ تعيين قائدا على كل قبيلة يعتبر ممثلا للسلطة الفرنسية وممثلا للمخزن المركزي بين إخوانه ومسؤولا عن الشرطة والأمن، وعليه إخبار الإدارة الفرنسية بكل حادث قد يهمها، وبما أنه يتعين عليه من جهة أخرى السهر على تنفيذ قوانين وقرارات نظام الحماية فقد منحت له سلطات تأديبية واسعة، إذ يمكنه أن ينطق تحت مراقبة الإدارة الاستعمارية بأحكام تصل إلى سنة سجنا وألف فرنك غرامة[3].

بالإضافة إلى هؤلاء القياد، استعانت السلطات الاستعمارية بدور الجماعة في ضبط المجال وتوطيد نفوذها في المنطقة. ومن أجل ذلك أصدرت سلطات الحماية ظهيرا مؤرخا بتاريخ 13 شتنبر 1924، يتعلق بإحداث جماعات للقبائل بفرع آيت سگوگو[4]، وكانت حريصة على اختيار أعضائها، وإحداث التغييرات في تنظيمها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وهذا ما يظهر أن الإقامة العامة حرصت على أن تنزع من الجماعت صفتها الدائمة ودورها القيادي، وهذا ما جعل **سعيد كنون** يقول إن التنظيم الذي وضعناه يعتبر سرابا خادعا لأن أعضاء

1-Guillaume G, **Les Berbères Marocains Et La Pacification De l'Atlas Central (1912-1933)**, René Julliard, Paris, 1946, P, 72.

2- جورج أوفيد، **اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية 1905-1955**، ترجمة محمد الشركي ومحمد بنيس، مراجعة عبد اللطيف المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987، ص، 70.

3- سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان**، ترجمة محمد بوكبوط، منشورات الزمن، مطبعة بني ازناسن، سلا، المغرب، 2014، ص، 182.

4- الجريدة الرسمية، العدد 596، السنة 11، بتاريخ 30 شتنبر 1924، ص، 1241.

لجماعت التي أسسناها مختارون أكثر فأكثر من بين الأثرياء وأصدقاء القياد[1]. وفي هذا السياق يحدد لنا **ريمي لوفو** دور الأعيان بالقول «**إنه بدون دعم من أولئك الأعيان...لن يكون بإمكان الجهاز الإداري إلا أن يظل يدور في الفراغ عبثا. كما أن هؤلاء الأعيان... يمتازون بكونهم لم يكلفون السلطة المركزية شيئا يذكر، إذ دأبت هذه الأخيرة على تركهم يقتطعون استحقاقاتهم المادية من الضرائب القروية، مع غضها الطرف عن بعض التجاوزات الابتزازية الإضافية. وهكذا فكلفة هذا الجهاز الإداري الذي يعمل من أجل الحفاظ على النظام. ومن أجل التبليغ عن القرارات الصادرة عن الإدارة الفرنسية مع العمل على تطبيقها، هي تكلفة إذن على عاتق القطاع الفلاحي التقليدي، بحيث أن الدولة لا تتولى دفع أي أجور لهم وحسب، بل وليس عليها أيضا أن تشغل بالها بشؤون بناء المقرات الإدارية ورعايتها، ما دام أن مساكن أولئك الأعوان، في نفس الوقت، مقام تلك المقرات الإدارية**»[2].

إذا كانت مؤسسات الجماعة على صعيد القبائل ثم الفخذات، قد قامت بمجموعة من الوظائف، ورسخت الديمقراطية في الحياة السياسية للقبائل، فقد اندثرت تدريجيا تحت ضغط الإكراهات السياسية والإجراءات القانونية والإدارية والتقطيعات الترابية في عهد الاستعمار، واندمجت في شبكة المراقبة والتحكم التابعة للسلطة، بل وأصبح اختيار شيوخ ووجهاء القبيلة خاضعا لتعليمات السلطة. ولا صلاحية للجماعات إلا تقديم آراء أو توجيهات بصفة استشارية للسلطات المحلية بخصوص تدبير الممتلكات الجماعية للمجموعة[3]. ومنذ ذلك التاريخ يمكن أن نتحدث عن بداية احتضار الجماعة كمؤسسة قائمة الذات لم تكن التمثيلية فيها عن طريق الاقتراع، بل كانت تتم بالإجماع حول أشخاص يشهد لهم الجميع بكفاءتهم وبتقواهم وبعمق تفكيرهم، ومن ثم ستصبح الجماعة كمؤسسة غير قائمة الذات، خاصة وأن أفرادها يتم تعيينهم من طرف ممثلي السلطة الاستعمارية.

1- نفسه، ص، 174.

2- ريمي لوفو، **الفلاح المغربي المدافع عن العرش**، ترجمة محمد بن الشيخ، مراجعة عبد اللطيف حسني، منشورات وجهة نظر، سلسلة أطروحات وبحوث جامعية(2)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2011، ص، 6.

3- نفسه، ص، 182.

ت - في المجال الاقتصادي:

لجأت إدارة الحماية إلى إقرار مجموعة من إجراءات المساندة، من أجل تشجيع المستوطنين على الاستقرار في المنطقة، بل وسخرت كل الإمكانيات اللازمة لتدعيم الاستيطان. وتماشيا مع هذا الاستيطان، أعطت الإدارة الاستعمارية مكافآت لاستصلاح الأراضي ومساعدات لشراء جرارات[1]، كما تم الإعلان عن برنامج يهدف إلى مساعدة الفلاحين، هكذا اهتمت المراقبة المحلية بنواحي خنيفرة بشؤون الفلاحة، وتحسين نوعية الإنتاج. لكن أهم شيء طبعا، هو تنظيم مؤسسات السلف الفلاحي، وفي هذا الصدد أصدرت إدارة الحماية قرارا بإنشائها، ومنها "الشركات الأهلية الاحتياطية" والتي انحصر دورها في «**إعانة الفلاحين الأهليين بالسلفات سواء كانت نقدا أو عروضا ليتمكنوا من مواصلة أنشطتهم الفلاحية ومن توسيع نطاقها وتحسين آلاتهم الفلاحية وتنمية مواشيهم، وكذا إعانة الفلاحين الفقراء المصابة مواشيهم بأمراض جسيمة أو الذين أضربهم الجراد أو حلت بهم كارثة طبيعية بسلفات أو مساعدات وقتية، بالإضافة إلى تخليص الفلاحين الأهليين من منكرات الربا والاحتكار فتقوم مقامهم الشركة المذكورة عند الحاجة لإجراء ما يلزم لفسح ما التزموا به نحو الذين بالغوا في التضييق عليهم بسبب احتياجهم أو قلة معرفتهم أو عدم خبرتهم... إحداث شركات تعاونية لشراء وبيع محصولاتهم الفلاحية الخصوصية...**»[2]. قد يبدو أن هذه الإجراءات تصب في مصلحة الفلاح المغربي، إلا أن حقيقة الأمر تكشف عكس ذلك، وهذا ما يتضح من خلال هذا الظهير «**فقد تصير كل السلفات مستحقة الأداء حالا دون إمهال إذا خولفت مقتضيات هذا الظهير... من شأنها أن تنقص الضمانات العايدة لترجيع السلف وكل سلف لا يرجع في الأجل المعين يدفع عنه حتما فائدة سنوية قدرها خمسة بالمائة ابتداء من يوم استحقاقه**»[3]. من هنا يبدو أن القبائل الزيانية على غرار مختلف القبائل المغربية ارتفعت معاناتها من هذه القروض التي تمنحها هذه الشركات الأهلية بفوائد مرتفعة.

1- عياش ألبير، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985، ص، 180.

2-**الجريدة الرسمية**، العدد 215، السنة الخامسة، بتاريخ 11 يونيو 1917، ص، 460.

3-**الجريدة الرسمية**، العدد 311، السنة السابعة، بتاريخ 14 أبريل 1919، ص، 208.

وفي إطار عملية الاستنزاف والاستحواذ على أقصى ما يمكن من الأراضي لتوزيعها على المستوطنين أنشأت سلطات الحماية بموجب قرار وزيري صادر بتاريخ 18 يناير 1922 وبعد اقتراح من مدير إدارتي الأمور والاستعلامات الأهلية "شركة احتياطية" بفرع آيت سكوكو يكون مقرها بالحمام وتضم أربعة فروع:

- فرع واحد للعميين من ناحية الحمام.
- فرع واحد للمرابطين من ناحية الحمام.
- فرع واحد للمرابطين من ناحية وادي أماسين.
- فرع لايت عمار بزيان من أولماس[1].

أنشأت سلطات الحماية أيضا بموجب قرار وزيري آخر "شركة أهلية احتياطية" بدائرة زيان يكون مقرها بخنيفرة وتضم ستة فروع:

- فرع بوحسوسن.
- فرع آيت حركات أكلموس.
- فرع آيت حركات بخنيفرة.
- فرع آيت كرات بخنيفرة.
- فرع آيت بوحدو وآيت سيدي بوعباد.
- فرع إيمازن[2].

قدمت الإدارة الاستعمارية أيضا مساعدات للفلاحين تتجلى في تقديم الحبوب، فمراعاة لضعف الفلاح بنواحي خنيفرة سنة 1946 وقصوره عن العمل المألوف لديه بانعدام صابة عام 1945، كان رجال السلطة المحلية يقومون في قبائل زيان بتشجيع الفلاحة وعدم الإخلاد إلى اليأس[3]، فقدمت لهم كمية وافرة من القمح والشعير[4]، المعدة للحرث وأخذ كل

1-**الجريدة الرسمية**، العدد 645، السنة الرابعة عشر، بتاريخ 03 مارس 1925، ص، 473.

2-**الجريدة الرسمية**، العدد 696، السنة الخامسة عشر، بتاريخ 23 فبراير 1996، ص، 278.

3- خنيفرة، "اهتمام المراقبة المحلية بشؤون الفلاحة والبر والإحسان"، **جريدة السعادة**، العدد 6641، السنة 43، بتاريخ 18 مارس 1946.

4- م. و خنيفرة، "توزيع الحبوب على الفلاحين"، **جريدة السعادة**، العدد 6642، السنة 44، بتاريخ 6 يناير 1947.

واحد قسطه من البذور المنعم بها على الفلاحين[1]، وبعد تقديم الحبوب، أقدمت السلطات الاستعمارية على تقديم القروض، إلا أنها اشترطت على المكلفين بالصندوق المركزي الضامن على ترجيع السلف أن يسهروا على أن لا يصرف السلف في غير ما خصص له[2]. وضمن هذا السياق أعلنت المراقبة المحلية للقبيلة الشقرانية بأنها خصصت لها قسطا من السلف، ففرحت الساكنة غاية الفرح لكن سرعان ما تأسفت، لأن المراقبة المحلية ألزمتهم بصرف مال السلف في كراء آلة الحرث "التراكتور" مع أن أراضيهم لا تصلح لهذا، وإنما تصلح لرعي الماشية وهي حرفتهم، ولذلك رفضوا رفضا باتا هذا السلف لأنهم رأوا من ورائه شبكة استعمارية جديدة محتجين على عدم تركهم أحرارا في استغلال أموال السلف في مشاريع توافق طبيعة البلاد ومنتوجاتها[3]. بناء على ما سبق، يمكن القول أن الفلاحون الزيانيون أدمجوا بصورة عنيفة في اقتصاد نقدي، لم يكونوا مهيئين للاندماج فيه، وهذا يندرج ضمن الأهداف الاستعمارية التي كانت تهدف إلى خلق فلاحة على النمط الأوربي أي فلاحة رأسمالية.

ث -في المجال السياسي:

إن التضامن والالتحام الذي أبداه الزيانيون، دفاعا عن أراضيهم واستقلالهم وكرامتهم، جعل فرنسا تنظر إليهم بعدم الارتياح، فاتضح لها وجوب فصل القبائل وتنمية النزاعات الداخلية، لأن في التحامهم وتآزرهم زيادة قوة لهم، وفي هذا السياق استهدفت بشكل كبير موحا أوحمو الزياني بوصفه قائدا مخزنيا، وحاولت أن تقدمه كزعيم مستبد، همه الوحيد استنزاف السكان وقارنته بالأمراء الفيوداليين الذين عرفتهم أوربا خلال القرون الوسطى، وكأنهم كانوا يريدون القول إن القبائل الزيانية لا تنتظر إلا قدوم الجيوش الفرنسية لإنقاذها وتحريرها، وإلى هذا يشير الجنرال **هنريس Henrys** بقوله: "**إن عمل الجيوش الفرنسية، يستهدف إنقاذ القبائل المستعبدة من طرف عائلة إمحزان الذين يعتبرون بمثابة أمراء فيوداليين، خاصة وأن القبائل تكن العداء لهؤلاء الذين قادوا المقاومة ضد عملنا**

1- خنيفرة، "اهتمام المراقبة المحلية بشؤون الفلاحة والبر والإحسان"، **جريدة السعادة**، العدد 6641، السنة 43، بتاريخ 18 مارس 1946.

2-**الجريدة الرسمية**، العدد 311، السنة السابعة، بتاريخ 14 أبريل 1919، ص، 206.

3- ابن الأطلس، "لقباب، قضية السلف"، **الرأي العام**، العدد 148، السنة الثالثة، بتاريخ 14 أبريل 1950.

التحرري"[1]. وأمام صلابة القبائل وإصرارها على مواصلة المقاومة عمد الجنرال هنريس مرة أخرى إلى زرع بذور الشقاق بين فصائلها، فقد ظهر له المجتمع الزياني في صورة هرم في القمة قبيلة موحا وحمو، والقبائل الأخرى في القاعدة تسمى كتلة العبيد[2]، ويكمن الهدف في زرع النزاعات والصراعات بين مختلف القبائل الزيانية، في تبديد إمكاناتها القتالية وتصبح طليعة القوات الفرنسية في عملية التطويع. وبعد فشل هذه السياسة عادت القوات الاستعمارية إلى مخزونها الثقافي وتبنت فكرة الإغراء لإخضاع القبائل المتمردة، خاصة وأن هذه السياسة قد نجحت في استمالة بعض القيادات الكبرى في الجنوب مثل التهامي الكلاوي والمتوكي، والكندافي... الذين شاركوا مشاركة فعالة في إخضاع عبدة ودكالة والأطلس الكبير الغربي وسوس[3]. ولما فشلت الخطة بدأ ضباط الاحتلال يحاولون إغراء أبناء موحا أوحمو للانضمام إلى صفوفهم، فبدأوا بابنه ميعمي المعروف بولد الفاسية، وفعلا حدد ولد الفاسية لقاء مع مجموعة من الضباط للتفاوض معهم، وفي الوقت نفسه هيأ بمساعدة المقاومين لاغتيال المفاوضين الفرنسيين وفعلا لما حضر الفرنسيون للتفاوض انقض عليهم المجاهدون واغتالوهم جميعا، فخصص الفرنسيون مبلغا ماليا هاما لمن يأتيهم برأس ولد الفاسية، وظل هذا الأخير إلى جانب والده في الجهاد بينما ألقى السلاح جل أبناء موحا أوحمو[4].

ركزت السلطة الاستعمارية أيضا على الجانب الصحي، ولذلك شكل المستوصف أحد الأجهزة المهمة التي لعبت دورا أساسيا في تثبيت أقدام الفرنسيين بالمنطقة. خاصة وأن فرنسا كانت تتذرع دائما خلال عملياتها التوسعية بذريعة العلاج والقضاء على الأمراض الفتاكة وإنقاذ الشعوب التي تنوي السيطرة عليها من براثين الموت، حيث كان أطباؤها يواكبون مراحل

1- عبد القادر بوراس، "الكتابات الاستعمارية والمقاومة في الأطلس المتوسط (مقاومة موحا وحمو الزياني نموذجا)"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907 - 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص، 76.

2- بن لحسن محمد، **معركة لهري** ...م،س، ص، 40.

3- المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق محمد بن لحسن، تقديم مصطفى الكثيري، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرام، الرباط، الطبعة الأولى، 2004، ص، 236.

4- أحمد العلمي، "صفحات من مقاومة قبائل زيان للاستعمار الفرنسي مقاومة موحا أوحمو"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907 - 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص، 93.

الغزو ويقومون بتمهيد المجال وتنقيته قبل اقتحامه، متلبسين بشعار العلاج وكشف ما يمس الناس من أصناف الضر[1]. وفي هذا الصدد يقول **موريس لوكلاي Mauricele Glay** "**أقامت فرنسا مستوصفا بخنيفرة لعلاج المصابين والمرضى، وكان المستوصف يعالج حوالي 90 مريضا وجريحا في الشهر**"[2]، ويضيف **فرانسوا بيرجي** أن المستوصف كان يقدم خدمات علاجية مجانية دون مطالبة المصابين والمرضى بمعطيات شخصية، وقد كتب نفس الباحث وهو يتحدث عن هذا المستوصف وما كان يقدمه من علاجات بقوله: "**كانت الساحة مفتوحة للمرضى القادمين نحو المستوصف، عالجناهم بطبيعة الحال مجانا دون أن نطالبهم بأسمائهم أو أصلهم أو أسباب جروحهم، ويعالج الجروح التي حدثت لهم إبان مناوشتهم لنا، حيث الضحايا أتوا فقط لطلب العلاج في اليوم الموالي للعدوان، وقبل الدخول للمستوصف ينسل الزائر بحذر ليصل إلى الباب السري لمكتب الاستخبارات، حيث نتحدث معهم**"[3]. إن ما يعطي لهذه الإعانة الطبية قيمتها ويجعلها قادرة على القيام بمهامها، هو أنها لم تكن تطلب من المصابين والمرضى الإدلاء بوثائقهم الشخصية، وكل هذا من أجل بناء علاقة سلمية مع السكان لتسهيل عملية إخضاعهم. وفي نفس السياق، يقول أندريو**Andrieu** الطبيب الرئيس لقاعة التمريض بأزرو: "**إن قاعتي الفحص بعين اللوح والحمام تتوفران على ممرضين يقدمان العلاج أثناء غياب الطبيب، ويقومان بالتلقيح ضد الجدري، كما يؤمنان الوقاية من حمى المستنقعات ويزوران المرضى المشتبه في إصابتهم بأمراض معدية**"[4]. إن ولوج هذه القاعات مرحلة أولى في عملية الاستشفاء يتم فيها التعرف على المرضى الوافدين قبل إرسالهم إلى مراكز الاستشفاء الأخرى، ويتكلف بها طبيب يزورها مرة أو مرتين في الأسبوع غالبا ما يكون ذلك أيام الأسواق الأسبوعية[5]. ومن خلال هذا النشاط الطبي للمستوصفات الصحية، تمكن الأطباء ومن كان معهم من الممرضين والمخبرين من نسج علاقات ثقة مع السكان وشيوخ القبائل، مما ساهم في تحقيق تأثير معنوي سهل

1- بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945**، مطابع الرباط، نت، 2013، ص، 271.

2- Le Glay Maurice, **Les Sentiers De La Guerre Et De L'amour**, Edition Berger Levrault, Paris, 1930, P, 218.

3- فرانسوا بيرجي، م.س، ص، 65.

4- بوجمعة رويان، م.س، ص، 299.

5- نفسه.

عملية التغلغل وأغنى كثيرا عن استعمال القوة[1]، وهذا ما جعل **ليوطي** يعبر غير ما مرة عن إعجابه بالطبيب بل وأحاطه بهالة من الإجلال والتقدير، ورأى في عمله وسيلة فعالة في نشر إشعاع الحضارة الأوربية، يقول: "**إن الطبيب عندما يزور مناطق ترفض الدخول تحت سيطرتنا، ويجد سكانها عرضة لأمراض فتاكة، فإنه هو الرئيس الأمثل هناك، لأنه يمكن أن يقوم مقام الموظفين وجيوش الاحتلال**"[2]، وأضاف ليس هناك ما هو أقوى ولا أكثر فاعلية من عمل الطبيب كوسيلة للتغلغل وجلب الأهالي وتمهيد البلاد[3].

رابعا: أساليب السيطرة للتطويع.

1 - الحصار الاقتصادي:

كثفت السلطات الفرنسية جهودها قصد توفير الظروف الملائمة لإخضاع المنطقة، وقد بدأت بالسيطرة على الطرق التجارية بين زيان والمدن الكبرى وخاصة فاس ومراكش ومكناس، الشيء الذي أفضى إلى حظر زيان الإتجار مع المدن الكبرى، وبفضل هذه الخطة وجهت ضربة موجعة للاقتصاد الزياني.

كانت القبائل الزيانية تسيطر على مناطق سهلية تعتبر منتجعا لمجموعة قبائل كبني مكيلد وكروان وغيرها، كما أن هذه القبائل الزيانية كانت تعتبر ممولة لجيوب المقاومة في الأطلس المتوسط، نظرا لهذا الوضع الزعماتي والموقع الاستراتيجي والمكانة القيادية لزيان قرر الفرنسيون السيطرة على الممرات الاستراتيجية بالمنطقة، ولذلك تمت محاصرتهم من جهة الشمال لحرمانهم من تموين السهول، ومن الشمال الغربي لفصلهم عن المراعي الأزغارية، وذلك قصد تصغير مساحتهم إلى أصغر وحدة بشكل لا يسمح لهم بالصمود، يقول **ليوطي** "**إن الاعتبار الاقتصادي يتفق والاعتبار الحربي، وحينما أمسك بالسوق إلى جانب مدافعي فسوف أتحكم في البلاد، ويمكنني حسبما أردت نشر الرخاء أو الجوع**"[4].

1- نفسه، ص، 276.

2- نفسه.

3- نفسه.

4- محمد بن لحسن، "التدخل الاستعماري الفرنسي في الأطلس المتوسط معركتا تاقا إيشيعان والبقريت نموذجا (1914 - 1921م)"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907- 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص، 144.

2 - تجويع الأهالي:

تعتبر مسألة الرعي قضية مركزية في الفكر الفرنسي تستدعي استحضار قوانين تضمن تطور المشروع الاستعماري القائم أساسا على الاستحواذ على الأرض. ومن أجل التحكم في المراعي كلفت السلطات الفرنسية إدارة المياه والغابات بالتحديد السنوي لنوع وعدد رؤوس الماشية التي من حقها دخول الغابات بإعطاء المستفيدين بطاقة تثبت الحقوق الرعوية. ويتم تحديد عدد رؤوس الماشية على ضوء تقرير تقدمه لجنة تقييم الإمكانات الكليئة للمراعي، ليتم تنظيم دخول القطعان إلى الغابة عن طريق تحديد دخل رمزي[1].

كل هذه التدابير يبررها الاستعمار بأنها تهدف إلى الحفاظ على توازن الوسط الطبيعي، لكن بهذه التدابير تم تجريد القبائل من الملك الغابوي، وتراجع تنظيم المراعي في إطار أكدال، وتم إقصاء الجماعة عن إدارة تنظيم أكدال. وكان من نتائج هذه السياسة الاستعمارية، استخدام "المراعي" كوسيلة للتوفيق بين مطالب متعددة ومتضاربة. وهنا تحضر الرؤية البعيدة للإدارة الفرنسية في تدبير رخص الرعي، إذ تستغل السلطة الاستعمارية ظروف التوازن والصراع من جهة، وظروف المصالح القبلية من جهة أخرى، بشكل محكم حتى تبقى الوحيدة القادرة على التحكم في مورد رزق الأهالي، في معادلة منح أو منع رخص الرعي.

عملت السلطات الفرنسية أيضا على عزل القبائل الزيانية عن مراعيها الحيوية المتمثلة في أزغار، إذ دشنت قنطرة على واد أم الربيع كانت تنظم بواسطتها عملية المرور، وتسمح للقبائل الخاضعة بالمرور بينما تمنع القبائل الثائرة من استغلال أزغار الأمر الذي يؤدي إلى المكوث بقطعانها شتاء في الجبل وبالتالي ارتفاع الوفيات في صفوف الماشية. ومن ثم بدأت تضمحل القوة الاقتصادية للزيانيين وذلك بحرمانهم من المجالات الحيوية التي تساعدهم على تقوية نفوذهم، بل وازداد الوضع تأزما بعد إبعادهم عن مجال مهم ولا يمكن لهم العيش بدونه (نهر أم الربيع). ولقد صرح **فرانسوا بيرجي** أن: «**نهر أم الربيع يشكل مركز قوة الزيانيين يجب إبعادهم عنه، ففي جهته اليسرى تتكتل القبائل المجاورة الحريصة على اقتسام**

1- احفيظ فنيدي، "التحكم الاستعماري في منطقة زيان تفكيك بنيات المجتمع من خلال الضغوط الاقتصادية"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907 - 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص، 117.

الغنيمة مع المنتصرين»[1]. وعلى هذا النحو وجدت القبائل الزيانية نفسها تحت رحمة الاقتصاد الأجنبي.

كانت فرنسا بفعل الظروف التي كانت تعيشها قد أعلنت أنها لا تتوفر على الإمدادات الكافية لمواجهة قبائل زيان، الأمر الذي فرض على ليوطي الاعتماد على سياسة الحصار الاقتصادي، إذ تم اعتباره سلاحا يدمر أكثر مما تلحقه القوات العسكرية[2]. ويتضح لنا ذلك منذ الوهلة الأولى لاحتلال بلاد زيان، فاختيار القوات الفرنسية لشهر يونيو 1914م، هو محاولة حرمان القبائل من محصولها الزراعي[3]، علما بأن شهر يونيو هو شهر الحصاد في كل المناطق الجبلية، وهذا يدخل ضمن الخطة التي اتبعتها فرنسا والمعروفة بسياسة الأرض المحروقةوالتي تميزت بخطف المواشي وإبادتها بالطيران والمدفعية وتدمير القرى وإحراق المزروعات، واتخذ هذا التدمير بعدا خطيرا ومفزعا ابتداء من سنة 1921، ففي شهر ماي من نفس السنة استولى الجيش الفرنسي على 600 رأس من الأغنام و 700 من الأبقار و 100 فرس و 100 بغل كانت في ملك آيت سكوكو[4]، غير أن جيش الاحتلال لم يكتف بهذه الأساليب لكسر شوكة مقاومة زيان وتفكيكها، بل استعمل أسلحة من نوع آخر وهي اختطاف النساء، وقد وصف**بول بيلوPaulBelot** هذا الاختطاف ،قائلا « **ذات مرة باغتت رجالنا أكثر من 100 امرأة يلتقطن الحطب تحت حماية بعض المحاربين فساقوهن إلى الثكنة، وبعد الغارة استقبل كولومبا مبعوثين من جميع أنحاء زيان يفاوضون في شأن تحري أولئك النسوة، فقبل بإرجاعهن إلى ذويهن بشرط أن يستلم جل الأسلحة التي اختطفت من الفيالق الفرنسية بالجبهة، بمعدل بندقية لكل ثلاث نساء»**[5]. كما استخدمت الآلة الحربية لقصف التجمعات البشرية في القرى والأسواق والمخيمات، وملاحقة الهاربين إلى داخل

1- فرانسوا بيرجي، م. س، ص، 60.

2- أحفيظ فنيدي، م.س، ص، 19.

3- محمد بوستة، "معركة لهري امتداد لمعركة خنيفرة"، ضمن **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، العدد 53، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د.ت، ص، 28.

4-Said Guennoun, Op. Cit, P, 206.

5-Paul Belot, **Trente Ans De Baroud**, B. Arthaud, Paris, 1945, P, 96.

الكهوف والمغارات[1]، وكذا فرض غرامات حربية على عدد من الأفراد والقبائل بتهمة إيواء مقاومين أو مرورهم من تراب القبيلة، وقد فرضت سنة 1928 غرامة قضائية على قبائل سكوكو قدرها 600 فرنكا[2]. زد على ذلك سياسة التنقيص من كرامة الإنسان الزياني، إذ كلفه المستعمر بالأعمال الشاقة في إنجاز الطرق، وذلك بتعاون مع السلطات المحلية الذين يقومون باستدعاء أشخاص لشق الطرق وتكسير الحجارة بدون تعويض وذلك عقابا لهم وعبرة لمن سولت له نفسه الوقوف ضد الاحتلال.

وقد استخدمت في إخضاع منطقة زيان كما هو الشأن بالنسبة للمناطق الأخرى المتشبثة باستقلالها وحريتها، أساليب العنف المميزة لكل الحروب الاستعمارية، بحيث كتب الجنرال **غورو Gouraud** قائلا"**إن التجربة تؤكد أن الاحتلال المفروض بالسلاح يكون أقوى وأطول من الاحتلال الذي يتسلل بالطرق السلمية الصرفة، فالمجهودات تعطي دائما نتائج إيجابية**"[3].

3 - التحكم في نقط الماء:

باستيلاء الاستعمار الفرنسي على الأراضي الخصبة بزيان وسهل تادلة، أنشأ المعمرون الأوربيون مشاريع فلاحية تحتاج إلى المياه، حيث كانت الأراضي المسقية بمياه المنابع تزرع فيها الخضر وأشجار الفواكه والكروم[4]. ولهذا تخيل الفرنسيون أن بإمكان زيان غلق أو تحويل جريان هذه الأودية، وإذا حدث ذلك كليا أو جزئيا فإن معناه إلحاق أضرار بالمنتوجات الفرنسية، لذلك كان متوقعا قيام الفرنسيين بشن غارات متتالية لإزاحة الزيانيين من تلك المواقع التي فاقت في أهميتها المستوى الاستراتيجي والعسكري.

ومن أجل تنفيذ فعال لعملية المراقبة والضبط. قامت الإدارة الاستعمارية بإصدار مجموعة من القرارات هدفها التركيز على ضرورة الهيمنة على نقط الماء التي تعتبرها الإدارة

1- محمد بن لحسن، "المقاومة بالأطلس المتوسط بقيادة موحا وحمو الزياني (1907-1921م)"، **موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب**، الجزء الأول، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، الرباط، 2005، ص، 132.

2- الملكي المالكي، **الغزو الاستعماري ومقاومته في الأطلس المتوسط(1913-1930)**، الجزء الثاني، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس الرباط، تحت إشراف أحمد التوفيق، الموسم الجامعي 1986-1987، ص، 927.

3- عياش ألبير، م.س، ص، 380.

4- نفسه، ص، 182.

الفرنسية إستراتيجية، ومنها القرار الوزيري بتاريخ 22 يناير 1916 المتعلق بالمحافظة على المياه المعدة لحاجات سكان المدن والقرى، حيث جاء في الفصل الأول منه ما يلي: «**يمنع منعا كليا الاستحمام والاغتسال في السواقي أو غسل الثياب وغيرها، كما يمنع أيضا غسل ما ذكر على مسافة تقل عن عشرة أمتار منها، كما يمنع المرور على السواقي والقنوات غير المسقفة بالحيوانات، كما يمنع تحويل قسم من الماء بغير إذن من الإدارة المتملكة أو المكلفة بحراستها**»[1].

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اعتبرت الإدارة الاستعمارية أي تعد على منابع الماء جناية تستدعي العقوبة والغرامة، وهذا ما نجده في الفصل الثاني من نفس القرار المشار إليه أعلاه، والذي جاء فيه «**أن كل من خالف مقتضيات هذا القرار يعاقب وفق الشروط المنصوص عليها بالفصل الثاني من الظهير الشريف المؤرخ بـ 22 يناير 1916**»[2]. إن هذا النوع من الإجراءات الزجرية هو القادر على التحكم في نقط الماء حسب تصور الإدارة الاستعمارية. ومن ذلك نستنتج أيضا السعي الجاهد للإدارة الفرنسية للوصول إلى مرحلة تصبح معها قادرة على بسط سيطرتها على الموارد المائية.

4 - فرض الضرائب:

عمل المستعمر الفرنسي في إطار عملية الإخضاع على استصدار عدة تشريعات تهم الضرائب، وفي هذا المجال أقر ضريبة الترتيب، التي أتاحت للسلطة الاستعمارية الفرصة لاستعادة نفقات القوات المسلحة التي جندتها بالمنطقة وتوفير الأرصدة المالية لتمويل التجهيزات والخدمات التي تقوم بها بالمنطقة، وفي ظل هذه الوضعية البئيسة التي استنزفت الإنسان الزياني وامتصت مدخراته بمستلزمات الترتيب، لم تزد الرعية إلا فقرا ومجاعة، زد على ذلك دور الشيوخ والقواد في عملية ضبط الترتيب، والتي كانت ترتكز أساسا على سلطتهم في مجال نفوذهم. فقد فرض قواد ناحية لقباب بمؤازرة الحاكم وتأييده عشرين رأسا من ذكور الغنم على كل شيخ من الأشياخ الذين يبلغ عددهم بلقباب أربعة عشر شيخا. يضاف لهذا أصناف من السمن ومآت من الدجاج وألوف من البيض وقدر باهظ من النقود. كل هذا يوزعه شيوخ القبيلة الأربعة عشر على إيالتهم ويجمعونه من أفراد هذه الناحية الذين

1-**الجريدة الرسمية**، العدد 161، السنة الرابعة، بتاريخ 29 مارس 1916، ص، 424.

2- نفسه.

لا يحصل غالبهم على قوت يومه إلا من حطب وقلع الدوم وبيع الحبال وغير ذلك من الأعمال الشاقة[1].

ومن أجل تعميق الأزمة لإخضاع القبائل الزيانية، أحدثت السلطات الاستعمارية ضرائب أخرى أثقلت كاهل الإنسان الزياني، ومنها: إعانات لإصلاح وإنشاء الطرق والبنايات الرسمية كالمراقبة المدنية والدرك ودار القائد. ثم التويزة التي كانت تفرض الخدمة على نساء ورجال القبيلة في المناجم أو في أراضي المعمرين الكبار والباشوات والقواد[2]. وقد أدرجنا في هذا السياق ظهيرا شريفا بتاريخ 10 يوليوز 1954 يتعلق بسن الضريبة الشخصية، جاء في الفصل الثاني منه ما يلي: إن عدد أيام الخدمة المفروضة خلال سنة 1955 على كل شخص ملتزم بالأداء المذكور يحدد بأربعة أيام، أما الفصل الثالث من نفس الظهير فقد حدد الأداء في 220 فرنكا عن كل يوم من أيام الخدمة[3]. بالإضافة إلى بعض الهدايا الإلزامية عينا أو نقدا بمناسبة مرور الشخصيات المرموقة[4].

خاتمة:

يكشف الحديث عن المشاريع الاستعمارية التي تناولناها في هذا المقال تداخل مكوناتها، وقد وفرت هذه المشاريع أرضية خصبة لعملية التطويع والاحتلال. وعموما فإن تسليط الضوء على المشاريع الاستعمارية ضروري وأساسي لاستيعاب استراتيجية الإخضاع، وفي هذا السياق وضحنا بأن الخطط الاستراتيجية في عملية المشاريع نابعة من الوعي بطبيعة المنطقة وأهميتها في تثبيت الاستعمار، وتتبعنا بعض المشاريع الاستعمارية المهمة ومدى مساهمتها في عملية العزل والمحاصرة ومن ثم الاحتلال. حققت هذه السياسة قدرا كبيرا من النجاح، لكن الروح القتالية والتشبث بالحرية والاستقلال لدى القبائل الزيانية أدت إلى نتائج عكسية، بل وكلفت المستعمر الفرنسي خسائر فادحة في العتاد والأرواح وخاصة بمعركة لهري الشهيرة، وما معركة لهري إلا استمرارا لمعارك عدة خاضتها القبائل الزيانية بمجالها وخارجه. من هنا نؤكد أن المقاومة الزيانية فرضت على القيادة العسكرية الفرنسية مدة الحرب الطويلة، رغم الحصار الخانق.

1- المتجول، "ضريبة جديدة بلقباب"، **الرأي العام**، العدد 52، السنة الثانية، 1948.

2- عياش ألبير، م.س، ص، 350.

3- **الجريدة الرسمية**، العدد 2197، السنة الثالثة والأربعين، بتاريخ 03 دجنبر 1954، ص، 3299.

4- عياش ألبير، م.س، ص، 350.

لائحة المصادر والمراجع:

- **بالعربية:**

أ- الكتب والمقالات

1. احفيظ فنيدي، "التحكم الاستعماري في منطقة زيان تفكيك بنيات المجتمع من خلال الضغوط الاقتصادية"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907- 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص ص، 115-119.
2. أحمد أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1967.
3. أحمد العلمي، "صفحات من مقاومة قبائل زيان للاستعمار الفرنسي مقاومة موحا أوحمو"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907 - 1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، ص ص، 89-94.
4. أحمد العلمي، **حركة تحرير الأطلس**، مطبعة الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1979.
5. أحمد بن خالد السلاوي الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء التاسع، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.
6. بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945**، مطابع الرباط، نت، 2013.
7. جورج أوفيد، **اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية 1905-1955**، ترجمة محمد الشركي ومحمد بنيس، مراجعة عبد اللطيف المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987.
8. ريمي لوفو، ***الفلاح المغربي المدافع عن العرش***، ترجمة محمد بن الشيخ، مراجعة عبد اللطيف حسني، منشورات وجهة نظر، سلسلة أطروحات وبحوث جامعية(2)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2011.
9. سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان**، ترجمة محمد بوكبوط، منشورات الزمن، مطبعة بني ازناسن، سلا، المغرب، 2014.
10. شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب 1883-1884**، ترجمة المختار بلعربي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.
11. عبد القادر بوراس، "الكتابات الاستعمارية والمقاومة في الأطلس المتوسط (مقاومة موحا وحمو الزياني نموذجا)"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907- 1956م، أيام**

11- 12- 13 نونبر 1999، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، صص، 73-85.

12. عياش ألبير، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونورالدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985.

13. فرانسوا بيرجي، **موحا وحمو الزياني(1877-1921)**، ترجمة وتعليق محمد بوستة، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة الأولى، 1999.

14. محمد بن لحسن، "التدخل الاستعماري الفرنسي في الأطلس المتوسط معركتا تاقا إيشيعان والبقريت نموذجا (1914- 1921م)، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907-1956م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، صص، 141-148.

15. محمد بن لحسن، "المقاومة بالأطلس المتوسط بقيادة موحا وحمو الزياني(1907-1921م"، ضمن **موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب**، الجزء الأول، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، الرباط، 2005، صص، 128-133.

16. محمد بن لحسن، **معركة لهري (13 نونبر 1914) صفحات من الجهاد الوطني**، مطبعة انفو برانت، فاس، الطبعة الأولى، 2001.

17. محمد بن لحسن، **نظرية المقاومة من خلال مخطوطة كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، دراسة تنظيرية مع توثيق النص**،أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، تحت إشراف الدكتور لحسن أغزادي، الموسم الجامعي 1997 - 1998.

18. محمد بنجلون، "محطات من أمجاد الأطلس المتوسط وفي جهاد قبائل خنيفرة ومقاومتها للاحتلال"، ضمن **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907 – 1956 م، أيام 11- 12- 13 نونبر 1999**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001، صص، 45-55.

19. محمد بوستة، "معركة لهري امتداد لمعركة خنيفرة"، ضمن **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، العدد 53، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د.ت.

20. الملكي المالكي، **الغزو الاستعماري ومقاومته في الأطلس المتوسط(1913-1930)**، الجزء الثاني، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس الرباط، تحت إشراف أحمد التوفيق، الموسم الجامعي 1986-1987.

21. المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق محمد بن لحسن، تقديم مصطفى الكتيري، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرام، الرباط، الطبعة الأولى، 2004.

ب- الجرائد:

1. **الجريدة الرسمية**، العدد 161، السنة الرابعة، بتاريخ 29 مارس 1916.
2. **الجريدة الرسمية**، العدد 215، السنة الخامسة، بتاريخ 11 يونيو 1917.
3. **الجريدة الرسمية**، العدد 311، السنة السابعة، بتاريخ 14 أبريل 1919.
4. **الجريدة الرسمية**، العدد 596، السنة 11، بتاريخ 30 شتنبر1924.
5. **الجريدة الرسمية**، العدد 645، السنة الرابعة عشر، بتاريخ 03 مارس 1925.
6. **الجريدة الرسمية**، العدد 696، السنة الخامسة عشر، بتاريخ 23 فبراير 1926.
7. **جريدة السعادة**، العدد 6641، السنة 43، بتاريخ 18 مارس 1946.
8. **جريدة السعادة**، العدد 6642، السنة 44، بتاريخ 6 يناير 1947.
9. **جريدة الرأي العام**، العدد 52، السنة الثانية، 1948.
10. **جريدة الرأي العام**، العدد 148، السنة الثالثة، بتاريخ 14 أبريل 1950.

ت- المصالح الإدارية:

1. المديرية الإقليمية للفلاحة بخنيفرة.
2. مديرية التجهيز، قسم المياه، خنيفرة.

ث- الخرائط:

- الخريطة الطبوغرافية لخنيفرة بمقياس 1/100.000.
- الخريطة الطبوغرافية لمريرت بمقياس 1/100.000.

بالفرنسية:

1. Badault George, « Etude des conditions Atmosphériques de la compagne Agricole 1944-1945 », **Bulletin économique et social du Maroc**, Publié par la Société d'études économiques et statistiques, N°26, 1945, pp, 55-66.
2. Etude Hydrologique du Haut Oum Rabia, Direction de la recherche et de la planification de l'eau, 1984.
3. Georges Colin, "origine Arabe des grands mouvement de population Berbères dans le Moyen Atlas", **Hespéris**, Archives Berbères et Bulletin de L'Institut des Hautes-études Marocaines, Vol 5, Librairie Larose, Paris, 1938, p, 265-268.

4. Guillaume G**, Les berbères Marocains et la pacification de l'Atlas central (1912-1933)**, René Julliard, Paris, 1946.
5. Hassan Ramou, « Essai d'interprétation de quelques termes amazighes du relief », **les termes géographiques amazighes**, Publication de l'Institut Royal de la Culture Amazigh, El Maarif Aljadid, Rabat, 2011, pp, 65-78.
6. Jaques Martin, **Société d'études techniques et d'ingénierie emménagement de « la forêt d'Ajdir**», étude préliminaire, 2001.
7. Jean Pichon, **Le Maroc ou début de la guerre Mondiale, El-Herri (Vendredi 13 Novembre 1914)**, Librairie Militaire Charles-Lavauzelle, Paris, 1936.
8. Le Glay Maurice, **Les sentiers de la guerre et de l'amour**, Edition Berger Levrault, Paris, 1930.
9. Lieutenant Pillant, « Notes Contributives à L'étude de la Confédération Zaian », **Archives Berbères**, V IV, Publication du Comité d'études Berbères de Rabat, Maison Ernest Leroux, Paris, Année 1919-1920, pp, 88-124.
10. Mohamed Ben lahcen ,**Moha ouHamou Zayani**, **l'âme de la résistance marocaine à la pénétration militaire française dans le Moyen Atlas** (**1908 -1921**),imp. Info - Prient, Fès, 2000.
11. Mohammed El Idrissi, **Projet de développement Agricole de khenifra, Etude pédologique au 1 100.000**, Ministère de L'agriculture et de la réforme Agraire, Institut National de la recherche Agronomique, 2007.
12. Paul Belot, **Trente ans de Baroud**, B. Arthaud, Paris, 1945.
13. Rapport mensuel d'ensemble du protectorat, situation politiques et militaire du Maroc occidental et du Maroc oriental, Résidence Générale de la République Française au Maroc, Direction du Service des Renseignements, juin 1914.
14. Said Guennoun, **La montagne berbère les Ait oumalou et le pays zaian**, Comité de L'Afrique Française, Paris, 1929.

الأشغال العمومية وأثرها في التحولات السيوسيو- اقتصادية في بلاد الشاوية: 1907-1925م.

د: عبد العلي المتليني[1]

مقدمة:

شكلت بلاد الشاوية خلال أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م، مجالا حظي بعناية واهتمام كبيرين من التجار الأجانب وعلى رأسهم الفرنسيين والإنجليز وبعض باقي الأجناس الأخرى، بدعم ومساندة من دولهم، التي حكمها منطق السيطرة والاستعمار منذ بداية التحكم الاقتصادي والتجاري، التي أطرتها الاتفاقيات غير المتكافئة باعتبارها القاعدة الأساسية لتنافس القوى العظمى حول المغرب، في أفق السيطرة ومد النفوذ، الذي تمكنت فرنسا من تحقيقه خصوصا بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء، الذي أنهى استقلال المغرب، وأدخله في دوامة التبعية الفرنسية، في ظل تعاظم أطماع القوى الكبرى، وتزاحمها للبحث عن موطئ قدم لها بالضفة الجنوبية للمتوسط، وعلى رأسها ألمانيا، التي أعلنت نفسها كمدافع عن المغرب بعد زيارة الإمبراطور كيوم الثاني لطنجة، حيث أعلن خلالها في خطاب رسمي" أن المغرب بلد مستقل ولا يحق لأي دولة أجنبية أن تمارس وصايتها عليه"، إلا أن الاستراتيجية الفرنسية بمختلف آلياتها تمكنت من التحكم في الأمر، وإبعاد ألمانيا بشكل سمح لها بالانفراد بالمغرب بعد فرض الحماية عليه في 30مارس 1912م، التي سمحت لفرنسا بناء على بنودها بالإشراف على مجموعة من الإنجازات في مجموعة من الميادين، وخصوصا منها البنيات التحتية، إذ كانت هي الأساس الذي ستعتمده في استراتيجيتها لاستغلال خيرات البلاد، والسيطرة على مختلف المناطق التي تتوفر على ثروات طبيعية وعلى رأسها منطقة الشاوية، التي اعتبرت مجالا خصبا وذو أولوية أساسية إلى جانب باقي المناطق الغنية، التي تدخل فيما اصطلح على تسميته في الأدبيات الأجنبية بالمغرب النافع، فما هي الآليات الاستراتيجية التي اعتمدتها فرنسا لاستغلال مجال الشاوية؟ وكيف ساهمت الأشغال العمومية في إخضاع الشاوية وباقي بلاد المغرب؟ وما هي التحولات التي أحدثتها هذه المؤسسات والمصالح العمومية لإدارة الحماية الفرنسية في بلاد الشاوية؟

---

[1]. باحث في التاريخ المعاصر، أكاديمية جهة فاس مكناس.

أولا. بلاد الشاوية: الموقع والخصائص البشرية والاقتصادية.

1. بلاد الشاوية: مميزات الموقع وخصائص الموضع:

أ. مميزات الموقع:

توجد بلاد قبائل الشاوية جنوب الدار البيضاء وإلى غاية مشرع بن عبو[1]، عرفت هذه المنطقة تاريخيا باسم "تامسنا"، وكذلك ظلت تعرف إلى غاية انصراف عقود كثيرة من قيام الدولة العلوية[2]، وهي كلمة أمازيغية تعني "البسيط الخالي"، فتمتد بالضبط من واد الشراط إلى أم الربيع، يحدها شرقا منطقة تادلا، ثم إقليم بني أحسن في الشمال، والبحر المحيط في الغرب، وأخيرا إقليم دكالة في الجنوب، ظل هذا التقسيم معمول به إداريا ببلاد تامسنا إلى غاية القرن 18م، مع سيدي محمد بن عبد الله[3].

تبرز أهمية سهل الشاوية في انتمائه إلى السهول الساحلية الأطلسية الوسطى، بحيث يتميز عموما بسهولة الاتصال نسبيا بشواطئه، ويتوسط بين مجالين مهمين، هما: الحوز والغرب[4]، وعاصمتين تقليديتين للمغرب هما : فاس ومراكش، فسهولة مسالكه جعله على الدوام معبرا لتنقلات المخزن بين الشمال والجنوب الغربي، علاوة على هذا، أهميته البالغة من الناحية الاقتصادية والبشرية، التي جعلته منطقة مثالية للدولة المغربية، لذلك كانت هذه الحقيقة التاريخية/الاقتصادية محط اهتمام منظري الاستعمار الفرنسي بالشمال الإفريقي في النصف الثاني من ق19م، فركزوا على اثر هذه المقومات أطماعهم على هذا المجال المغربي الغني والخصب[5].

---

1 Brives .A, Voyage **Au Maroc 1901-1907**, Imprimeur Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1909, P.18.

2Mission Scientifique Du Maroc, **Archives Marocaines**, Publication De La Mission Scientifique Du Maroc, Volume X, Paris, 1907, P.309.

3 الخديمي علال، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894-1910: حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1994، ص.110.

المعروفي هاشم، **عبير الزهور في تاريخ الدار البيضاء وما أضيف إليها من أخبر وأنفا والشاوية عبر العصور**، الطبعة الأول، الجزء الأول، 1407هـ/1987م، ص.30. جعلها المعروفي بالمجال نفسه، بين ساحل سلا، وآنفا، وأزمور، أسفي، وبين وادي أم الربيع، ووادي أبي رقراق.

4 من أبرز حواضرها اليوم، بالإضافة إلى الدار البيضاء: سطات، والبروج، و بن احمد، وبن سليمان"Boulhaut" ، والكارة في إقليم برشيد "Boucheron" .

5الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.110.

ب . خصائص الموضع:

برزت أهمية منطقة الشاوية بخصوبة أرضها وغزارة الإنتاج وجودته، يرتبط هذا التميز بانتشار التربة السوداء(الترس) في معظم أراضيها، إذ تشغل 2/3 من مجموع مساحته ومساحة سهل دكالة الذي يفصله عنه نهر أم الربيع، ذو الفيضانات المهولة في فصل الشتاء(يبلغ الصبيب 1116م^3/ث)[1]، يتسع مجال الشاوية مقارنة بسهول الشمال التي تتميز بضيقها، بسبب مزاحمة جبال الريف لها[2]، واستنادا إلى ابن خلدون حسب الخديمي فهي البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش، يتموقع في أواسط المغرب الأقصى، يسجل هذا السهل متوسط تساقطات يتناسب مع المعدل الوطني، المحددة في 600ملم/س ،والتي حققها في 1890م، وارتفعت إلى 807ملم/س عام 1899م[3].

يبقى سهل الشاوية جزءا من السهول الأطلسية الممتدة تقريبا على مساحة 800 كلم، أورد "هنري دبي" ما نصه: «**تقدم هذه السهول أراض مديدة، قابليتها للزراعة أكبر من قابلية السهول الجزائرية التونسية**[4]»، وبعرض نحو الداخل يتراوح ما بين 80 و100كلم، إذ تسمى هذه السهول: الغرب(العرائش إلى الرباط)، والشاوية (الدار البيضاء)، ودكالة (الجديدة)، وعبدة والرحامنة (اسفي)...[5].

1Cousin Albert Et Saurin Daniel, **LE Maroc**, Librairie Du Figaro, Paris, 1905, P.23.
2Triki Loubna, **L'Artisanat Berbère : Permanence Des Matériaux-Symbolisme Des Formes-Etude Historique Et Anthropologique De L'antiquité À Nos Jours**, Thèse En Vue De L'obtention Du Doctorat, Université De Paris Ouest Nanterre La Défense, Année Universitaire 2013-2014, P.171.
3 Cousin Albert Et Saurin Daniel, **Op.Cit**, P.29.
4 دبي هنري، **المراسي المغربية في مطلع القرن العشرين وتجارتها مع فرنسا**، ترجمة حسن أميلي وعادل يعقوب، سلسلة دفاتر البحث العلمي رقم 18، الطبعة الأولى، كلية الآداب المحمدية، 2014م، ص.24.
5 Cousin Albert Et Saurin Daniel, **LE Maroc**...., Op.Cit,P.13.

2. أصول قبائل الشاوية[1] ومكوناتها البشرية:

أ. أصول قبائل الشاوية:

عمرت القبائل الأمازيغية الشمال الإفريقي عبر التاريخ، من بني يفرن ومغراوة وبني يزناسن...، إلى جانب الطوارق والقبائل والمزابية، ومن ضمنها قبائل الشاوية[2]، وهي من قبائل مصمودة، إقليم تامسنا التاريخي، موطن بلاد الشاوية الآن، وخاصة موطن قبائل بورغواطة وغمارة[3]، التي تمكن المرابطون من القضاء عليها، فتفرقت جموعهم أكثر في عهد عبد المومن الموحدي(1147-1163 م)، فلم يعد يدل على وجودهم سوى أطلال حصون مندرسة، بحيث ضمت حسب الوزان ما بين 400 مدينة و300 حصن،

وفي عهد يعقوب المنصور الموحدي(1184-1199م)، أنزل بديارهم قبائل عربية من جشم وبني هلال...، لكن هذه القبائل لم تتخذ الشاوية مسكنا نهائيا لها، فقد تشتت بين تادلا (بني جابر) والغرب (الخلط وسفيان) ...، وفي عهد يعقوب بن عبد الحق المريني (1258-1286م) تم طرد القبائل العربية من هذه المناطق، واستبدلها بزناتة وهوارة لمناصرتهم دولته ضد الموحدين[4].

ب . تقسيمات قبائل الشاوية:

ظلت القبائل المؤلفة لاتحادية الشاوية إلى غاية القرن 18م، موزعة إلى ثلاث مجموعات:

. **أولاد بورزك**: تضم قبائل المزامزة، وكدانة، وأولاد سعيد، وأولاد بوزيري، وأولاد سيدي بنداود، ثم زناتة.

. **أولاد بوعطية:** تضم المزاب، والمذاكرة، وأولاد حريز[5].

. **الشهاونة:** وتشمل مديونة، وأولاد زيان، والزيايدة.

---

1 تعددت الروايات بخصوص معنى "الشاوية"، فمنها من يتحدث على أنها أطلقت على بعض القبائل التي كانت تتعاطى رعاية ماشية السلطان، أما البعض فاستند إلى روية الناصري نقلا عن ابن خلدون، الذي يعتبر"الشاوية" من ولد "حسان بن أبي سعد الصبيحي" نسبة إلى "صبيح"، بطن من بطون "سويد"، و"سويد" إحدى قبائل "بني مالك بن رغبة الهلاليين"، ودخل حسن المذكور إلى المغرب أيام السلطان "يعقوب بن عبد الحق المريني". الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.113.

2 Triki Loubna, **Op. Cit**, P.1.

3المعروفي هاشم، **المرجع السابق**، ص.30.

4الخديمي علال، **المرجع السابق**، م.س، ص.113.

5 **نفسه، ص.114.** تألفت الشاوية من 100 دوار، موزعة على أولاد بوزرك بـ 50 دوارا، واقتسم المكونان الآخران بالتساوي الخمسين المتبقية، أما الترتيب الاجتماعي والاقتصادي للقبيلة فكان يبدأ بالخيمة، فالدوار، ثم القبيلة.

ويضيف الخديمي انه وقف على تسويد في أحد الكنانيش توجز أقسام الشاوية في قسمين، يتمثلان في أولاد بوعطية، وأولاد بوزرك[1]، وبناء على هذا كان التقسيم سنة 1889-1890م[2] على الشكل التالي:

أولاد بوعطية (نصف الشاوية)			اولاد بوزرك(نصف الشاوية)		
القيادة	القبائل	عدد الدواوير	القيادة	القبائل	عدد الدواوير
ابن رشيد	أولاد حريز، المذاكرة	12,5	الحاج المعطي المزامزي.	. المزامزة.	13
. أحمد بن العربي المديوني	،أولاد علي.	18	. أولاد سعيد.	. أولاد سعيد.	13
. محمد بن أحمد[3] المزابي.	. مديونة، أولاد زيان.	12,5	. أولاد بوزيري.	. أولاد بوزيري.	13,75
. الزيايدة	مزاب، الأعشاش.	7	. أولاد سيدي بنداود.	. أولاد سيدي بنداود.	2,25
	الزيايدة، وبني ورى.		. زناتة.	. زناتة.	08
		50			50

3. سكان الشاوية (الدار البيضاء نموذجا):

بلغ عدد سكان الدار البيضاء سنة 1857م حوالي 1200 نسمة، ووصل العدد سنة 1885م إلى 21000نسمة، ثم إلى 30 ألف سنة 1907م، وقد أسهم التطور التجاري للمدينة في ارتفاع مطرد لهؤلاء، فتوافد عدد كبير من سكان القبائل المجاورة علها، من زناتة ومديونة وغيرهما، وخاصة في ظل حاجة التجار بها إلى مزيد من العمال، من اجل مواكبة الإفراغ

1**نفسه**، ص.115.

2**نفسه**، ص ص.116-117.

3 المعروفي هاشم، **المرجع السابق**، ص.332.

والشحن في الميناء، وللحاجة إلى الحرفيين لارتفاع الطلب على بناء المساكن، فتكونت على إثرها طبقة واسعة من العمال الذين تألفت منهم الساكنة، من صغار الحرفيين ، وأصحاب الحوانيت، والحمالين والبحارة[1]...

وعلى مستوى الجاليات الأجنبية، فقد اقتصر تواجدهم في البداية على ممثلي التجار بالمدينة، ثم تسارعت مؤشرات ارتفاع أعدادهم لتبلغ 77 أجنبي سنة 1856م، و100 نسمة في 1867م، ثم 215 سنة 1878م، هذه الأخيرة التي عرفت مغادرة كثير منهم بسبب وباء الكوليرا والجفاف الذي أصاب المدينة وعموم المغرب، لتحدث بعدها تحولات جذرية في المؤشرات ويصل عددهم 1000 نسمة سنة 1907م[2]، وبعد أربع سنوات من الحماية (1915م)، كان مجموع الساكنة75.200 منهم 44.000 من الأهالي، و31.200 أوروبيين.

ثانيا. نصيب الشاوية من الأشغال العمومية: الإمكانيات وخريطة الإنجازات في عهد ليوطي (1912-1925م).

لم يكن ليخف على فرنسا ما كان للشاوية والدار البيضاء من أهمية بالغة من الناحية الاقتصادية، والواقع أن الرأسمال الفرنسي كان قد بدأ في التوافد والتوغل في المنطقة والمغرب عموما منذ 1903م، تجسيدا لرغبة فرنسا في الاستئثار بهذه السوق، ثم بالتزامن مع إقراض المغرب بمبلغ 62,5 مليون فرنك سنة 1904م، بضمانات حددت في عائدات جمارك الموانئ المغربية[3]، وفي السياق نفسه كانت الثغور المغربية محط أنظارها وتشوفها، لهذا أنجزت دراسات مهمة كان ثغر البيضاء جزءا لا يتجزأ منها، فقد أوفد الحاكم الفرنسي "جونار" السيد "أوكست برنار" إلى المغرب لهذه المهمة، وإنفاذا لهذا المخطط سنة 1904م، أرسلت بعثة برئاسة "M.P Lemoine" لتقييم الوضع بالدار البيضاء، حيث ابرز في تقاريره

---

1 مكن هذا التوسع الدار البيضاء، من أن تكون لها على غرار الحواضر الكبرى إدارة محلية، شملت **العامل** ممثل المخزن الذي يسهر على امن المدينة، و**الخليفة** الذي يساعده عدد من العساكر، **ومقدمي** الأحياء، **ثم شيخ اليهود** المكلف بالملاح ...، ثم **القاضي** الساهر على إنفاذ الأحكام الشرعية يساعده عدلان، و**المحتسب** الذي يراقب الأسواق، و**أمين المستفادات** الذي كان مكلف بالجبايات، و**ناظر الأحباس** الذي يدير الأملاك الحبسية، **وأبو المواريث** الذي يدير أملاك من لا وارث له، و**أمين الرباع** الذي كان يكلف بأملاك المخزن.

2الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.148.

3 Kninah Abdeslem , **Image(S) Française (S) Du Maroc Avant Le Protectorat (19et 20s)**, Thèse Pour Obtenir Le Garde De Docteur , L'Université De Site d'Avignon De Pays De Vaucluse, Année Universitaire 2015-2016, P.304.

مؤهلات الميناء الاقتصادية، وخصائص الموقع من الجانب العسكري، وموقف السكان والمخزن من الأجنبي، وأهميته في إنجاح أي تدخل عسكري بالمغرب مستقبلا[1] .

1. السياق العام لظهور الأشغال العمومية بالشاوية قبل الحماية.

ظلت منطقة الشاوية عبر الزمن من المناطق الاقتصادية المهمة للمخزن، وبشكل أكثر وضوحا خلال القرن 19م، فحجم ما كانت تقدمه من واجبات الزكوات والأعشار يتجاوز 150 ألف ريال، وكانت مقسمة بين قبائل الشاوية المذكورة[2]، ولعل هذا المقوم هو الذي جعلها تشهد نهبا لثرواتها، واستغلالا لخيراتها من قبل الرأسمال الأجنبي قبل الاستعمار الفرنسي، على يد حفنة من التجار الذين زاحموا السكان في قوتهم اليومي، وشاركوهم فيما يملكون، بواسطة الحماية القنصلية أو المخالطة وغيرهما، في ظل ما اتسمت به من خصوبة لتربتها، وغزارة في إنتاجها، فقد اشتهرت بإنتاج الحبوب والأصواف والمواشي[3]، التي كان معظمها أساس العلاقات التجارية بهذا السوق مع معظم الأوروبيين[4]، وكانت كغيرها من القبائل تسهم في كلف الحركات السلطانية، سواء ببلادها أو غيرها من البلدان، ناهيك عن تقديم هدايا الأعياد للسلطان ،وباقي الكلف المخزنية والخدمات التسخيرية الأخرى[5] .

وقع المخزن مع الجمهورية الفرنسية عقد قرض سنة 1904م[6]، ومن الضمانات التي قدمها المغرب حينها، إشراف وكلاء فرنسيين على جمارك الموانئ المغربية إلى جانب أمناء

1الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.146.

2**نفسه**، ص.118.

3 De Campou Ludovic, **Un Empire Qui Croule : Le Maroc Contemporain**, Librairie Plon, Paris, 1886, P.243.

-Direction De La L'intérieur (Section Sociologique) , **Enquête Sur Le Prolétariat Marocain**, Avril 1950, Cahier 91/A, Boite N° 2MA/1/198, P.20.

4الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.130.

5 **نفسه**، ص ص.131-132. دأب قائد أولاد حريز والمذاكرة وأولاد علي على تقديم هدية العيد للسلطان في شكل أعطية من 200 ريال حسني في عيد الفطر والأضحى، أما مؤونته عند المرور بتراب المنطقة فتشمل جمال الشعير، والأكباش، وأرطال السمن، ثم خناشي الدقيق، زد على ذلك حفظ قسط من ماشية المخزن من ابل وخيل وبغال، إذ بلغ عدد رؤوسها لدى الشاوية سنة 1896-1897م حوالي 268 جمل، وحوالي 288 بغل...، الشيء الذي يبرز ضخامة المجهود التسخيري الذي كان مفروضا على سكان قبائل الشاوية.

6في عهد السلطان المولى عبد العزيز(1984-1907م)، اتفق المخزن مع الفرنسيين على القيام ببعض التحديثات على مستوى وسائل المواصلات والمراسي، التي شهدت نشاطا تجاريا كبيرا، ومنها على سبيل الأهمية ميناء الدار البيضاء، وكان إقدام المخزن على القبول بهذه الاستثمارات الأوروبية في المغرب إن صح التعبير، منشؤه تواتر طلبات الدولة المغربية على القروض من الأوروبيين، الذين وظفوها على أخس الأوجه للنيل من حرية المغرب واستقلاله، وكان ابرز القروض التي ارتبطت بهذه

الموانئ، لمراقبة المداخيل التي ستستخلص منها النسبة المتفقة عليها (60%)، من مجموع إيرادات هذه المراسي[1]، حسب الفصل 12 من العقد، وفي 1905م قاد "سان روني طايندي" حملة منظمة تبتغي دفع السلطان للقبول بتجهيز الموانئ المغربية، لتسهيل التجارة فيها وتنشيطها، ووقعت هذه الحملة بالموازاة مع إعداد الفرنسيين لمخططات تدفع المخزن للقبول بهذه المشاريع، وكان في صدارتها تجهيز وتطوير ميناء الدار البيضاء، الذي وضع المهندس "رينو" رئيس المصلحة الهيدروغرافية للبحرية رسمه، جاعلا نصب عينيه بناء رصيف للميناء، ومخازن جديدة به، لكن تخوف المخزن من ردود فعل المغاربة، ومن النوايا الحقيقية للفرنسيين، أجلت المصادقة على الإنجاز إلى غاية 1907م، التي سميت فيها الشركة الفرنسية "Creusot"[2]، ووقع معها "محمد الطريس" عقد إنجاز أعمال البناء، حيث باشرتها في مارس من السنة نفسها، عبر إقامة خط للسكة الضيقة من الميناء إلى المحجر على طول 1500 متر، ووضعت عليها قاطرة من نوع "Decauville" لنقل الأحجار.

وفي سنة 1910م، ارتفع إلى علم كثير من قناصل الأجناس، وخاصة منهم القنصل الألماني خبر عزم فرنسا على إنجاز خط ثاني للسكة ببلاد الشاوية، وكان الفرنسيون يتوخون من ورائه ربط الدار البيضاء بسطات، وفعلا أصبح الأمر واقعا، عندما أعلنت الحكومة الفرنسية تحملها بشكل منفرد مصاريف إنجازه، وذلك إرضاء للمعمرين الذين توسعت مصالحهم بالشاوية منذ احتلالها سنة 1907م، في المقابل عزمت على إلزام سكان الشاوية على المساهمة في البناء، في إطار العمل الجماعي "الكورفي Corvée"[3]، وفي 1911م، تضمنت خطة جديدة تموين بعض مشاريع الأشغال العمومية بالمغرب، عبر تخصيص قرض جديد له بلغ 43 مليون

التحديثات على مستوى الأشغال العمومية القرض الفرنسي لسنة 1904م، ناهيك عن مؤتمر الخزيرات1906م، ثم الاتفاق الألماني الفرنسي لسنة 1911م.

1 Grasset Capitaine, **A Travers Le Corps De Débarquement De Casablanca (1907-1908)**, Librairie Hachette Et Cie, Paris , 1911, P.9.

2الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص ص.215-216. يقع المحجر بين المقبرة الغربية بسيدي بليوط وعين معزي.

-Grasset Capitaine, **Op. Cit**, P.9.

3 Ministère Des Affaires Étrangère , **Affaires Du Maroc 1910(Documents Diplomatique)**, Imprimerie Nationale, Paris, 1912,P.43.

فرنك، هم جزء منه بناء خط للسكة بين طنجة والقصر الكبير، ثم تجهيز مينائي طنجة والدار البيضاء، وبعض المنارات في الموانئ المغربية[1].

2. أولويات الشاوية في مخطط الأشغال العمومية عند الجنرال ليوطي(1912-1925م).

ساعد الاحتلال المبكر للشاوية من قبل الفرنسيين في تحمس سلطات الحماية في عهد ليوطي لإنجاز العديد من الأشغال العمومية بهذا الجزء من المغرب، فقد ساهم هذا الاحتلال ومنذ ذلك التاريخ في توفرها على ثغر بحري مهم بالمنطقة، صنف واسطة العقد بين الموانئ المغربية الأخرى، وهو الذي شهد تطورا تجاريا مهما طيلة القرن 19م[2]والى غاية بداية القرن20[3]، وكان التطلع لإنجاز برامج الأشغال بالشاوية وخاصة الميناء ناتج عن موقعه الاستراتيجي، الذي سيسمح للفرنسيين مستقبلا بالتدخل العسكري الاستعجالي وفي جميع الاتجاهات، وإمداد المتروبول بكل ما توفر بالبلاد من الموارد الثروات، لهذا وفر مرسى المدينة في هذا الإطار كل الوسائل التي كانت ستعين الفرنسيين على تلقي الإمدادات العسكرية واللوجستيكية من البحر، كما حدث عند التدخل سنة 1907م[4]، وفي المقابل حمل تطوير بنيته التحتية وعصرنتها للدار البيضاء ومعها الشاوية في أوائل القرن 20م كل أسباب الازدهار والتفوق الكبيرين، حتى إن كل زيادة في التجهيزات والأحواض والحواجز كانت تنبأ بأن المدينة أصبحت مقبلة على مختلف أسباب النمو والرقي الاقتصادي[5].

1 Ministère Des Affaires Étrangère, **Op.cit.**, P.100.

2الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.129.

3Becker Georges, **D'Algésiras Au Maroc D'aujourd'hui : Évolution Politique- Économique - Social**, Edition Berger – Levrault, Paris, 1930,P.76.

السنة	الميناء	العمليات المينائية	الكمية بالطن
السنة 1906م	الدار البيضاء	300	210.000
	الجديدة	260	190.000
	الصويرة	160	140.000
	اسفي	100	70.000
	الرباط-سلا	60	40.000

4الخديمي علال، **المرجع السابق**، ص.133

5Allainmat Norbert ,**Les Événements De Casablanca Et La Compagne De Chaouia 1907-1908**, Edition Frontispice , Casablanca , 2014 ,P.26.

يعتبر ميناء الدار البيضاء في هذا السياق، من الموانئ التي أعطت للشاوية الأهمية التي حظيت بها من لدن رجال الحماية، فحصل على الأسبقية ضمن مشاريع الأشغال الكبرى التي أشرفت عليها إدارة ليوطي بالمغرب، إلى جانب السكك الحديدية [1] والطرق المرتبطة به، فما إن وقع السلطان عقد الحماية(1912م)، حتى أسند ليوطي لعدة شركات عملية تطوير قدرات الميناء، ومنها "الشركة المغربية " في 25 مارس 1913م، والتي تأسست سنة 1902م برئاسة "بنك الاتحاد الباريسي و شركة شنايدر[2]"، فكلفت على الفور اللجنة التي أوكل لها بالبحث عن المكان المناسب لإنشاء هذا الميناء، وباختيار الموقع الذي يؤمن حركة المواصلات ما بين شمال المغرب وجنوبه.

نذكر بأن الأشغال الأولى لإنجاز الميناء انطلقت منذ سنة 1907م، وبحلول شهر شتنبر من 1912م كان تصميم الميناء جاهزا من قبل "كاستون ديلور" الذي هيأ لليوطي نموذجا مماثلا لميناء وهران، قد يمكن من تأمين حركة تجارية بحوالي مليون ونصف المليون طن[3] سنويا، وبناء عليه تم تخصيص 46 مليون فرنك كدفعة أولية لإنجاز هذا المشروع الضخم[4]، وحث ليوطي على ضرورة فتح الباب أمام مناقصة دولية للشروع في إنجاز الميناء، قبل مصادقة البرلمان الفرنسي على القرض المتضمن للإنجاز، وهو الذي حدث فعلا بتاريخ 25 مارس 1913م، وقدرت تكلفة الإنجاز في 44 مليون فرنك.

3. إنجازات ليوطي من الأشغال العمومية ببلاد الشاوية.

لعب مرسى الدار البيضاء[5] دورا بارزا في تطور العلاقات المغربية – الأوروبية منذ القرن 19م، إذ توفر على نقط إفراغ مهمة لأحجام مختلفة من السفن، وعزز من مكانته هذه،

---

1 Lugan Bernard, **Op. Cit**, P. 237.

2 عياش ألبير، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، منشورات دار الخطابي، سلسلة معرفة الممارسة، الطبعة الأولى، 1985م ،ص. 164.

3 بدر مصطفى، **بناء مرسى الدار البيضاء 1923.1913م**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب اكدال بالرباط، الموسم الدراسي 2003 . 2004. (مرقونة)، ص.34.

4Rivet Daniel, **Lyautey Et L'institution Du Protectorat FranÇais Au Maroc 1912- 1925**, Le Harmattan , Tome 1, 1988 ,P.247.

5 بقي ميناء الدار البيضاء ممنوع على الأجانب إلى غاية حكم عبد الرحمان بن هشام(1822-1859م)، الذي فتحه أمام التجارة الأوروبية ، بحيث سمح لعدة وكالات تجارية بفتح مراكز لها بالمدينة، مما أدى إلى تزايدها مع مرور الوقت، فساهم هذا في تصاعد النشاط التجاري لهذا الميناء، خاصة بعدما أسهمت الثورة الصناعية في نمو النشاط التجاري للقوى الإمبريالية في أوروبا وفي ما وراء البحار، وازدياد حاجة أوروبا إلى المواد الأولية والمنتوجات الزراعية ، خاصة من المغرب

انفتاحه على إقليم منبسط وغني يسمح بجلب المواد الأولية من كل الجهات، التي تحتاجها التجارة المحلية والخارجية، فشكلت على اثر ذلك الدار البيضاء نقطة ارتكاز للعديد من القوافل التجارية المغربية[1] ولسفن العديد من الأجناس الأوروبية.

لقد أنجز ليوطي بهذه الجهة ما لم ينجزه في غيرها، فتم إرساء شبكة حديثة للمواصلات والاتصال - وهو الذي وجد المدينة والمغرب خاليا منها[2]-، فغيرت بشكل جذري وجه الشاوية، وأضفت عليها طابع العصرنة، وأصبحت تضاهي مثيلاتها في الشمال الإفريقي وأوروبا الغربية.

اعتبر رجال الحماية ومنظريها أن الميناء عمود إنجاح كل الخطط التي انبنى عليها المشروع الاستعماري ببلاد المغرب، وظل ثلة من هؤلاء يرى فيه الخلاص الذي يحقق نجاح الاستراتيجيات التي أعدت في باريس، ونفذت بإحكام من قبل رجال مجربين ببيت وبناية الإقامة العامة، ورجالاتها المتصلون بها في الأقاليم والجهات، وسندنا في الذي نقول، هو استعجال هؤلاء إنجاز المشروع الميناني بالمغرب في وقت جد مبكر، فما كاد يهل هلال الحماية ويبزغ نجمها، حتى هرع هؤلاء مسرعين إلى مغرب الاستثناء -في هذا الباب داخل الشمال الإفريقي- لإعداد مشروع بناء المراسي وتطويرها، إذ أوفدت الحكومة الفرنسية سنة 1912م لجنة من المهندسين إلى الساحل الأطلسي، فحملت تصور مشروع تطوير هذه المراسي على وجه السرعة إلى باريس والرباط، وتضمنت تقارير اللجنة إلحاحا كبيرا على سرعة الإنجاز، وفعلا تحققت توصيتها بحلول العام المقبل(1913م)[3]، والغريب أن الحرب العظمى، ثم لجنة المغرب بالبرلمان الفرنسي، لم تكن لتثني رجال ليوطي عن التشبث باستمرار البناء والتجهيز، وخاصة بميناء الدار البيضاء[4]، الذي يمكن أن نصفه بحلم ليوطي ومحط رهانه، ومعقد آماله في النجاح في كثير من مهامه بالإيالة الشريفة، لتحقيق التنمية الاقتصادية العامة في المنطقة، وفي المغرب ككل، أورد "M.Tournier" في هذا السياق: «**إن إنشاء ميناء من وجهة**

الذي يتسم بقربه الجغرافي من أوروبا، الذي كان يتوفر في هذه الآونة على العديد من متطلبات السوق الأوروبية، كالأصواف الرخيصة ذات الجودة العالية، والحبوب...، ناهيك عن أن المغرب شكل سوقا مفتوحا لتصريف فائض إنتاجها، أو أسواق إفريقيا التي شكل على الدوام باب لهذه القوى لإمدادها بمنتوجاتها الصناعية.

1 . **الخديمي علال**، التدخل الأجنبي والمقاومة ....، م.س، **ص.133.**

2 Lyautey .H, **Paroles D'Action :Madagascar - Sud Oranais - Oran - Maroc, Paris(1900- 1926)** , Editions La Porte , Paris ,1995 , P.109 .

3 Becker Georges, **Op.Cit**,P.76.

4 Lyautey .H, **Op.Cit**, P.109 .

نظره، يخلق رواجا، فعندما تم إنشاء ميناء البيضاء، لم نكتشف بعد مناجم الفوسفاط، التي جلبت الكثير من الرخاء للمستعمرة (المغرب)[1]»، ولم يكن مشروع هذا الميناء إلا تتميما لمشروع بدأت فصول حكايته سنة 1907م، إذ خطط في البداية أن يبلغ طول رصيفه 1900م، وآخر مستعرضا بطول 1400م، وبينهما مدخل بسعة 250مترا، ثم ميناءً داخليا للركاب والمراكب الصغيرة[2]،وبنايات المخازن وباقي التجهيزات.

حظيت الطرق بالشاوية لدى مصالح مديرية الأشغال العمومية بالأولوية المطلوبة، بالنظر إلى أهمية هذا النوع من المشاريع المهيكلة، فجعلتها(الشاوية) نقطة ارتكاز لمختلف المحاور الطرقية الوطنية، وأفردتها القروض التي تحصلت عليها الإقامة العامة لإنجاز هذه المشاريع بالحظ الأوفر من اعتماداتها، سواء بالنسبة لقرض 1914(170مليون)، أو1916[3] (242 مليون)، وحتى في قرض 1920م(744 مليون)[4]، إذ أصبح المتتبع لسير الأشغال بهذه الجهة يميز بين طريق الموانئ(450كلم) المنتهية في معظمها إلى ميناء البيضاء، وطرق التوغل والاحتلال، التي سبق لجنود فرنسا بالشاوية رسم معالمها ومساراتها، ومنها إلى الرباط التي تصدر الجيش الفرنسي منها للوصل إلى فاس عبر زكوطة (250كلم)، ومن آثار هذه الإنجازات اختصار الطريق بين الرباط والبيضاء في ساعتين(90 كلم)، وبينها وبين الجديدة، ومع سطات.

سايرت عملية جعل الشاوية قطب الرحى في المشروع الطرقي للحماية بالمغرب، إضفاء الأهمية نفسها على الشاوية بخصوص خطوط السكة الحديدية، فمعظمها كان يخلص إلى هذه المدينة المتململة، المتعاظمة الشأن مع توالي الأيام، منذ أن أقدمت أجهزة الحماية على

---

1 Congrès Des Chambres De Commerce Et Des Chambres D'agriculture De La France D'outre-Mer, **Comptes Rendus Et Rapports**, Paris, 1931,P.301.

2 Ministère Des Colonies, **Conférences Franco-Marocaines**, Tome1er, Librairie Plan, Paris, 1916, P.140.

3وفي 2 فبراير 1916م قدم نائب مدير الأشغال العمومية برنامج الطرق الذي شرعت دولة الحماية في تطبيقه بالإيالة الشريفة، وذلك في محضر لجلسة الوزراء المنعقد حينها، ومن ضمنها الطرق المارة من مدينة الرباط إلى البيضاء والجديدة وأسفي والصويرة والى القنيطرة من جهة أخرى، وتضمن مد فروع لهذه الطرق نحو سوق الأربعاء فالقصر الكبير، والطريقان الموصلتان القنيطرة بمدينة فاس، المارة إحداهما بزكوطة والأخرى بمكناس، ومنها الطريق الموازية لأثار الطريق القادم من فاس إلى القصر الكبير، مرورا بسوق الأربعاء الغرب، وهناك الطريق التي تصل الدار البيضاء بمراكش

4 Moroccan Financil Policy, **Newspaper Morocco**, 25August 1920, Vol 2, P.618.

في 6 أكتوبر 1920 م وقع ممثل شركة "م. ج . بران M.Gaetan Brun "بالدار البيضاء "جيل جوسران Jules Josserand" على العقد الذي ينص على تكسية الطريق رقم "1" الرابطة بين الدار البيضاء والرباط، على مستوى شارع محطة القطار وبالضبط في المقطع الطرقي المحدد بين النقطة الكلومترية "7كلم " و"14 كلم".

مد خطوط السكة الضيقة/ العسكرية(0,60م) ذات الأهداف العسكرية والمحلية، التي بلغ مجموع ما أنجز منها إلى غاية 1925م أزيد من 1500كلم، فارتبط منها بشكل مباشر خط الدار البيضاء بمراكش(240)، والدار البيضاء بالجديدة(كانت في طور الإنجاز)...، وإلى حين الإقدام على استبدالها بخطوط السكة العادية(التجارية)، التي رأت النور ابتداء من مطلع 1920م، وصل المنجز منها إلى غاية رحيل ليوطي إلى ما يزيد عن 1000كلم، اتصل منها بشكل مباشر خط القنيطرة- الدار البيضاء(128كلم)، وخط الدار البيضاء- مراكش(254كلم=73 كانت في طور الاستغلال، ما بين البيضاء وسطات)، ثم خط برشيد- واد زم (120كلم)، وأخيرا خط البيضاء-بالميناء(8كلم)[1]، ناهيك عن الخط الرابط بين الدار البيضاء(سيدي العايدي) وواد زم ...

لقد اكتمل عقد التحول والإنجاز على مستوى الأشغال العمومية، بتمكين عاصمة الشاوية آنذاك من إنجاز قاعدة لنزول الطيران بالبيضاء، فربطت فرنسا بمستعمراتها في الشمال الغربي لإفريقيا، وفعلا تم إطلاق خط جوي في عام 1919م من قبل "Pierre Latécoéreet" الذي استغلته الشركة العامة "Aéropostale"، فكان لهذا الخط محطتان في فرنسا (مرسيليا وتولوز)، ثم يمتد على طول إسبانيا، ويذهب إلى الرباط والدار البيضاء، ومنهما إلى دكار، وصولا للبرازيل[2].

بقيت الإشارة إلى أن الشاوية حفلت منذ وقت مبكر بخدمات التلغراف والتلفون، فمنذ مارس 1912م كانت السلطات الفرنسية قد نجحت في ربط الدار البيضاء بالجديدة بواسطة خط لخدمة الهاتف، ووصلت الخطوط منها إلى الرباط، والقنيطرة، وفاس، ومراكش....

1 Becker Georges, **Op.Cit**, P.88.

شرع في كهربة خطوط السكة الحديدية ابتداء من فبراير 1927م، وفي شهر ماي من نفس السنة، شرع في استعمال الخط المزدوج لنقل الفوسفاط من مناجم خريبكة نحو ميناء الدار البيضاء، بمعدل ثلاث قطارات في اليوم، رغم أن هناك اعتقاد مفاده كهربة بعض خطوط السكة الحديدي قبل هذا التاريخ ببضع سنوات، ويحتمل أن استغلال الخط السككي الرابط بين الدار البيضاء ووادي زم قد استعمل الكهرباء منذ البدايات الأولى لاستغلاله، ليعم فيما بعد بشكل فوري خط مراكش، ثم خط الدار البيضاء . الرباط.

2Congrès Des Chambres De Commerce Et Des Chambres D'agriculture De La France D'outre-Mer, **Op.Cit**, P.304.

-Ministère Des Colonies، **Op. Cit**, P.419.

ثالثا. تحولات بلاد الشاوية على مستوى الأشغال العمومية وآثرها السيوسيو. اقتصادية (الدار البيضاء نموذجا).

1. أهمية الشاوية ضمن الشبكة العصرية للأشغال المنجزة بالمغرب على عهد ليوطي.

تتجلى أهمية الشاوية في إطار المنجز من الأشغال العمومية في عهد المقيم العام الجنرال ليوطي، في كون هذه البلاد غدت ضمن المجال الأكثر حيوية بالنسبة للمبادلات التجارية المغربية، ولخطوط المواصلات الداخلية والخارجية[1]، هذه الأخيرة تصدر فيها ميناء البيضاء سلسلة المراسي المغربية الأطلسية، فأصبحت مدخلا لأفضل المناطق الزراعية المغربية، بما فيها أحواز المدينتين العاصمتين مراكش وفاس، بل وعول عليها لربط باقي مستعمرات الشمال الإفريقي بأحدث وسائل المواصلات، كخطوط السكة الحديدية :« **يوفر برنامج الأشغال العامة خط ثانٍ من مراكش إلى الدار البيضاء، عبر سطات(245 كيلومترًا)، حيث منطقة الشاوية التي أنشأت بها المصالح الفرنسية والأوروبية، ثم خط سكة حديد على الساحل، يربط بين جميع الموانئ المغربية، ومع ذلك فإن خط السكة الحديدية الذي يبدو أنه الأكثر إثارة للاهتمام، سواء من وجهة النظر المغربية، أو من وجهة النظر الفرنسية والجزائرية، هو خط الدار البيضاء والرباط والمهدية وفاس وتازا للوصول إلى ووجدة، حيث السكة الحديد من وهران إلى الحدود المغربية(...) إن خط السكة الحديد الذي سيشترك في المغرب، سيجعل وهران منفذ المغرب في القسم الشرقي**[2]»، علاوة على هذا، وقوع الشاوية ومعها الدار البيضاء في قلب الطريق الشاطئية المستعرضة التي ارتكنت إليها الإدارة الفرنسية بالمغرب لتمرير المخططات الاقتصادية، والتي تضم بعضا من أخصب السهول المغربية وأكثرها سعة، والتي تبدأ من القنيطرة، فالرباط، ثم الجديدة، وكذلك طريق الجنوب التي تصل الدار البيضاء بمراكش[3].

ومما دعم حظوظ منطقة الشاوية لتنال هذه المكانة البالغة الأهمية، وجودها بمنطقة مأهولة بالسكان، حيث وجود مدينة آنفا التي أسسها البرتغال في القرن 16م، والتي كانت محاطة بأبراج مربعة عند زاوية جدرانها، وفي جنباتها مدافع صدئة قديمة[4]، وبأحد أهم

1 Lapeyre Et Marchand.E, **Casablanca La Chaouia**, Librairie Emile Larose, Paris, P.32.

2 De Mazière Marc, **Le Maroc**, **La Vie Coloniale**, Année 11, N°122, 1er Novembre, 1912, [242-244], P.242.

3Lyautey .H,, Op. Cit, P.112.

4 Cousin Albert Et Saurin Daniel, **Op. Cit**, P.351.

السهول المغربية الأكثر خصوبة، إذ توجد تربة سوداء شديدة الخصوبة، حفزت بشكل عز نظيره على الاستيطان الزراعي الأوروبي، وتوفرها على الميناء الأكثر أهمية بالساحل الأطلسي طيلة القرن 19م وفي بداية القرن20م، فكان أن استفرد بالأمان من الأمواج العاتية، التي تهب بقوة في الأطلسي خلال فصل الشتاء، وتوفرها قبل الاحتلال على مقومات مرسى طبيعي، بحيث بلغ عمق المياه فيه ما بين 8 و 20 متر، فقط على بعد نصف ميل من البر.

2. التحولات المجالية للدار البيضاء في ظل الأشغال المنجزة.

طرأت تحولات عدة على المجال بالدار البيضاء في عهد الحماية، فهذه المدينة أضحت جنة لرواد الأعمال والمهندسين والمعماريين، فارتفعت السقالات، وحفرت الأسس، وتوزع البناؤون من العاملين المحليين، يديرون عربات محملة بمواد البناء، في الأراضي التي تقع خارج أسوار المدينة القديمة، وقد استطاع الأوروبيون والمغاربة الذين تمكنوا من شراء الأراضي، في الفترة التي تزامنت مع دخول الفرنسيين إلى الدار البيضاء، مراكمة أرباح مهمة، فالمدينة تتطور كالفطر وبشكل سريع بسبب تأسيس مقاولات تابعة لشركات فرنسية تشتغل في ميدان العقار، مثل التي أسسها "أنطوان ماس"، المسماة بـ"الشركة الليونية للشاوية"، والتي قدر رأسمالها بـ450 ألف فرنك، وهي تابع لـ"الشركة الليونية للعقار بالمغرب" ذات الرأسمال المقدر بـ 4مليون فرنك[1]، وأصبح الإيجار بالمدينة مبالغ فيه، فالمتاجر تفتح في كل مكان، كما تتعدد المقاهي والحانات التي تصنع بدون شك أفضل الوصفات والوجبات[2]، ومن ذلك "الشركة المجهولة الاسم لفندق Execlsoir"، الذي تجاوز رأسمالها 80 ألف فرنك حينها، بحيث تزامن استقرار فرعها في مدينة الدار البيضاء مع مرور 50 سنة من الخبرة التي راكمتها في تدبير الفنادق والمطاعم والكازينوهات، وجميع المؤسسات التي تفتح للعموم، والتي تباع بها السلع الاستهلاكية وغيرها، وكان مقرها الاجتماعي بشارع "La Grande Sokko" بالدار البيضاء[3].

افتتح فندق"Excelsoir" في أكتوبر 1918م، ووقع افتتاحه بالموازاة معه انتشار عشرات المرافق والمؤسسات، فكانت هذه التجهيزات والبنايات والشوارع والساحات، تنتقل بمجال

1 M. G. Hardy**, La Vie Au Maroc**, France-Maroc, 7eme Année, N°82, Septembre 1923,[169-170], P.169.

2Ceccaldi Capitaine, **Au Pays De La Poudre :En Compagne Avec Les "Joyeux"-Maroc Occidental(1911-1912)**, Librairie Militaire, Saint –Germain, 1914,P.225.

3 Les Affaires Et Les Sociétés Coloniales, **La Vie Coloniale,** Année 11, N°122, 1er Novembre, 1912, [260],P.260.

"مديونة" والقبائل المجاورة لها، من مجالات يغلب عليها الطابع القروي، إلى مجال تتسارع رقعة فضائها الحضري من يوم لآخر، مستندة على صدور قوانين منظمة للقطاع، أولها ظهير التمدين لسنة1914م، أعقبه ميثاق التمدين الفرنسي لسنة 1919م، اللذان اعتمدهما المهندس "بروست" لإخراج تصاميم المدينة[1] في أبهى حللها، وفي جانب آخر انتقل النشاط الاقتصادي بحدود هذه القبيلة وأحوازها، من شبه الاقتصار على الفلاحة إلى إضافة أنشطة جديدة أصبحت تعج بها الدار البيضاء، في ظل إقبال عشرات الاستثمارات الضخمة عليها، والناتجة بالأساس عن التوسع الكبير للنشاط التجاري الذي شهده الميناء، إذ استقرت بمحيطه العديد من الوحدات الإنتاجية في مجال الصناعة، وظهرت محلات تجارية كبرى وسعت مجال نشاطها ليغطي جزءا كبيرا من المناطق التي أخضعها ليوطي آنذاك، وأصبح للكثير منهم وكلاء في عدة مدن أروبية وافريقية، وتماشيا مع هذا التحول، تنوعت وسائل المواصلات المستقرة بالمدينة، التي فتحت وكالات لها في العديد من الشوارع الممتدة التي أصبحت تؤلف النسيج الحضري الممتد لهذه المدينة المهمة.

غدت العمارات الضخمة والمتعددة الطوابق، مشهدا أعتاد البيضاويون رؤيته بمدينتهم منذ مطلع عشرينات القرن الماضي، بسبب تلك الأموال الضخمة التي صرفها مهنيو البناء والتشييد في النهوض بعاصمة الشاوية، فبلغ ما استثمره هؤلاء سنة 1920م تقريبا 66 مليون فرنكا، فتشكل النسيج الحضري للبيضاء من 23 حي سنة 1922م ذات وظائف مختلفة[2]، اي فقط بعد 10 سنوات من دخول المعمر بشكل رسمي للمدينة، مما يدل على العناية الفائقة التي لاقتها من قبل رجال الحماية وجيوش رأسماليها، وباقي صغار المعمرين، أورد أحدهم ما يلي: « **أخذ مخطط التهيئة الجديدة لمدينة الدار البيضاء بعين الاعتبار ملاءمة إنشاء الطرق والشوارع، مع الضروريات الحالية للحياة الصناعية والاجتماعية، ومنها المركز التجاري للمدينة، الذي لا يمكن نقله (...)، ففي الوقت الحاضر هو نقطة التقاء لتيارات مختلفة من حركة المرور، التي تقع في"Place de France "، في المكان الذي يسمى الساعة، وبفضل هذه الترتيبات المتقنة، سيتم دفع مركز الدار البيضاء بضع مئات من**

1 Abitbol Michel, **Histoire Du Maroc,** Perrin, 2009, P.121.

2عياش ألبير، **المرجع السابق**، ص.323. يضيف: نميز في إطار هذه الأحياء بين الأحياء الإدارية والتجارية في قلب المدينة، والأحياء الصناعية لعين برجة في الجنوب والجنوب الشرقي للمدينة، والصخور السوداء وعكاشة وعين السبع بين الطريق المؤدية إلى الرباط والشاطئ، وكان مسار التوسع أكثر بالنسبة للمدينة في اتجاه فضالة(المحمدية).

الأمتار، بحيث يسهل حركة المرور المكثفة للمشاة في ساحة فرنسا، وأما توسيع الطرق فيسمح بتركيب الترام الكهربائي الذي يدعو وضع الدار البيضاء إلى تشغيله[1].»، ولم يكن إقدام السلطان على بناء قصر بها سنة 1917م إلا غيض من فيض، مقارنة بما أنجزته النخبة البورجوازية المغربية بالمدينة في هذا المضمار، هذا، دون أن نغفل ربط المدينة بالماء الصالح للشرب، الذي جلبه رجال الإقامة العامة من منابع "عين معزي"، ومن "تيط مليل" منذ 1914م، ثم بالشبكة الكهربائية ابتداء من 1915م، عبر شركة "H. de Freycienet"، تحت إشراف ومراقبة مصالح الأشغال العمومية[2].

3. التحولات الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن الأشغال بالشاوية (الدار البيضاء نموذجا).

شهدت الشاوية عموما والدار البيضاء على وجه الخصوص، نهضة عمرانية وسكانية مهمة بعد وفترة وجيزة من سنة 1912م، فتصدرت هذه المدينة المدن الكولونيالية الأخرى في كل المجالات، فجمعت في مورفولوجيتها بين الهندسة المعمارية الأوروبية والمغربية بكل تناقضاتها، بعدما بلغ عدد قاطنيها أزيد من 650 ألف نسمة، في أقل من 10 سنوات من توقيع عقد الحماية، متخطية بذلك كل المدن التاريخية والحديثة الوجود(الكولونيالية)[3]، وحدثت هذه التحولات، بعدما كانت إلى وقت قريب مرسا تجاريا صغيرا، ومنطلقا لعمليات القرصنة البحرية، التي جرت عليها استهدافا أوروبيا في كثير من المرات، كما حدث مع البرتغال 1468م، والتي دفعت سيدي محمد بن عبد الله لتجديد المدينة التي دمرها زلزال 1730م[4]، وأحيى مرساها في إطار سياسة الانفتاح التي انتهجها المغرب في زمن حكمه، ومنذ ذلك الوقت اشتهرت المدينة بالدار البيضاء، وكان للإسبان سبق الاستفادة من تجارتها بموافقة من هذا السلطان، وتكلفت بالعملية شركة من مدريد وفاس، مع تسجيل تراجع نسبي في هذه الأدوار التجارية في عهد المولى سليمان، بسبب سوء سيرة عامله "عبد الملك بن إدريس" ابن عم السلطان[5].

---

1 Lapeyre Et Marchand. E, **Op. Cit**, P.84.

2عبد العالي المتليني، **الأشغال العمومية بالمغرب على عهد ليوطي1912-1925م**، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة ابن طفيل – القنيطرة-، الموسم الجامعي2017/2018م، (مرقونة)، ص ص.415.

3 Direction De La L'intérieur (Section Sociologique), **Op. Cit**, P.21.

4 Varéas, **Un Drame Au Maroc**, Librairie De Paris, Paris, 1911, P.136.

5. **الخديمي علال**، المرجع السابق، **ص.135.**

أ. من الناحية الاجتماعية:

تنوعت مظاهر التحولات الاجتماعية التي عرفتها الشاوية منذ 1907م، وعلى وجه الخصوص والإيجاز الدار البيضاء، التي زاد سكانها حينها عن 20 ألف نسمة[1]، فقد اشتهرت المدينة قبيل الحماية وبعدها بتمركز مهم للهجرات، سواء من الجاليات الأوروبية، أو من الأهالي بمختلف مراتبهم الاجتماعية، ومن أشهر العائلات البورجوازية الفاسية، التي انتقلت للاستقرار بالبيضاء في وقت مبكر من تاريخ فرض الحماية: عائلة بنزكور، والقباج، وبنجلون، وبنكران وغيرهم كثير[2]، ولم يكن التجار اليهود وأغنياؤهم ليتخلفوا عن الركب، في ظل الإغراءات التي قدمها نموها الاقتصادي المطرد، كيف لا، وميزانيتها أحيانا فاقت ميزانية الدولة بأكملها، وحتى السلطان مولاي يوسف نفسه (1912-1927م) لم يحد عن هذه القاعدة، فبنى بها قصرا سلطانيا ابتداء من 1917م، بسبب ما رآه من تضخم للبنيان وازدياد للسكان، واتساع للمجال الحضري، ثم تنامي أهميتها التجارية والإدارية، فاستدعى هذا التطور من بعض شركات النقل الدولية، فتح مقرات لفروع سهلت عملية انتقال المعمرين للبيضاء، ومن كل أرجاء القارة الأوروبية، كشركة "Aéromaritime" التي كانت تنقل عبر طائرتها المسافرين إلى عدة وجهات إفريقية، مرورا بميناء الدار البيضاء، الذي صنف إبانها ضمن احدث الموانئ العالمية الذي تنزل به الطائرات العائمة.

لقد سبقت المدينة غيرها في احتضان مرافق اجتماعية حيوية، تأخر ظهور في العديد من المدن الأخرى، إذ خصت سلطات الإقامة العامة في شخص ليوطي هذه المدينة بـ"مفتشية للتعليم"، عهد إليها بالإشراف على تدبير التعليم العمومي الابتدائي، وحظيت بهذا التميز من بين ست مدن أخرى احتضنت هذا المرفق الهام، كما انتشرت بها مدارس التعليم الإعدادي والثانوي، ممثلة في مؤسسات البنين ومؤسسات البنات، وكانت الدار البيضاء واحدة ضمن أربع مدن مغربية احتضنت مؤسسة للتعليم الثانوي(Lycée Orné)[3]، ولا يعزب عن نظر المتفحص لتاريخ المنطقة، أن التعليم العالي لم يكن ليكون بها نشازا، فوجدت بالمدينة معاهد

1Compagnie Des Chemins De Fer De Paris À Lyon Et À La Méditerranée, **Atlas P.L.M Le Maroc : Via Marseille**, Edition Compagnie Des Chemins De Fer De Paris À Lyon Et À La Méditerranée, S.D, P.10.

2عبد العالي المتليني، **المرجع السابق**، م.س، ص .419.

3 A. Roby, ***Le Lycée De Garçons De Casablanca***, France-Maroc, 7eme Année, N°82, Septembre 1923,[169-170], P.169.

. فتحت سلطات الإقامة العامة ثلاث مؤسسات للتعليم الثانوي سنة 1913م، بكل من الدار البيضاء، ووجدة، والرباط.

عليا للتربية والتكوين، منها على سبيل المثال "المدرسة العليا للصناعة والتجارة"، التي أحصي بها 500 طالب أوائل حكم ليوطي، وعد من طلبة بعض مدارس التكوين المهني-في الفترة نفسها- بالدار البيضاء 150 طالبة، وكان التعليم العالي تابعا لمديرية التعليم مركزيا[1].

وفي جانب أخر، كان للبيضاء حظ ونصيب من مؤسسات القضاء، فأنشأت محاكمها استنادا إلى مخرجات مؤتمر الجزيرة الخضراء 1906م، والاتفاق الألماني الفرنسي ليوم 4 نونبر 1911م، ومعاهدة الحماية لسنة 1912م، وكانت هذه المحاكم على درجات، فأهمية المدينة هي من دفع رجال الحماية إلى اختيارها ضمن ثلاث مدن أخرى في احتضان محكمة من الدرجة الأولى، ومؤسستين من محاكم السلم على شاكلة مدينة الرباط، زد على هذا محاكم الجرائم[2].

ويوضح الجدول التالي مزيدا من المرافق الاجتماعية المحدثة بالمدينة في عهد ليوطي:

المرافق /المؤسسة[3]	النشاط الاجتماعي والثقافي
. المسرح البلدي . دور السينما	. أنشطة متنوعة يومية ومناسباتية.
. أندية رياضية: كرة القدم، كرة اليد، الدرجات الهوائية، الملاكمة، السباحة...	. الجائزة الكبرى للدار البيضاء في أبريل/ماي.
. شركات النقل: C.TM، سريع شمال إفريقيا، نقل "توري".	. سباق السيارات في مضمار جنوب المدينة.
. المدارس: ثانوية "Lyautey"، والبنات.	. النقل في اتجاهات محلية ووطنية.
. فنادق ومنتجعات: فنذق "Excelsior"، ماجستيك، ترونزلونتيك....	. التعليم / التكوين.
	. إيواء المسافرين/ مطاعم، مقاهي......

1Becker Georges, **Op. Cit**, P.94.

. ظهرت المدارس الفرنسية – العربية بالمغرب ما بين 1882و 1888م، في فاس والقصر الكبير وأصيلا، وسنة 1903م، أسست مدرسة فرنسية للأوروبيين بطنجة، وصل عدد تلامذتها إلى 50 تلميذ بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء. وبعد توقيع الحماية، وافقت سلطات الإقامة العامة على تقسيم التعليم إلى أوروبي، وإسلامي وإسرائيلي، ,اقدم المدارس الثانوي كان بطنجة ، عرف بثانوية "رونوRegnault " سنة 1909م.

- Congrès Des Chambres De Commerce Et Des Chambres D'agriculture De La France D'outre-Mer, **Op.Cit**, P.151.

2 Becker Georges, **Op.Cit**, PP.99-100.

- Ministère Des Colonies, **Op. Cit**, P.119.

. اقتصرت محاكم الجرائم في كل من البيضاء ووجدة، وكانت تختص في جرائم ترتكب في دائرتها الانتخابية من قبل مواطنين فرنسيين، أو رعايا دول أجنبية، أو من قبل مغاربة ضد أوروبيين أو مخالطين...

3 عبد العالي المتليني، **المرجع السابق**، ص ص.220 إلى 223.

عرفت حياة المغاربة -من جهة أخرى- بالمدينة تطورات اقتصادية واجتماعية إضافية، وذلك بفضل انخراطهم بمختلف المستويات في المشروع الاقتصادي الكولونيالي، فتزايدت واردات المغاربة من كميات السكر والشاي والدراجات والأدوية، وارتفعت أعداد أجهزة المذياع ونحوها من الأجهزة التي اشتراها المغاربة، ومن النسيج والكميات المسحوقة من القمح الطري والدقيق، الذي سلم للخبازين المغاربة بالمدن، وأقيمت لهذا الغرض عدة معارض بالمدن المغربية، ومنها المعرض التجاري الأول بفاس في شتنبر 1916م، وبالرباط في 15 شتنبر 1917م الذي افتتحه ليوطي[1]، فغيرت هذه المنتجات بشكل عميق كثيرا من العادات الاستهلاكية للمغاربة، وساهم تركز العمال المغاربة بالدار البيضاء في ظهور بوادر تشكل طبقة عاملة، وظهرت احتياجات وأذواق جديدة، فالعامل المحكوم بسرعة الوقت، يشتري خبزه من المخبزة، أو الطحين الذي ستخبزه زوجته من القمح الطري، وفي السهول المغربية استهلك المغاربة القمح الصلب، وحتى الدور الصفيحية كانت تزين غرفها "ببراد" وبعض الكؤوس الزجاجية لشرب الشاي، بجوار منبه على طاولة...[2]، وكان للجنرال ليوطي دور مهم في نشر المخترعات العصرية بالمغرب، ودفع السكان للإقبال على استعمال وسائل النقل والتنقل، والتلفون والتلغراف والسكك الحديدية، ثم السيارة والدراجة الهوائية، خاصة أنه في 1916 كان بإمكان السير على أراضي الشاوية بالسيارة ولو شتاء، وما بين الجديدة وسيدي بنور، وكذا من الدار البيضاء إلى سطات[3]

ب . من الناحية الاقتصادية.

كان للتجار الفرنسيين ميدان السبق في الاستقرار بالدار البيضاء خلال القرن 19م، وإن كانت أوضاعهم في هذه الفترة قد اتسمت بنوع من التوازن التجاري مع الإنجليز[4]، حتى أن بعض أشهر التجار الفرنسيين بطنجة وقتها، كان قد أناب عنه الأسرة الشهيرة "Ferrieu" في الدار البيضاء، تلا ذلك تقاطر دور تجارية أخرى عليها، واللواتي أرسلن وكلاء عنهن لفتح فروع لها بالمدينة، من قبيل مؤسسة البارون "سيليير Seilliere" البارزية سنة 1847م، ثم الشركة الفرنسية "للودوفيا C.F. De Lodève" سنة 1852م، التي عرفت بتجارة الصوف،

1 نفسه، ص.399.

2عياش البير، **المرجع السابق**، ص.337.

3المتليني عبد العالي، **المرجع السابق**، ص.368.

4 De Campou Ludovic, **Un Empire ....**, Op. Cit, P.243

فظلت تمد مصانعها بهذه المادة هناك بفرنسا، بل كانت أصواف البيضاء تصدر لغيرها في مرسيليا ولندن ومدن أوروبية أخرى، ومن ابرز الدلائل على تعاظم المكانة التجارية لهذه المدينة، استقرار قناصل الكثير من الأجناس أو من ينوب عنهم[1]، فتضاعفت تجارة المدينة ثلاث مرات ما بين 1848م و1855م، وترتب عنه احتكار هذا الميناء 1/5 من تجارة الموانئ المغربية من بين الثمان الذين كانوا مفتوحين في وجه التجارة الخارجية[2].

أصبحت الدار البيضاء خلال فترة الحماية تعطي انطباعا بعلو كعبها أمام باقي المدن المغربية في القادم من الأيام، مما مكنها من كسب صفة العاصمة الاقتصادية منذ فترة حكم ليوطي، - والمدهش أن بعض الفرنسيين بعد سنوات من أحداثها الدامية (1907م)، جاء ليؤنب سكان البيضاء، نظير ما أضحت عليه المدينة من شوارع ممتدة، ومنازل تقتحم تلك الأرياف التي كانت مهجورة[3]-، وما كانت لتكتسب هذه الصفة لولا بعض المقومات التي أصبحت تتوفر عليها، فقد عرفت باحتضانها لأهم غرفة تجارية وصناعية وزراعية بالمغرب في أوائل الحماية[4]والى غاية منتهاها، وفي مستوى ثاني، عمد رجال الحماية لعصرنة أساليب الإنتاج في أحوازها، فقد زود هؤلاء الكثير من الفلاحين هناك بأجهزة حديثة في الإنتاج الزراعي[5]، مستهدفين تحديث الأساليب الزراعة لخدمة المشروع الاقتصادي للمعمر الفرنسي، القائم على نقل جزء من المنتوجات الزراعية للشاوية نحو فرنسا، في أوقات معينة من السنة.

كان هذا الاهتمام نابع من مخطط عام للحماية قائم على دعم أصحاب الضيعات الفلاحية الكبرى، التي تجاوز عددها ما بين 1912و1925م أكثر من 1000 ضيعة، وتجاوزت

1**الخذيمي علال**، التدخل الأجنبي والمقاومة ....، م.س، **ص.137**. إذ من بين هؤلاء، القنصل الإنجليزي بعد توقيع معاهدة 1856م، والتي مكنت بني جلدته من التنعم بامتيازات لم يعلم لها حدود، أسهمت في إغراق أسواق المغرب بمنتوجات قارته، والذي عضدتها اتفاقية 1860 مع الاسبان، وأضافت لها ما غفل عنه الإنجليز، ومنها الحق في الحمايات الفردية، ثم اتفاق 1963 مع فرنسا....، كما وجد بهذه المدينة ابتداء من 1907م القنصل الإنجليزي الجديد "Madden" والفرنسي"Malpertrey"، والإسباني "Riuz"، والإيطالي"Garassino"، والالماني"Buttler"، والقنصل الأمريكي، ثم نواب قناصل كل من الدنمارك "Ferriau"، والسويد"Defretas"، والبرتغال"Ludertz".

2 الموانئ الذين صنفوا ضمن المراسي المفتوحة في وجه التجارة الأجنبية خلال ق 19م بأمر من السلطان هم: طبنجة، وتطوان، العرائش، الرباط-سلا، الدار البيضاء، الجديدة، اسفي ، ثم الصويرة.

3 Ministère Des Colonies, **Op. Cit**, P.419.

4Congrès Des Chambres De Commerce Et Des Chambres D’agriculture De La France D’outre-Mer, **Op. Cit**, P.257.

5 Union Coloniale Française , **Congrès D’agriculture Coloniale (21-25 Mai 1918), Tome IV, Augustin Challamel**, Paris, 1920, P.336.

مساحتها 700 هكتار للضيعة الواحدة، بحيث وجد الكثير منها بالشاوية، ونمت هذه الزراعة نتيجة سياسة القروض والاعتمادات المالية الدائمة التي قدمت لها، علاوة على تمكينها من كل أصناف المساعدة، سواء بالتقنيات أو بالبذور المنتقاة، وحتى خدمات مصالح الأبحاث الزراعية، هذه الأخيرة التي أحدثت بعين السبع ودار بوعزة بالنسبة لمعمري الشاوية، مما جعلها زراعة تستهدف تلبية احتياجات السوق الفرنسية بدل توفير احتياجات السوق الداخلية في كثير من الأحيان. ولم يأل رجال الحماية جهدا في تنظيم المعارض التجارية، بقصد تعريف الأهالي بالمنتوجات الصناعية للمتربول، ففي 17 ماي 1915م اصدر ليوطي مرسوما بالدار البيضاء بغرض إقامة معرض تجاري بها، يعرض لمنتوجات ذات طبيعة زراعيا وصناعية[1]، مما عزز من الدينامية الاقتصادية لهذه المدينة

وفي المجال الصناعي، لوحظ تناسل إنشاء المصانع حول محطات السكة الحديدية والميناء، وكذلك المخازن الكبيرة التي تبرز نجاح ما افترضه رجال الإقامة العامة في هذا المجال، واستقرت المراكز الصناعية الأولى من معامل الإسمنت والجير الهيدرولوكي بين منطقة الصخور السوداء وعين السبع، فكانت مدينة صناعية وتجارية من الدرجة الأولى، تحتفل بتطورها المذهل، وتكرس نفسها لتجميل المواقع القريبة من ضواحيها، كمرس السلطان، وأنفا، والحنك...، فتكون بذلك خطة السيد "بروست" حسمت كل شيء ،ثم وفرت كل شيء، وستوفر شبكة الترام التي سيتم تداولها،- حيث السيارات الفاخرة المجهزة بأحدث التحسينات-، الدعم الأساسي لتطوير مناطق جديدة وأنيقة، مما يستدعي إقامة العديد من منتجعات زوار الشتاء، للاستمتاع بالمناخ البحري المعتدل للبيضاء[2].

ودل على هذه المكانة انتهاء، الارتفاع المطرد لحركة المسافرين القادمين من أوروبا أو الصادرين إليها، وشكل ميناؤها محطة رئيسية لأهم الشركات الملاحية العاملة بالمغرب[3]، وأيضا تكاثر أعداد المطاعم والمقاهي بشوارعها، وكان الناس في الشوارع لا يتحدثون إلا عن الأعمال التجارية، خاصة شراء العقارات والحبوب والمعادن، التي ساهم فيها الأوروبيون في مضاعفة الأثمان، «**إنها حمى التجارة والسيطرة والمضاربة**[4]»، فارتكز النشاط الاقتصادي

---

1 Ministère Des Colonies, **Op. Cit**, P.61.

2 Lapeyre Et Marchand.E, **Op. Cit**, P.127.

3 Compagnie Des Chemins De Fer De Paris À Lyon Et À La Méditerranée, Op. Cit, P.10.

4 Ceccaldi Capitaine, **Op. Cit**, P.225.

للمدينة في هذا المضمار، على إعادة توزيع المواد المستوردة، أو توجيه المنتوج المحلي نحو التصدير، فغدت الدار البيضاء مركزا للأعمال بالمغرب، يتحكم في معظم تجارته، بعدما تركزت بها معظم الشركات الصناعية والتجارية بالبلاد[1].

خاتمة.

جسدت الأشغال العمومية ببلاد الشاوية في علاقتها بباقي المناطق، واحدة من العوامل التي أحدثت ذلك التغير الكبير في وضع هذه الجهة، وفي موقعها في خريطة الأهمية الاقتصادية والجيو-إستراتيجية للمغرب الكولونيالي، وما كانت هذه المنطقة لتبلغ هذه الدرجة من الأهمية، لولا السبق الزمني الذي حظيت به في ميدان البناء والتجهيز، والذي عرفه ميناؤها قبيل الحماية، وثانيا للاهتمام الكبير الذي خصها به الجنرال ليوطي، بناء على دراسات استند إليها واقتنع بصحة وفعالية تقاريرها، في ضرورة التعجيل بالنهوض بالشاوية لإنجاح مهامه الاستعمارية بالمغرب، وإكساب مخططاته وأولوياته الفعالية التي تحتاجها لبلوغ ما يصبوا إليه ويتمناه، في هذا المشوار الجديد الذي دخله لأول مرة في حياته، هنا في بلاد المغرب، لقد كانت النتائج مبهرة، والتحولات عميقة ببلاد تامسنا بالتعبير التاريخي، وكانت الدار البيضاء خير مختبر لتجارب ليوطي في قياس مستوى إنجازاته بهذه المحمية المتميزة، فكانت المنجزات بها خير ما دل على توفقه إلى حد بعيد في كسب رهان العديد من مشاريع الأشغال العمومية بالشاوية وباقي مناطق المغرب ، التي اختارها وأعطى لها الأولوية في هذا المجال.

- De Mazière Marc, **Op.Cit**,P.244.

1بدر مصطفى، **المرجع السابق**، ص. 416.

تفيد الإحصائيات أن الدار البيضاء على عهد ليوطي، استأثرت بـ 2/3 من الرساميل المستثمرة بالمغرب، و2/3 من الوحدات الصناعية التي اختارت المغرب فضاء للاستثمار في عهد ليوطي.

المحور الرابع:
مقاربات طبونيمية بين المركز والهامش المغربي

قراءة أولية في طوبونيمية أبواب حاضرة مكناس

د. سعيد عبيدي1

مقدمة:

لعل أبرز الصعوبات التي يطرحها البحث في التاريخ الحضري المغربي، تتمثل في كون المتون التاريخية الكلاسيكية تبقى غير قادرة على حل كثير من القضايا والإشكالات المرتبطة بنشأة وتمدن المدينة المغربية العتيقة، وما تزخر به من نسيج عمراني داخل أسوارها وفي أحوازها، ويتعاظم هذا الإشكال في ظل قلة الأبحاث الأثرية للكشف عن نشأة المدينة المغربية وتمدنها خلال مختلف الفترات التاريخية، مما يجعل كثيرا من الأسئلة المرتبطة بالظاهرة الحضرية والمعمار الديني والمدني والعسكري وغيره تحتاج إلى من يفك ألغازها ورموزها. وذلك ما يفرض على الباحثين في مثل هذه المواضيع تشييد علاقات تجسيرية وإقامة معابر وجسور بين حقول معرفية مكملة من العلوم الإنسانية والاجتماعية، بالإضافة إلى معاودة النظر في طبيعة العدة المصدرية وإعادة قراءة المضمر خلف سطورها لتقديم تفسيرات وتأويلات مقنعة لما تتحدث عنه في ثناياها من أسماء أماكنية لمرافق الحواضر المغربية، كمدينة مكناس التي تشكل موضوع هذا العمل من الزاوية الطوبونيمية.

في هذا المنحى، تحاول هذه الدراسة تقديم قراءة أولية لبعض الأعلام المكانية لأبواب حاضرة مكناس، التي شكلت إحدى العواصم الثلاث للدولة المغربية قبل فرض الحماية سنة 1912، حيث إن حاضرة مكناس تجر وراءها تاريخا عريقا قبل العهد الإسماعيلي الذي يرتبط تاريخ المدينة في ذهن الكثير من الناس، ويقترن في مخيلتهم بشخصية السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727م)، مما جعلها تختزن تراثا معماريا غنيا ومتنوعا تعتبر الأبواب المتعددة التي تتخلل أسوار المدينة واحدة منها.

أولا: ملاحظات أولية

من اللافت للانتباه أن مدينة مكناس رغم كونها تحفة معمارية تسترعي الانتباه وتجلب الأبصار وتغذي الفضول والنقاش[2]، بفضل ما تتوفر عليه في كل ناحية من نظام دفاعي يتجلى

---

1. باحث في التاريخ والتراث، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس مكناس.

2- التوري عبد العزيز، الاتحاف كمصدر من مصادر الدراسة الأركيولوجية وتاريخ الفن بمدينة مكناس، ضمن **أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1988، ص. 169.

في أسوارها الشامخة التي تتخللها أبراج مرتفعة وأبواب ضخمة ومزخرفة، فضلا عن ما تزخر به من مساجد عديدة وأضرحة كثيرة ومنشآت مائية أصيلة وغيرها، فإن الدراسات المتعلقة بمكوناتها المعمارية الدفاعية والمدنية والدينية وما تحمله من تسميات متعددة المعاني والدلالات تبقى قليلة مقارنة بباقي المدن المغربية الأميرية الأخرى، وهو ما يجعلنا نسجل مجموعة من الملاحظات أبرزها ما يلي:

- ترتكز الدراسات التي تناولت التاريخ الحضري لمدينة مكناس ومكوناتها العمرانية أساسا على المؤلف المونوغرافي لابن غازي (توفي 919هـ/1513م) "الروض الهتون"[1] وعلى كتاب "الإتحاف"[2] لابن زيدان (توفي 1365هـ/1946م)، بالإضافة إلى الحوالات الحبسية التي يسميها ابن زيدان "بالعقد الحبسية التي لا يتطرق إليها أدنى ريب"، ووثائق بعثة الفرانسيسكان بطنجة التي تم توظيفها بالنسبة لحاضرة مكناس لأول مرة من قبل الأستاذ محمد اللحية[3]. كما يتم الاعتماد على كتابات بعض الأجانب الذين دونوا رحلات وتقارير خلال تواجدهم بمدينة مكناس في عهد حاكمها مولاي اسماعيل ومن بينها "رحلة الأسير مويط"[4]، دون إغفال أعمال العلامة محمد المنوني[5] الذي وظف وثائق ومصادر دفينة[6] في أبحاثه العديدة حول مدينة مكناس من التأسيس إلى الفترة المعاصرة.
- الدراسة الطوبونيمية لأبواب مدينة مكناس كما هو الشأن في مختلف الدراسات الطوبونيمية يشكل نافذة أساسية على المجتمع بمختلف تمظهراته الحضارية واللغوية

1- ابن غازي محمد ابن عبد الله العثماني، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية، 1404هـ/1988م.

2- ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008.

3- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس (452-645هـ/1060-1247م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، الطبعة الأولى، 2011.

4 - MOUETTE (G), Relation De La Captivité Du Sieur Moüette Dans Les Royaumes De Fes Et De Maroc, Où Il A Demeuré Pendant Onze Ans, Paris, 1683.

5- من بين أعمال العلامة محمد المنوني حول مكناس: "دليل القصبة الإسماعيلية بمكناس"، **مجلة دعوة الحق**، العدد الرابع، مارس 1967، ص. ص. 107 – 120. "التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور"، **مجلة الثقافة المغربية**، العدد 7، السنة 1972، ص. ص. 21-56. "مدائن مكناسة القديمة من العصر الإدريسي إلى أواخر عصر الموحدين"، ضمن **أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1988، ص. 179-200.

6- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث دراسة في التاريخ السياسي والعمراني**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، الطبعة الأولى، 2006، ص. 20.

والسياسية والذهنية، وذلك ما يتطلب توسيع دائرة القراءة والبحث لكون المعنى والدلالة الايتمولوجية قد تغيب في معجم وتظهر في آخر بحكم تقارب المصدر اللغوي والرسم الكتابي[1] في بعض الأحيان، وهو أمر يفرض تعقب مختلف المصادر التاريخية وجمع ما يفيد منها من إشارات نصية، ثم بعد ذلك إعادة استنطاقها بعلوم مكملة وفق سياقها التاريخي للخروج بخلاصات تركيبية بعيدة عن مهاوي الأخطاء التاريخية.

- تتميز مدينة مكناس مقارنة بباقي الحواضر المغربية بأبوابها المتعددة، غير أنه يلاحظ بالنسبة لأبواب مكناسة الوسيطية تغير مواقع بعضها واندثار بعضها الآخر، فضلا عن غياب هيكلها عن الأنظار وتعرض أسمائها للنسيان والطمس من ذاكرة عامة الناس، حيث لم تعد تتداول أسماؤها إلا في ثنايا المصنفات التاريخية والحوالات الحبسية على وجه التحديد[2].
- أسهم تحول مسار مدينة مكناس منذ اتخاذها عاصمة من قبل السلطان المولى إسماعيل إلى تغير كبير في موروفولوجية المدينة وتخطيطها المعماري نتيجة الهدم الذي تعرضت له كثير من المرافق مما يجعل الدراس يواجه صعوبة كبيرة في تتبع التنظيم الحضري لمدينة مكناس من التأسيس إلى العهد الإسماعيلي، كما يحدث بلبلة في الدلالة المكانية للمعالم العمرانية، بحكم أنه "إذا كان لمفهوم دلالة ما في فترة معينة، وفي نفس الفترة، وفي تضاد مع كلمات أخرى من نفس المعجم، لا يمكن أن تأخذ نفس الكلمة في فترات مختلفة دون اعتبارات لأثر بيئاتها المتعاقبة"[3].
- ضرورة التركيز على تطعيم البحث الأثري بالمعطيات النصية المكتوبة، وذلك لتحقيق تكامل بين المتون التاريخية والتنقيبات الأثرية التي تعتبر السبيل الأوحد لتقديم تصور دقيق عن تصميم مدينة مكناس ومورفولوجيتها ومكوناتها المعمارية التي تعتبر الأبواب مدار دراستنا من المنظور الطوبونيمي جزء منها.

1- الغرايب حسن، دور البحث العلمي في ضبط المفاهيم والمصطلحات علم التأثيل أنموذجا، **مجلة أسطور**، العدد 5، كانون الثاني/يناير 2017، ص. 13.

2- حيمر جمال، مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، م. س، ص. 189.

3 - Barthes, R. Et Al. **Exégèse Et Herméneutique**. Éditions Du Seuil, Paris, 1971, P. 309.

- الغرايب حسن، دور البحث العلمي في ضبط المفاهيم والمصطلحات علم التأثيل أنموذجا، م. س، ص. 13.

ثانيا: الباب في الاصطلاح المعماري.

تميزت مداخل الأبنية العامة والقصور في العمارة الإسلامية بضخامتها، والباب في المصطلح الأثري المعماري سواء كان خارجيا أو داخليا، رئيسا أو فرعيا هو الفتحة القائمة في سور المدينة أو الحصن أو في واجهة المسجد والمدرسة والقصر والبيت وغير ذلك مما يغلق عليه مصراع او مصراعان أو أكثر[1]. لذلك تعد الأبواب من العناصر المعمارية الأساسية، فهي وسيلة الاتصال ما بين داخل المباني وخارجها[2]، فضلا عن كونها تمثل قطبا اقتصاديا جذابا[3].

ويتم التمييز في المباني العسكرية بين الباب ذا المعطف الواحد الذي ظهر بالمغرب والأندلس خلال القرن الخامس الهجري (11م) والأبواب ذات الالتواءات المتعددة التي ظهرت ابتداء من القرن السادس الهجري (12م)، كما يمكن التمييز في وظائف الأبواب العسكرية بين الوظائف العامة التي تقدم مختلف الخدمات وشكلت قاسما مشتركا بين جميع الأبواب، وبين الوظائف العامة التي كانت حكرا على باب من الأبواب بعينها، ومنها ما كان مشتركا أيضا[4].

ولا شك أن إمعان الحكام والسلاطين في زيادة التأمين والتحصين لموطن استقرارهم عملوا على تشييد وبناء أبواب خاصة للمدينة تساعد على مبارحتها والهرب منها إذا نشبت ثورة مفاجئة، حيث كانت هذه الأبواب الخاصة الأساس الذي قام عليه انتشار "باب السر" خصوصا في تلك العصور التي سادتها الفتن والاضطرابات، فلم يقتصر إنشاء أبواب السر على القلاع ومراكز السلطة ولكنه ساد قصور وبيوت الأمراء المنتشرة في المدينة[5].

1- رزق عاصم محمد، **معجم مصطلحات العمارة والفنون**، مكتبة مدبولي للنشر، مصر، 2000، ص. 23.

2- التوري عبد العزيز، مادة باب، ضمن **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1991م، ج3، ص. 945.

3- أكدال سعيد، المدن العتيقة في الوطن العربي: من أجل انقاد وإحياء تراث حضاري، **مجلة الوحدة**، السنة الثامنة، العدد 23، ماي 1992، ص. 64.

4- المرجع نفسه، ص. ص. 946-947.

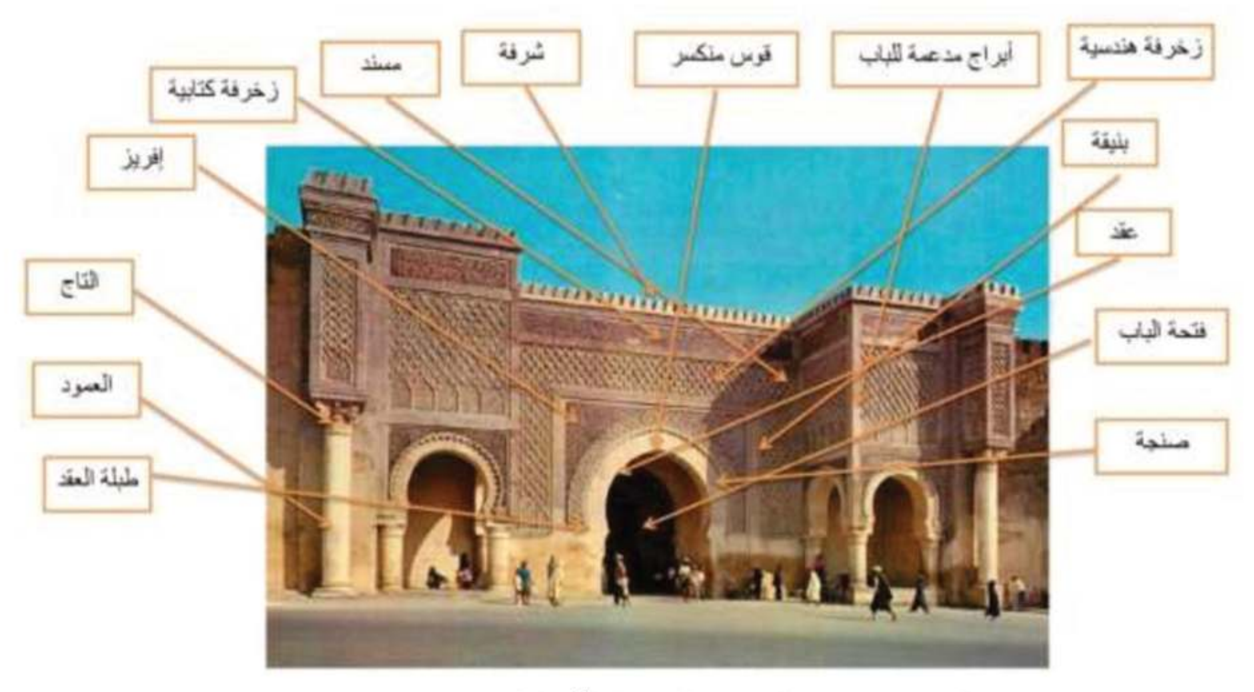
5- عثمان عبد الستار محمد، عبد الستار عثمان، التطور التاريخي لظاهرة الحوش في العمارة، **مجلة عالم البناء**، العدد 204، 1998، ص. 158.

ونظرا لقيمة الأبواب وأهميتها في العمارة الإسلامية عامة والعمارة العسكرية على نحو خاص، فقد ارتبطت بها عناصر معمارية ومصطلحات فنية تعبر عن مكوناتها ومن أهمها ما يلي[1]:

- **أفريز (Frise)** : إطار مستطيل يحيط بالعقد، أو بأعلى الجدار الخارجي، ويتجلى دوره في التخفيف من سقوط المطر على الجدران فضلا عن دوره التزيني.
- **باشورة (Porte en chicane)** : تعرف في المغرب بالأبواب ذات المرافق أو الأبواب المنكسرة التي تفرض الانعطاف يمينا أو شِمالا لإعاقة تقدم المهاجمين.
- **بنيقة (Ecoinçon)**: تدل على المساحة المثلثة الشكل المحصورة بين عقدين متجاورين والإطار الأفقي الذي يعلوها، أو على المثلث الركني الواقع بين قوس العقد وضلعي المستطيل المحيط به.
- **تاج (Chpiteau)**: وهو الجزء المزين لرأس العمود، ومن أنواعه الناقوسي والكورنثي والأيوني والمركب والقوطي.
- **دهليز (Passage souterrain)**: الممر الذي يصل بين باب المسكن وصحنه، أو ممر تحت الأرض يعرف بالسرداب.
- **ساكف (Linteau)**: أعلى الباب الذي يقابله العتبة التي يوطأ عليها، والتي تسمى بالسكفة والأسكوفة.
- **صنجة (Voussoir)**: هي الكتل الحجرية التي يتألف منها العقد بشكل يتداخل بعضها في بعض.
- **عقد (Arc)**: عنصر معماري مقوس مؤلف من قطع حجرية ملتصقة فيما بينها.
- **مدخل (Entrée)**: هو تلك الفتحة التي تساعد الولوج والخروج، وهي مبثوثة على واجهة المنازل والقصور والقلاع، وتختلف من حيث الأبعاد والشكل والزخرفة والوظيفة.

1- اعتمدنا في تعريف العناصر والمصطلحات المعمارية المتعلقة بالأبواب على بعض المصادر وما جاء في بعض الدراسات منها: لملوكي محمد، **العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي**، أطروحة مرقونة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال-الرباط، السنة الجامعية 2008-2009، ص. 259. رزق عاصم محمد، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، م. س، ص. ص. 23-24. بيلول جمال، **المصطلحات المعمارية المدنية**، إفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى، 2014.

- **مصراع (Battant d'une porte):** يطلق عليه بالعامية "الدفة" التي يتكون منها الباب.
- **مقرنصات (Stalactites):** عنصر إنشائي وزخرفي يؤلف حليات معمارية تشبه خلايا النحل تتدلى في طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض في أشكال معمارية متعددة من العمارة الإسلامية.



الصورة رقم 1: العناصر المعمارية المكونة لباب منصور

وقد استخدمت في زخارف الأبواب جميع العناصر المعمارية الإسلامية وفنونها كفقرات الأقواس الملونة والمتداخلة والفسيفساء والرخام والخزف[1] وغيرها من العناصر المعمارية والمواد الصناعية التي احتوت عليها، وتجدر الإشارة إلى أن الأبواب عرفت عدة تسميات مثل النسبة إلى حاكم المدينة أو المدينة نفسها، أو إلى ولي صالح، أو إلى الاتجاه الجغرافي الذي تطل عليه، أو إلى اسم القبيلة التي تقطنها، أو الحرفة التي تزاول بالقرب من أبواب المدن، وهذا ما يفسر وجود أسماء بعض الأبواب بالمدن السلطانية المغربية لها نفس العلم المكاني.

1- يحيى وزيري، **موسوعة عناصر العمارة الإسلامية**، مكتبة مدبولي للطباعة والنشر، مصر، 1999، ص. 11.

ثالثا: جوانب من المشهد العمراني لمدينة مكناس

تجسد مدينة مكناس من حيث شكلها العام ومكوناتها العمرانية نمطا متفردا في التاريخ الحضري المغربي[1]، وذلك من خلال ضمها لوحدتين عمرانيتين متجانستين ومتكاملتين في نفس الوقت يتمثلان في مدينة وسيطية وأخرى سلطانية أكثر حداثة[2]، ومما يزيد من تفرد حاضرة مكناس هو كون بدايات وأصول نشأتها وتمدنها معروفة إلى حد ما مقارنة بالروايات المتضاربة التي اقترنت بتأسيس عدة حواضر كبرى كفاس ومراكش ورباط الفتح[3].

وفي هذا السياق، فقد كانت مدينة مكناس قبل حكم المرابطين عبارة عن مجموعة من المدائن المتفرقة[4]، حيث "كان اسم مكناسة يطلق على مجموعة غير مسورة من المدن الصغيرة والقرى تتفاوت في حجمها، وتقع عند الشمال الغربي لمكناسة الحالية"[5]، فكانت تسمى تارة بمكناسة أو مكناسة الزيتون، وأحيانا أخرى بمدائن مكناسة أو حوائر أو قرى مكناسة[6]. وذلك بعدما استوطنتها عناصر بشرية من قبيلة مكناسة الزناتية، أضيفت إليهم عناصر من القبائل وهي: "ورزيغة" و"عوسجة"[7].

وفي عصر الدولة المرابطية تمت السيطرة على مدائن مكناس، وذلك بعد تأسيس المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين حصن "تاكرارت" غرب واد فلفل[8] (واد بوفكران)، الذي يعتبر النواة الأولى لمدينة مكناس[9]، ليتم بعد تشييده بناء المساكن والأحياء حوله لاستقبال العناصر الوافدة على المدينة[10] التي أصبحت مع مرور الزمن تحتضن عدة أسواق وأحياء

1- القبلي محمد وأخرون، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، منشورات عكاظ، الرباط، السحب الثاني، 2012، ص. 416.

2- كنكورة مصطفى، **استراتيجية المحافظة ورد الاعتبار للمدن العتيقة بالمغرب حالة مكناس من 1912 إلى بداية القرن 21**، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب، سايس، فاس، السنة الجامعية 2009-2010، ص. 3.

3- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 45.

4- ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، م. س، ص. ص. 13-14.

5- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 179.

6- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

7- ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، م. س، ص. 14.

8- المصدر نفسه، ص. 18.

9- المنوني محمد، **التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور**، م. س، ص 21.

10- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 182.

ومساجد، رغم هيمنة الطابع العسكري الذي ميز نسيجها العمراني خلال هذه الفترة[1]، ومما لا يزال قائما من العمران المرابطي بمدينة مكناس حتى اليوم نجد حومة كناوة ودرب الفتيان.

وأما في الفترة الموحدية، فقد دخلت مكناس في مرحلة التمدن والحضارة، فزودت بالماء الذي جلب إليها من "عين طيبة الماء عجيبة القدر بموضوع يقال لها تاجما"[2] وذلك باستخدام قنوات من حجر متقنة البناء توضع في جوفها أنابيب الرصاص لحماية القاطنين بالمدينة من كل دنس[3]، فضلا عن توسيع المسجد الأعظم عام 600هـ/1203م[4] ودار الأشراف[5] حيث يوجد مقر المشرف على الجبايات[6]، وأيضا تشييد أربع حمامات هي: حمام الكدية، حمام المولى عبد الله بن أحمد، وحمام الجديد والحمام الصغير[7]. وفي إطار توسيع المدينة وتزويدها بالمرافق العامة والأركان العمرانية، أحدث الموحدون أحياء جديدة، قد يكون من بينها حي سيدي أحمد بن خضراء[8].

مع حلول العصر المريني اندثرت حوائر مكناس الواقعة على ضفاف نهر ويسلان وبوفكران وتحولت إلى جنات مغروسة، فنزح أهلها إلى المدينة الجديدة للاستقرار في أحيائها، فشرع أبو يوسف يعقوب المريني في بناء قصبة جديدة بمدينة مكناس وتشييد جامعها المعروف حاليا بجامع للا عودة سنة 647هـ/1276م[9] الذي كان يعرف "بجامع القصبة"[10]، فضلا عن تأسيس

1- القادري بوتشيش ابراهيم، **إسهام في التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط**، منشورات عمادة جامعة مولاي اسماعيل، مطبعة فضالة المحمدية، 1997، ص 55.

2- ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، م. س، ص. 28.

3- ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص. 36.

4 -El Khammar Abdeltif, **Mosquées Et Oratoires De Meknès (Ixe-Xviiie Siècles) : Géographie Religieuse, Architecture Et Problème De La Qibla**, Thèse De Doctorat D'histoire Et D'archéologie Médiévales (Nouveau Régime), Université Lumière-Lyon II, 2005, Tome I, P. 198.

5- المنوني محمد، **التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور**، م. س، ص 36.

6- **مدينة مكناس تاريخ ومعالم**، منشورات ودادية رؤساء المصالح الإدارية بمكناس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، رجب 1408هـ/ مارس 1988.

7- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص 25.

8- **مدينة مكناس تاريخ ومعالم**، منشورات ودادية رؤساء المصالح الإدارية بمكناس، م. س.

9- ابن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 162.

10- يطرح مسجد للا عودة معطيين متناقضين يرتبطان بتاريخ البناء والتسمية المقترنة به. ينظر في هذا الصدد:

المدرسة الفيلالية والمدرسة البوعنانية ومدرسة العدول. وقد امتازت المنشآت المرينية بجنوحها إلى المزج بين الطابعين الفني المغربي والأندلسي، علاوة على تشييد منشآت ذات وظيفة اجتماعية لم تكن معروفة من قبل بالمدينة لكون ظهورها ارتبط بالعصر المريني مثل المارستانات والزوايا ودور الضيافة[1]. وفي عهد الوطاسيين والسعديين لم تشهد مكناس مشاريع عمرانية جديدة، نتيجة المرحلة القصيرة للحكم الوطاسي بالمغرب واتخاذ السعديين مدنية مراكش عاصمة لهم فضلا عن الانشغال بصد الغزو الإيبيري للسواحل المغربية، الذي جعل الاهتمام ينصب على المدن الساحلية أكثر من الحواضر الداخلية.

تأسيسا على ما سبق، يتضح أن مدينة مكناس عرفت خلال العصر الوسيط قد استطاعت المحافظة على استمراريتها العمرانية[2] بفضل تكيفها مع تعاقب الأسر الحاكمة للدولة المغربية الوسيطية، وذلك ما جعلها لا تنزل عما كان ينجز بغيرها من المراكز والحواضر[3]، غير أنه، ورغم ما عرفته من منشآت عمرانية عسكرية ومدنية ودينية في المرحلة الوسطية، فإنها لم تكن في مكانة ما وصلت إليه في عهد المولى إسماعيل التي اقترن تاريخها به لكونه جعلها ضمن المدن العواصم.

وفي هذا الإطار، فقد تحول مسار مدينة مكناس منذ أن اتخذها مولاي إسماعيل عاصمة لملكه، حيث إن اهتمامه بتشييد معالمها لم يكن أقل شأنا من اهتمامه بترسيخ أسس العلاقات الدبلوماسية مع دول العالم شمالا وجنوبا، وبذلك جعل منها مفخرة العصر لدرجة جعلت المؤرخ الفرنسي سان ألون سفير لويس الرابع بقوله: "لقد كان المولى إسماعيل يريد أن يحدث لأمته آية من آيات ملكه"[4].

- اللحية محمد، **تأسيس مسجد للا عودة بين الكتابات التاريخية والدراسات الأركيولوجية**، ضمن أعمال ندوة السلطان مولاي إسماعيل، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، مكناس 1995، ص. 143-154.

- El Khammar Abdeltif, **Mosquées Et Oratoires De Meknés**, Op. Cit, Tome I, Pp. 210-211.

1- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 250.

2- المرجع نفسه، ص. 303.

3- اللحية محمد، التدابير العسكرية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر: طبيعتها وأهدافها، **ضمن أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1988، ص. 278.

4- **مدينة مكناس تاريخ ومعالم**، منشورات ودادية رؤساء المصالح الإدارية بمكناس، م. س.

وتتمثل أهم المنجزات العمرانية للمولى إسماعيل الذي رغب "في بناء عاصمة ذات منشآت معمارية ضخمة تنسي الزائر منجزات السلف"[1]، فيما شهدته الحاضرة الإسماعيلية من نهضة معمارية متنوعة ومكثفة شملت مختلف العمائر الدينية والاقتصادية والثقافية والعسكرية[2]، وقد شكل هذا النمط المعماري الأخير سمة بارزة في العمران الإسماعيلي بمكناس، والذي يظهر في تعدد الأبواب والأبراج والأسوار التي هدف من خلالها السلطان مولاي إسماعيل فرض شخصيته وقوته أمام الأجانب[3].

وبالنسبة للمدة التي استغرقها البناء فقد ظل طيلة فترة حكم السلطان مولاي إسماعيل، حيث إنه "كلما أكمل قصرا أسس غيره"[4] عبر "فرض العمل على القبائل مناوبة، فصارت كل قبيلة من قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهائم في كل شهر، وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر، فصار أهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عددا معلوما كذلك"[5].

خلاصة القول، أن التطور العمراني الذي عرفته مكناس من التأسيس إلى عهد مولاي إسماعيل، يوضح بجلاء أن تنظيمها الحضري اتسم بخضوع العمران الإسماعيلي لتصميم هندسي منتظم ومسبق[6]، مما يفند بعض الأطروحات الإستشراقية التي أكدت على عفوية المدينة الإسلامية[7]. ومن بين تجليات التخطيط المنتظم بحاضرة مكناس في ترتيب كتلها العمرانية من حيث قربها أو بعدها من قصبة السلطان، وكذا في الأبواب العديدة التي تربط بين مختلف مرافق المدينة. (الشكل رقم 1)

1- القبلي محمد وأخرون، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، م. س، ص. 413.

2- حيمر جمال، العمران الإسماعيلي: مقدمات وملاحظات عامة، ضمن **أعمال ندوة السلطان مولاي إسماعيل**، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، مكناس 1995، ص. 158.

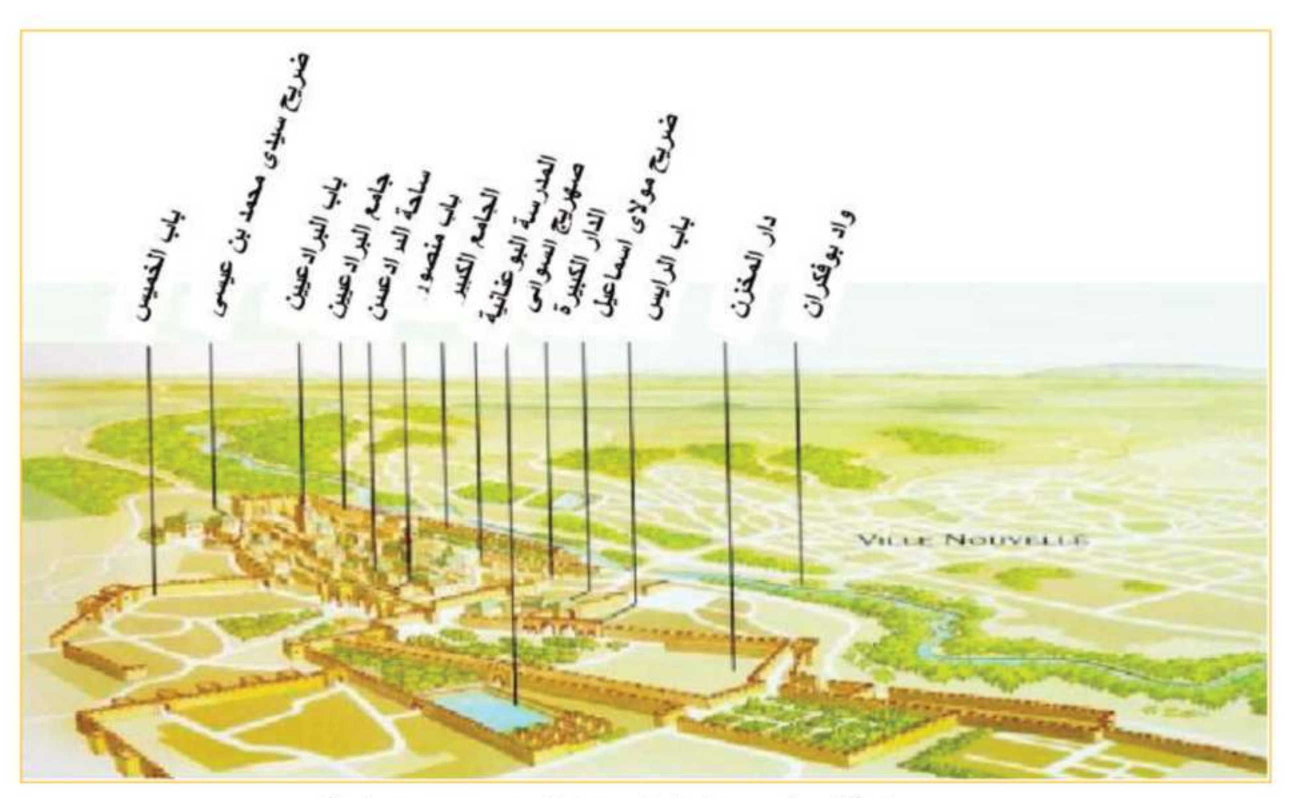
3 -Barrucand (M), L'architecture De La Qasba De Moulay Ismaïl À Meknès, **Étude Et Travaux d'Archéologie Marocaine**, Vol VI, 1976, P. 46-65.

4- الزياني أبو القاسم، **البستان الظريف في دولة مولاي الشريف**، دراسة وتحقيق الأستاذ رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1992، ص. 154.

5- الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/1997م، ج. 7، ص. 49.

6- القبلي محمد وأخرون، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، م. س، ص. ص. 416-417.

7- حيمر جمال، **العمران الإسماعيلي**: مقدمات وملاحظات عامة، م. س، ص. 157.



الشكل رقم 1: المعالم العمرانية للحاضرة الإسماعيلية[1]

رابعا: الدلالة الطوبونيمية لنماذج من أبواب حاضرة مكناس

1- الدلالة الطوبونيمية لأبواب مكناسة الوسيطية

1.1 باب البرادعيين

- **موقع الجغرافي:** يقع باب البرادعيين في شمال مدينة مكناس، حيث يؤدي عن يمين الداخل منه إلى حومة جناح الأمان[2].

- **طرائق رسمه:** البراذعيين[3]، البرذعيين[4].

- **تاريخ بنائه:** بداية، فقد عرف هذا الباب منذ بنائه في العصر المرابطي تحولات متتالية لموقعه[5]، لذلك يجب التمييز بين باب البرادعيين القديم الذي كانت توحي هيأته المحصنة

1- Pôle Historique De Meknès, Étude De Requalification & Renouvellem- Ent Urbains, Juin 2008, P. 10.

2- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 190.

3- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31. ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008، ج. 1، ص. 81.

4- الريفي بن موسى عبد الكريم، **زهر الأكم**، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص. 188.

5- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 190.

وضخامته بأن المرابطين بعد تشييده قد سعوا إلى جعله الباب الرئيسي لحصنهم[1]، وقد تعرض هذا الباب للهدم في حوالي 1097 أو 1098هـ/1687-1688م[2]، وبين "باب البراذعيين الجديد"[3] قرب ضريح سيدي عبد الله بن أحمد في الجانب الغربي للمدينة[4] قريبا من الموقع الأصلي للباب القديم في اتجاه الشمال الغربي[5] عند منتهى الزاوية الناصرية على جانبها الأيسر[6]، والذي تم تشييده في عهد السلطان مولاي إسماعيل، حيث كان تمام بنائه سنة 1107هـ/1696م[7].

- **سبب التسمية:** يرجع سبب التسمية إلى حرفة البرادعي صانع الإكافات للدواب والسرج لخصوص البغال[8]، إذ كان الحرفيون في موضعه يتجمعون لصناعة البرادع للدواب، وهذه الدلالة تنسجم مع معنى لفظ "البَرْذَعَةُ" في أمهات المعاجم العربية، حيث خص بعض من أهل اللغة "البراذع بالحمار" سواء كتبت بالذال أو بالدال[9]، وتجدر الإشارة إلى أنه بحكم ارتباط كثير من أبواب المدينة المغربية بالصنائع والحرف التي كانت في بعض أبوابها، فإننا نجد كثيرا من الطوبونيميات في المدينة المغربية العتيقة تحمل هذا الاسم مثل درب البرادعيين بفاس[10]، وقبة البرادعيين قرب جامع ابن يوسف بمراكش[11]، والتي تعرف أيضا بقبة الباروديين[12].

1- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس**، م. س، ص. 123.

2- المرجع نفسه، ص. 119.

3- ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 205.

4- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

5- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م. س، ص. 190.

6- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس**، م. س، ص. 119.

7- الريفي، **زهر الأكم**، م. س، ص. 188.

8- الشادلي عبد اللطيف، **معجم المصطلحات الإدارية والألفاظ العامية والأجنبية الواردة في بعض الوثائق والمؤلفات المغربية**، المطبعة الملكية الرباط، 1428هـ/2007م، ص. 28.

9- ابن منظور، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، مادة برد، دار المعارف، د.ت، مج. 3، ص. 252.

10- يشي طارق، **الدراسة التاريخية لأماكن مدينة فاس الوسيطية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2019، ص. 8.

11- بنعبد الله عبد العزيز، جوامع المغرب ومساجده، **مجلة دعوة الحق**، العدد 232، صفر 1404هـ/نونبر 1983م، تم الاطلاع على المقال في موقع Http://Www.Habous.Gov.Ma/Daouat-Alhaq/Item/6080 بتاريخ 2020/05/08.

12- إسماعيل عثمان عثمان، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1993، ج.2، ص. 152

1.2 باب المشاورين

- **الموقع الجغرافي:** يقع غرب المدينة في حي الحمامصيين قريبا من مشهد سيدي عبيد المظلوم جوار مقبرة للا جميلة[1].

- **طرائق رسمه:** المشاورين[2]، المشاورين القديم[3]، المشاورية[4].

- **تاريخه:** يعتبر هذا الباب من الأبواب الستة التي أشار إلى وجودها ابن غازي بمكناس، وقد ظل هذا الباب قائما إلى أن هدم أواخر القرن 11هـ/17م وبني وراءه غربا الباب المسمى اليوم باب بريمة[5]. وغني عن البيان أن باب المشاورين في العصر الموحدي شكل "الباب الأكثر رمزية وأهمية"[6] لهم بمكناس، حيث "كانت تعلق عليه رؤوس الثوار، ويخرج منه إلى المصلى"[7].

- **سبب تسميته:** لا يعرف سبب تسمية باب المشاورين بهذا الاسم[8]، غير أنه إذا انطلقنا من ما ذكره أحد الباحثين من كون المؤسسات الرسمية الموحدية كانت تتمركز قريبا من باب المشاورين[9]، وكذا من التعريف الذي قدمه ابن زيدان للمشاورين من كونهم **"أعوان قائد المشور وهم بمثابة أصحاب الشرطة، بواسطتهم تبلغ الأوامر المولوية، وتوزع مكاتب الولائم وغيرها"**[10]، يمكن وضع فرضية أن هذا الباب قد يكون اتخذ اسمه من كونه المكان الذي كانت تتم فيه المشاورات الأخيرة بين ممثلي السلطة الحاكمة للدولة الوسيطية بمكناس في قضية ما قبل التوجه لمهمة معينة، خاصة وأن هذا الباب "كان يشكل المنفذ الرئيسي

1- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس**، م. س، ص. 191.

2- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31.

3- حوالة الأحباس الكبرى رقم 5، ص. 25، نقلا عن حيمر جمال، **مكناس من التأسيس**، م. س، ص. 192.

4- أبي حامد محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب)**، تحقيق محمد بن حمزة علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، د.ت، ص. 82.

5- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31. (الهامش رقم 52)

6- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية...**، م. س، ص. 123.

7- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

8- بلمقدم رقية، المشاورين، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1426هـ/2005، ج. 21، ص. 7152.

9- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس**، م. س، ص. 123.

10- ابن زيدان عبد الرحمان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، المطبعة الملكية، الرباط، 1381هـ/1961م، ج. 1، ص. ص. 133-134.

للمدينة على غربها"[1]، فضلا عن كون كلمة المشاوريين ارتبطت بالآداب السلطانية في التراث العربي، وفي هذا السياق، فقد قال الحكماء قديما "المشورة عين الهداية"[2].

1.3 باب عِيسِي

- **الموقع الجغرافي:** لا يعرف على وجه التدقيق موقع هذا الباب في المدينة.

- **تاريخه:** كل ما نعرفه عن باب عيسِي أنه من بين الأبواب التي كانت تخترق السور المرابطي[3] بحاضرة مكناس، وقد هدم هذا الباب قبل سنة 1097هـ/1686م[4] **"وزيد في القصبة، وموضعه الأن بين باب سعيِّد –بكسر الياء المشددة - وضريح سيدي عبد الرحمان المجدوب"**[5].

- **سبب تسميته:** لا يعرف سبب التسمية نظرا للصمت المطبق في المصادر التاريخية حول دلالة العلم المكاني الذي يحمله هذا الباب.

1.4 باب القلعة

- **الموقع الجغرافي:** لا يعرف موقع هذا الباب بالتحديد*.

- **تاريخه:** كل ما يعرف عن تاريخ باب القلعة انطلاقا من إحدى الدراسات بأنه باب أصلي في هيكل مدينة مكناس، مما يعني أنه مرتبط بنشأتها الأولى[6]. وذلك استنادا إلى بعض الإشارات التي وردت في هامش "الروض الهتون" التي ذكر صاحبها أن هذا الباب "هدم وزيد في القصبة،ومكانه الآن قرب باب العلوج"[7]، وإذا كان العلامة محمد المنوني قد اعتبر أن باب

1- اللحية محمد، محددات **نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. 123.

2- المناوي عبد الرؤوف زين العابدين، **الجواهر المضيئة في بيان الآداب السلطانية**، دراسة وتحقيق سالم أحمد محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008، ص. 223.

3- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31.

4- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. ص. 123-124.

5- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31. (الهامش قم 53)

* رجح الأستاذ محمد اللحية أن موقع باب القلعة المهدم "كان يوجد إلى الداخل من باب الدار الكبيرة (باب العلوج)، بانحراف قليل نحو يمين النافذ منه إلى الداخل، وعند النقطة المواجهة للمر الكبير..." اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. 130.

6- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. 125.

7- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31. (الهامش قم 53)

العلوج في الوقت الحالي هو باب الحجر[1]، فإن أحد الدارسين يرى بأن باب العلوج هو باب الدار الكبيرة[2].

- **سبب تسميته:** وضع الأستاذ محمد اللحية احتمالين للدلالة التي يحيل عليها اسم "باب القلعة"، الاحتمال الأول يتمثل في أنه بحكم انفتاح "باب القلعة" لمدينة مكناس جنوبا[3] على الاتجاه المؤدي إلى "قلعة مهدي بن تبالا*"[4] التي تسمى كذلك بـ "قلعة فازاز"[5] في أعالي جبال الأطلس المتوسط، ومعلوم أن هذه القلعة التي أثارت عناد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين قبل ضمها لمجال الدولة المرابطية في حوالي سنة 461هـ/1069م[6]، فإنه يحتمل أن يكون "باب القلعة" بمكناس قد استمد اسمه من "قلعة فازاز".

وأما الاحتمال الثاني، وهو الذي رجحه الأستاذ محمد اللحية، فيتجلى في ربط تسمية باب القلعة بوجود تحصينات دفاعية قريبة منه، كانت تدعمه من الداخل أو من الخارج[7]، والمهم في كلا الاحتمالين هو أن تسمية الباب اقترنت بالتحصينات العسكرية والنظام الدفاعي للمدينة المغربية الوسيطية سواء في زمن الحكم المرابطي أو في العصر الموحدي أو المريني.

1.5 باب القورجة

- **الموقع الجغرافي:** يقع بالطرف الشرقي للمدينة[8].
- **طرائق رسمه:** اقورج[9]، قورجة[10]، القوارجة[11].

1- المنوني، التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور، م. س، ص 33.

2- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. 129.

3- المرجع نفسه، ص. 125.

* مهدي بن تبالا يذكره ابن خلدون باسم "مهدي بن توالي من بني يحفش". ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر**، دار الكتب العلمية، اعتنى بنشره عادل بن سعد، بيروت-لبنان، 2016، ج. 6، ص. 198.

4- ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، 1434هـ/2013م، ج. 3، ص. 15.

5- ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، م. س، ص. 198.

6- ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج. 3، م. س، ص. 15.

7- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. 125.

8- المرجع نفسه، ص. 131.

9- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31.

10- المصدر نفسه، الصفحة نفسها، (الهامش قم 53).

11- الجزنائي علي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411هـ/1991م، ص. 42.

- **تاريخه:** إذا كان لا يعرف تاريخ بناء هذا الباب بالتدقيق، من المؤكد أن تشييده يرجع للفترة المرابطية، حيث إنه بالاستناد إلى التشييد العمراني الذي عرفته مدينة فاس في عهد علي بن يوسف والمتمثل في "بناء سور القوارجة الذي بين باب الجيسة وباب يصليتن على يد قاضيه عبد الحق ابن معيشة بمال وظفه على أهل مدينة فاس حسبما ذكره صاحب (المقياس)" [1] الذي نقل عنه الجزنائي، ويظهر من خلال هذه الرواية بأن مصطلح القورجة كان متداولا بالمغرب خلال العصر المرابطي.

وتجدر الإشارة إلى أن باب القورجة هدم وزيد في القصبة[2]، وذلك في سياق التعديلات الإسماعيلية التي همت شرق المدينة في عهد مولاي إسماعيل[3]، وبني إلى الشمال منه باب يسمى باب عبد الرزاق كان يخرج منه للحبول ثم هدم"[4] في بداية عهد السلطان مولاي يوسف.

- **سبب تسميته:** إذا كانت لفظة "القورجة أصلها من الإسبانية (Coracha) وتعني ركنا في الجدار يبرز عن الحصن لحماية منطقة في حالة حصار. يوجد فيها بئر يستمد ماءه من واد مجاور يشرب منه المهددون بالتطويق"، فإنه يفترض أن تسمية "باب القورجة"[5] لها علاقة بهذا المعنى المرتبط بالوظيفة التحصينية والدفاعية التي اضطلع بها منذ تشييده.

1.6 باب دردورة

- **الموقع الجغرافي:** لا تسعف الإشارات المصدرية في تحديد الموقع الأصلي لهذا الباب.

- **تاريخه:** يعتبر باب دردورة الذي يقال له "باب الصفا"[6] الباب الأخير في سلسلة أبواب المدينة الستة التي كانت تخترق السور المرابطي، "وقد هدم هذا الباب"[7] وبني على مقربة من موضعه باب تيزيمي،

- **سبب تسميته:** لا يعرف سبب التسمية بشكل عام، غير أنه إذا رجعنا لمعاجم اللغة نجد أن لفظ دردورة عربي الأصل ترتبط دلالته بالماء، حيث إن "الدَّرْدُورَة" جاءت بمعنى الماء

1- الجزنائي علي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، م. س، ص. 42.

2- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31. (الهامش 55).

3- حيمر جمال، **مكناس من التأسيس**، م. س، ص. 191.

4- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31. (الهامش 55).

5- الشادلي عبد اللطيف، **معجم المصطلحات الإدارية والألفاظ العامية والأجنبية**، م. س، ص. 170.

6- ابن غازي، **الروض الهتون**، م. س، ص. 31.

7- المرجع نفسه، الصفحة نفسها. (الهامش 56).

يجيش ويدور من الدردور[1]، وإذا علمنا بأن المدينة توجد بها قنطرة تحمل طوبونيم "دردورة"*[2]، ومعلوم أن القناطر من المنشآت المائية، فإنه يحتمل أن يكون هذا الباب قد استمد دلالته من مياه ينفتح عليها اتجاهه أو بالقرب منه قناة مائية تحول المياه لاتجاه معين.

2- الدلالة الطوبونيمية لنماذج من أبواب الحاضرة الإسماعيلية

1.1 باب الدار الكبيرة

- **الموقع الجغرافي:** يمثل المدخل الرئيسي للدار الكبيرة التي كانت تمتد من قصر الستينية المحاذي لساحة للا عودة وتنعطف يسار الحي الإسماعيلي وحي سيدي النجار ثم تذهب موازية لمر الدريبة حتى قصر النصر المجاور للستينية[3].

-**تاريخه:** تم تشييد باب الدار الكبيرة الذي يعد المدخل الرئيسي للمدينة الملكية وأقدمها[4]، كما يتضح من خلال الكتابة المعمارية المنقوشة في أعلى الباب سنة 1090هـ/1679م.

-**سبب التسمية:** يعتبر مصطلح الدار الكبيرة من المصطلحات المألوفة التداول في البيئة الحضارية المغربية للتعبير عن الإقامات الكبرى[5]، وهو ما يتجلى في هذا الباب الذي يعتبر المدخل الرئيسي للدار الكبيرة التي كانت تتألف من عدة قصور إسماعيلية بجوار ضريح الشيخ المجذوب.

- **الموقع الجغرافي:** يشرف باب منصور العلج على ساحة الهديم ويقع شرق المدينة القديمة لمكناس.

1- شفيق محمد، **الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة المعاجم، الرباط، 1999، ص. 102.

* كانت تعرف قنطرة دردورة من قبل بـ "قنطرة بن يشُّ"، وقد بنيت سنة 1104هـ/1692-1993م. الريفي، **زهر الأكم**، م.س، ص. 187.

2- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 193.

3- بوعسرية بوشتى، "الدار الكبيرة"، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1421هـ/2001، ج. 12، ص. 3935.

4 -Barrucand (M), **L'architecture De La Qasb...**, Op. Cit, Vol VI, P. 31.

5- حيمر جمال، " العمران الإسماعيلي: مقدمات وملاحظات عامة "، م. س، ص. 159.

- **تاريخه:** يعد باب منصور العلج من أهم المعالم الأثرية الأكثر شهرة بمكناس[1]، كما يعتبر أضخم الأبواب وأجملها في العالم العربي[2]، حيث يمثل بزخرفته ونقوشه الهندسية النباتية والكتابية تحفة معمارية، وقد شكل أحد الأبواب الثلاثة التي كانت تنفتح عليها القصبة الإسماعيلية الأولى و"يدعى باب المدينة"[3]، وإذا كان المولى إسماعيل قد شيد هذا الصرح المعماري، فإنه في عهد ابنه مولاي عبد الله تمت زخرفته وتزيين واجهته الخارجية سنة 1144هـ/1731م[4].

- **سبب التسمية:** سمي هذا الباب باب منصور العلج بهذه التسمية نسبة إلى القائد "منصور العلج البواب" الذي كان على حراسته[5].

1.2 باب الخميس

- **الموقع الجغرافي:** يعتبر الباب الرئيسي لمدينة الرياض العنبري المندرسة التي شيدها مولاي إسماعيل ويعرف مكانها إلى الآن بالرياض.

- **تاريخه:** تم بناء باب الخميس في سنة 1098هـ/1687م[6]، وذلك ما يتمثل في الكتابة المعمارية المنقوشة "في الزليج المتوج به أعلى الباب"[7]، والتي تتألف من ثلاث أبيات شعرية، يتضح أن لها مضمون تاريخي يتضمن إشارات تفيد في معرفة اسم الآمر بالبناء وتاريخ تشييده، حيث إنه اعتمادا على الحساب بالجمل[8]، فإن الشطر الأخير من البيت الشعري الثالث في القصيدة

---

1 -Barrucand (M), **L'architecture De La Qasba...**, Op. Cit, Vol VI, P. 35.

2- شهريار عبد القادر محمود وسعد جرجيس، التكامل الفني من التجليات الجمالية في الطراز الإسلامي الأندلسي، **مجلة الأكاديمي**، العدد 94، 2019، ص. 118.

3- مويط، **رحلة الأسير مويط**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، دار المناهل للطباعة والنشر، الرباط، 1990، ص. 73.

4- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 229.

5- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م. س، ص. 129.

6- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 198.

7- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

8- حِسَابُ الجُمَّلِ: وقال بعضهم بتخفيف الميم، وقيل حروف الجمل هي الحروف المقطعة على أبجد هوز. وهو ضرب من التأريخ استعمله المؤلفون العرب قديما يعتمد على العبارة عوض الأرقام، ويسميها المغاربة حَمَّارة الحساب. أحمد شوقي بنبين ومصطفى الطوبي، **مصطلحات الكتاب العربي المخطوط "معجم كوديكولوجي"**، **الخزانة الحسنية**، الرباط، الطبعة الرابعة، 2011م، ص. 120.

وتحديدا كلمتي "جود المشيد"، تظهر أن تاريخ بناء باب الخميس كما سبقت الإشارة هو عام 1098هـ/1687م.

- **سبب التسمية:** تكاد تجمع الذاكرة الجماعية وبعض الدراسات الحديثة على أن تسمية هذا الباب ترجع لكونه كان منفتحا على سوق أسبوعية مخصصة للماشية تعرف بسوق الخميس[1].

1.3 باب تيزيمي

- **الموقع الجغرافي:** تقع "باب تيزيمي الصغيرة"[2] في المكان الذي كان يوجد به باب دردورة المهدم[3].

- **تاريخه:** لا يعرف على وجه التحديد تاريخ بناء هذا الباب غير أن أحد الباحثين اعتمادا على عدة إشارات واردة في وثائق الأحباس جعل تاريخ بناء باب تيزيمي محصورا ما بين 1113هـ/1702-1703م و1127م/1715م[4].

- **سبب التسمية:** سمي باب تِيزِيمِي بهذا الاسم نسبة لقبيلة من منطقة تافيلالت[5] نقلت في عهد مولاي إسماعيل للاستقرار بالقصبة التي تحمل هذا الاسم، ولا زالت قصور تيزيمي التي انحدر منها سكان القصبة تاريخيا تضم في واحات تافيلالت إلى اليوم 36 قصرا بضواحي مدينة أرفود وتابعة إداريا لجامعة عرب الصباح زيز القروية.

1.4 باب أبي العمائر

- **الموقع الجغرافي:** يقع في الشمال الغربي للعاصمة الإسماعيلية في اتجاه المدينة الجديدة حمرية من باب ضريح الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي أحد رجال العلم بالعاصمة الإسماعيلية[6].

- **تاريخه:** يعتبر باب أبي العمائر من بين الأبواب التي شيدها السلطان مولاي إسماعيل العلوي بمكناس، وقد تعرض هذا الباب للهدم بعد سيطرة المستعمر الفرنسي على مدينة مكناس،

---

1 -Barrucand (M), **L'architecture De La Qasba...**, Op. Cit, Vol VI, P. 47.

2- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 205.

3- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس**، م. س، ص. 136.

4- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس**، م. س، ص. 136. (الهامش).

5- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 205.

6- المصدر نفسه، ج. 1، ص. 77.

وذلك لإزالة الحاجز بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة لتسهيل حركة مرور السيارات والعربات بين المدينتين[1].

- **سبب التسمية:** ينسب هذا الباب إلى وادي أبي العمائر، وذلك "لقربه منه وعبور الداخل إليه والخارج منه من تلك الناحية عليه"[2].

1.5 باب الحجر

- **الموقع الجغرافي:** كان هذا الباب يطل على ساحة الروامزين[3] وينظر لجهة وادي أبي العمائر (بوفكران) [4].

- **تاريخه:** يعتبر من الأبواب الثلاثة التي شيدها المولى إسماعيل لقصبته منذ البداية[5]، كما يعد الباب الرئيسي للقصبة الإسماعيلية[6]، وإذا كان العلامة محمد المنوني يذهب إلى القول بأن باب الحجر يعرف بباب العلوج[7]، فإن الأستاذ محمد اللحية يرى أن موقع باب العلوج "يتطابق بالتمام وموقع الدار الكبيرة"[8]، وذلك استنادا إلى ما قدمه الأسير مويط من مواصفات مكانية وتحديدات معمارية لباب القصبة الرئيسي[9].

- **سبب التسمية:** يذكر ابن زيدان أن سبب التسمية يرجع لأحجار ثلاث مسبوكات كانت مغروسة بين بابي المسجد والمدرسة الفيلالية[10]، كما يذكر مويط بأنه سمي بهذه التسمية لبنائه بالحجر المنحوت[11].

1- المصدر نفسه، ج. 1، ص. 78.

2- المصدر نفسه، ج. 1، ص. 77.

3- مويط، **رحلة الأسير مويط**، م. س، ص. 73.

4 -Barrucand (M), **L'architecture De La Qasba...**, Op. Cit, Vol VI, P. 47.

5- مويط، **رحلة الأسير مويط**، م. س، ص. 73.

6- بوعسرية بوشتى، " دار البارود "، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1421هـ/2001، ج. 12، ص. 3904.

7- المنوني، " التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور "، م. س، ص. 33.

8- اللحية محمد، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس**، م. س، ص. 129.

9- مويط، **رحلة الأسير مويط**، م. س، ص. 73.

10- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 127.

11- مويط، **رحلة الأسير مويط**، م. س، ص. 73.

1.6 - باب زين العابدين

- **الموقع الجغرافي:** يقع هذا الباب الذي تعرض للإندراس في حوالي سنة 1958م في الجانب الغربي الجنوبي على يسار الخارج من باب منصور العلج لبطحاء الهديم، وقد كان يربط بين ساحة الهديم وحي الرياض[1].

- **تاريخه:** تم بناء هذا الباب من لدن السلطان المولى زين العابدين ابن مولاي إسماعيل الذي تولى الحكم سنة 1154هـ/1741م، بعدما تمت مبايعته بطنجة باقتراح من الباشا أحمد بن علي الريفي وموافقة جيش العبيد[2]، غير أنه "لم يدم طويلا في السلطنة، حيث فر هو الأخر في الشهر الرابع"[3]، ولما تجلت عدم قدرته على الاستجابة لمطالب جيش عبيد البخاري، وعلم بدخول أخيه المولى عبد الله إلى مدينة فاس[4] انصرف "إلى حيث يأمن على نفسه معرضا عن الملك وأسبابه"[5].

- **سبب التسمية:** سمي بهذا الاسم نسبة إلى السلطان المولى زين العابدين.

جماع القول، في هذه الدراسة الأولية التي همت طوبونيمية أبواب مدينة مكناس الوسيطية وبعض النماذج من أبواب الحاضرة الإسماعيلية، يتضح أنه إذا كانت دلالة ومعاني أسماء الأبواب التي شيدت في العصر الوسيط تبقى في حاجة إلى مزيد من التعمق في الدراسة، فإنه بالنسبة لأبواب المدينة في العصر الحديث تبقى في معظمها ذات دلالة واضحة ولا تحتمل أكثر من فرضية أو فرضيتين، كما اتضح من خلال هذا العمل أن كثيرا من مواقع أبواب المدينة عرفت تحولات متتالية لمواقعها نتيجة الهدم والبناء خاصة في الفترة الإسماعيلية وأيام الفترة (1727-1757م)، كما يظهر من هذا المنجز التحليلي الأولي أن بعض الأبواب كانت مشيدة بالقرب من بعض المعالم المعمارية التي طواها الزمن مما جعل أسماءها تمحى من الذاكرة الجماعية وأصبح من الصعب الوصول إلى دلالة العلم المكاني الذي كانت تحمله.

1- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. 1، م. س، ص. 183.

2- الناصري، **الاستقصا**، ج. 7، م. س، ص. 155.

3- **قصة الهولندية ماريا تيرمتلن**، ترجمة ودراسة وتحقيق إدريس أبو إدريس، مطبعة فضالة المحمدية، 1996، ص.69.

4- القبلي محمد وأخرون، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، م. س، ص. 428.

5- الناصري، **الاستقصا**، ج 7، م. س، ص. 156.

إضاءات حول طوبونيميا بلاد زيان:

جواد التباعي[1]

يعتبر البحث الطوبونيمي واحدا من بين مسارات كثيرة لدراسة التاريخ الجماعي لمجموعة قبلية معينة، وجها من أوجه رد الاعتبار للشخصية المغربية المتجذرة في التاريخ. ونظرا للعلاقة الوطيدة بين البحث التاريخي والطوبونيميا، بإمكان هذه الأخيرة الكشف عن بعض الجوانب من ذاكرة المكان. وتعبر بذلك على الخصوصية الثقافية للمنطقة، من خلال أسماء الأماكن، وحجم التأثير الخارجي الذي لحقها فأثر على أسمائها. كما توضح العلاقة القائمة بين التسمية والمحيط، والجسور الممتدة بينها وبين الأحداث التاريخية، في أفق وضع معاجم وأطاليس تخص هذه الأعلام المكانية.

يأتي هذا المقال مساهمة ميكرو تاريخية في دراسة بعض جوانب التنوع في تاريخ وتراث البلاد ، بدراسة وتدقيق معاني أسماء بعض الأماكن بقبائل زيان[2]، وفهم معاني كلمات أمازيغية تعرضت للتحريف لعدة أسباب، فبعضها واجه صعوبة النطق السليم حتى كادت أسماؤه الأصلية أن تختفي وراء الأسماء الجديدة. بينما طالت أخرى تشوهات عند نقلها من الرواية الشفوية الأمازيغية إلى الكتابة العربية، لذلك يرجع ابن خلدون هذه التشوهات "**في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليس من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا**"[3] مما جعله يعتمد على رسم المصحف في بعضها، وابتكار أشكال حروف أخرى تضمن الالتزام الصارم بالأصوات الأمازيغية[4].

---

1. باحث في التاريخ والتراث الجهوي، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس مكناس.

2. زيان فرع من قبائل آيت اومالو من صنهاجة، وأهم ركائزها، جاء معظمها من الجنوب المغربي والأطلس الكبير، وصل الزيانيون إلى م نحو الأطلس المتوسط الغني بإمكانياته الاقتصادية وثرواته الطبيعية مع نهاية القرن 13م، فاشتد التنافس بين القبائل الوافدة والأصلية، وبين الوافدين فيما بينهم حول المواقع والموارد. بلغ عدد العائلات الزيانية 9000 عائلة قبيل معركة لهري، أي ما يناهز 45 ألف نسمة، وأكثر من 2500 خيال "مما جعلهم قوة مهيبة تميز بخفتها وعقليتها الهجومية وقدرتها الفطرية على المناورة". ووفق تقديرات1338هـ/1920م ضمت الكونفدرالية حوالي أحد عشر ألف ومئتي خيمة، وشملت سبع اتحاديات هي: آيت سكُوكُو، وآيت حركات مجموعة أكلموس، وآيت حركات مجموعة خنيفرة، وآيت شارط، وإبوحسوسن، وآيت بوحدو، وآيت سيدي بوعباد يستقرون اليوم في حوالي80% من إقليم خنيفرة الحالي.

3. ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق وتعليق وتقديم عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، ط1، 2005م، ج1، ص48.

4. توبراس رحمة، **تعريب الدولة المجتمع بالمغرب الأقصى خلال العهد الموحدي**، طبع ونشر وتوزيع مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، ط1، الدار البيضاء 2015. ص 279.

أكَلمُوسْ: Aguelmous

تفيد كلمة أكَلمُوسْ *aguelmous* في اللغة الأمازيغية المتداولة "غطاء الرأس ". وبالدارجة المحلية "قب الجلباب أو السلهام". تعني الكلمة لغويا غطاء الرأس من البرنس أو الجلباب المغربي، ويؤكد الدكتور محمد شفيق أن أكَلمُوسْ يطلق على قمم الجبال المخروطية الشكل، وله مرادف أمازيغي أخر هو أقلموم[1]. يستخدم في البرنس أو الجلباب كجيب، وله رمزية ذكورية عند القبائل[2]. وترجع الرواية الشفوية الأكثر تداولا سبب التسمية إلى أن نواة المركز كانت سوقا أسبوعيا، تقصده القبائل المجاورة صبيحة كل سبت لبيع منتوجاتها، وشراء حاجياتها. كان مركز القرية ولازال بحكم ارتفاعه الذي يفوق 1200م عن سطح البحر باردا جدا خاصة في فصل الشتاء. لذلك كان القرويون كلما اقتربوا من المركز أحسوا ببرودة أكثر، فيقول بعضهم لبعض بالأمازيغية "*yyat aguelmous*" ومعناها **"ضعوا غطاء الرأس اتقاءً للبرودة"**، وتدريجيا أصبح الاسم لصيقا بمركز القرية. وهناك تفسير طبوغرافي محلي آخر يربط اسم أكَلمُوسْ بشكل جبل تورزيان الذي يشبه غطاء الرأس من الجلباب[3]. ونظرا لموقع أكَلمُوسْ وسط أزاغار زيان انتشرت بين قبائل النجعة المحيطة بها تحالفات "تاضا"، التي تستوجب تعيين ضامن التحالف (أكَلمُوسْ ن تَاضَا) من بين الرجال المعروفين بالصدق والاستقامة وذوي التأثير الروحي أو السياسي على القبيلة لتطبيق بنوده وضمان استمراريتها.

واستنادا اللبنية المورفولوجية للمنطقة كما تظهر من أعلى الجبال المجاورة، يبدو وسط القرية فعلا كقب جلباب أضلاعه الأساسية التلال المحيطة به. وتشكل منطقة "تاراتسا أوكَلمُوس" بتراب قبيلة إهبار قمة هرمية لهذا الغطاء، وتدعم هذا الطرح روايات شفوية من إهبار تفيد أن أكَلمُوسْ يقع عند منبع واد أكَلمُوسْ ويشكل تل "تاراتسا اوكلموس" غطاءً له أما المكان الذي يقع فيه المركز اليوم فهو فقط "ثكنة أكَلمُوسْ" التي أحدثها المستعمر على بعد حوالي 6 كلم من المكان الأصلي في موقع " القشلة" الذي يستجيب لشروط تأسيس الثكنات. وترى إحدى الدراسات الجغرافية أن الكلمة لفظة مركبة من كلمتين "aguel" بمعنى

1. شفيق محمد، **الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة المعاجم، منشورات مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1999، ص 54

2. أسوس محمد، **دراسات في الفكر الميتي الأمازيغي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007، ص 90

3. روايات شفوية متعددة من مختلف قبائل الجماعة بين 2015 و2019

معلق أو عالق و"lmous" أو "mos" وتعني "الماء"، ليعني تجميع الكلمتين "المكان العالق فوق الماء". ويشير A .Métois إلى أن أكَلمُوسْ تعني عند الطوارق اللثام أو الحجاب الأسود الذي يغطون به وجوههم[1].

تدل محصلة هذه التعاريف على اختلاف المرجعيات الثقافية التي تنطلق منها، إلا أن ارتباط أكَلمُوسْ الزيانية بالاسم الأول يكون صحيحا وفق الرواية الشفوية. ولكنه في نفس الوقت لا يتعارض مع الطرحين المورفولوجي والطبوغرافي، فالشكل المخروطي للمنطقة يوفر فرشة مائية باطنية التي تجعلهما فوق الماء[2] لا يتجاوز عمق مياهها الباطنية في معظم تراب الجماعة المترين إلى ثلاثة أمتار.

يبدو أن الاسم ليس جديدا في الثقافة المغربية، فالبادسي الذي عاصر المرينيين، يؤكد أن المغاربة في البادية كانوا يتسترون بكساء من صوف وجبة من الأرجوان، وجلمُوسِ أو طاقية خشنة[3]. تحمله اليوم عدة مناطق أبرزها دوار أكَلمُوسْ التي تضم مخيما صيفيا يحمل نفس الاسم بقبيلة بآيت تمناط، جماعة إغرم نوكدال ضواحي ورززات. ودوار "أكَلمُوسْ" بجماعة آيت عياش بإقليم ميدلت. وأكَلمُوسْ بجماعة أوريكة إقليم الحوز. ودوار أكَلمُوسْ دائرة بني تجيت (تادجيت) بإقليم فيكِيكْ. و"تأكَلمُوسْتْ" التابعة لأربعاء رسموكة[4] إقليم تيزنيت، وأكَلمُوسْتْ جماعة تفراوت المولود بإقليم تيزنيت. بالإضافة إلى جماعة أكَلمُوسْ الزيانية التي تعد أكبر هذه الجماعات وأشهرها في المغرب.

شكلت المنطقة مركز أزاغار زيان زمن ازدهار النجعة، اعتبرت . إلى جانب مولاي بوعزة . من أهم المراكز التي أسسها المستعمر الفرنسي مع بداية 1914م، للتضييق على المقاومة الزيانية تمهيدا لاحتلال عاصمة زيان. وشكلت أحدا المحاور الثلاث التي انطلق منها المحتل نحو خنيفرة في 12 يونيو 1914[5]. أصبحت بعد احتلال خنيفرة أصبحت أكَلمُوسْ محل

1.Alexis Métois, **Au Désert**, Imprimerie Administrative A. Mauguin ,Place D'armes, Blida , 1901, P26

2. توري عبد العزيز، **مادة أكلموس**، ضمن موسوعة معلمة المغرب، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر بإشراف محمد حجي، مطابع سلا،1984، ج2، ص 526

3. البادسي عبد الحق بن إسماعيل، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق أعراب سعيد، منشورات المطبعة الملكية بالرباط، ط2، 1993، ص 59.

4 . المندوبية السامية للتخطيط، **دواوير المغرب**، ضمن منشورات نتائج إحصاء 2004، ملف Excel

5 . الخديمي علال، **مقاومة التدخل الأجنبي في الشاوية وجبال الأطلس**، ضمن مجلة المناهل، عدد 38، السنة 15، دجنبر 1989، ص 365

دوريات مستمرة من طرف الكوم والمجندين غير النظاميين لضمان الاتصال المباشر بين مراكز أزاغار ومركز عمليات الشرطة[1]. واكتسب المركز تدريجيا أهميته كمركز جذب حضري واقتصادي من موقعه المحوري على الطرق الرابطة بين مريرت ومولاي بوعزة وولماس في الهضبة الوسطى على الضفة اليمنى لواد أكَلمُوسْ[2]. أصبحت المنطقة جماعة قروية سنة 1959، وتفرعت عنها جماعة سيدي احسين بالگعيدة سنة 1992، لكنها حافظت على مكانتها كواحدة من أكبر الجماعات القروية بالمغرب. وأصبحت اليوم مركز لدائرة أكَلمُوسْ التي تشمل سبع جماعات قروية.

خنيفرة: Khénifra

تقع خنيفرة فلكيا على خط عرض 32°55′48 شمال دائرة الاستواء، وعلى خط طول 5°39′36 غرب خط غرينتش، على ارتفاع 826 م عن سطح البحر. بدأت حكاية وانتهت مدينة، اكتنف بدايتها غموض كبير تشير فيه الأسطورة إلى أن المدينة تُنسب إلى الشيخ سيدي بوتزواغت[3] الذي كان صحبة ثلاثة من أصدقائه قادمين على جيادهم من غابة قريبة نحو نهر أم الربيع، فتحرك سطح الماء، وفجأة وظهرت سمكة عجيبة في ملكية أحد صديقيه أسماها لغاية في نفسه "خنيفرة". فُهم من حركتها أن القحط أصاب الناس(الصنهاجيين) في أقاصي البلاد، وأنهم قادمون إلى المنطقة. أيقن الشيخ وقوع ما كان يخشاه وبادر لإنقاذ دشرته، فرمى مفتاح المكان في فم السمكة التي ابتلعته وغاصت في النهر، وصرخ صرخة عظيمة ارتجت لها الأرض واختفى عن الأنظار. صارت الجيد جبالا تحرس المكان، وبعد مدة لم تحدد الروايات مدتها قدم الصنهاجيون وعمروا الديار[4].

---

1. كيوم أوغسطين ليون، **البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (1912.1933)**، ترجمة وتقديم محمد العروصي، بني ملال (دون ناشر)، 2016، ص157

2. البلغيتي عائشة، مادة "**أكلموس**"، ضمن معلمة المغرب، م.س، ج 2، ص ص 625. 626

3. وتجمع الروايات المتداولة شفهيا أنه مؤسس المدينة، ويشير معظمها إلى أنه شيخ صوفي اعتزل في بداية حياته الناس في الجبال المحيطة بالمدينة حاليا، كان لباسه الصوفي أحمر دوما بجلد عريض حول خصره، وتضيف الروايات أنه من سمى الجبال المحيطة بالمدينة بأسمائها الحالية "أقلال"،"بوحياتي"، "با موسى". وسيدي بوتزاوغت كلمة أمازيغية معناها سيدي" أبو الحمراء" وهو اللقب تحمله مدينة خنيفرة الحالية لكون تربتها حمراء، يوجد ضريحه بمقبرة تحمل اسمه في الجهة الشرقية من المدينة.

4. رواية شفوية متداولة بين شيوخ مدينة خنيفرة حدثنا بها أزيد من شيخ في أماكن وحرف مختلفة من خنيفرة.

تعددت وتضاربت الآراء والروايات الشفوية في أصل تسمية المدينة، حيث نصادف عند ابن حزم أحد أجداد بربر زناتة يدعى "خُوَبنفر"[1]، لكننا نستبعد علاقته بالمدينة لصعوبة نسبة مدينة بصيغة المؤنث لاسم مصغر بصيغة المذكر من جهة، وللسياق العام الذي تأسست فيه المدينة حديثة النشأة من جهة أخرى. وتقول رواية ثانية بأن الاسم مشتق من الصفة الرمزية التي اتصف بها الجابي المكلف باستخلاص رسوم عبور قنطرة المدينة. فكان كل عابر يحذر الآخر منه بعبارة "غيراك خنفر" أي: احذر الجابي الذي يخنق[2]، ولا نستبعد أن الخنق المقصود ضريبي أكثر منه عضلي. وفي نفس الاتجاه تسير الرواية الثالثة التي تنحو منحى اشتقاقي للكلمة الأمازيغية "أَخَنْفَرْ"، حيث يقال "خَنْفَرْ أَرْبَاْزْ" أي "اقبض بقوة على عنقه حتى يختنق نَفسُه دون قتله"[3]. كانت هذه الرواية الأخيرة لب حوار دار بين أحد فقهاء المنطقة ووزير الأوقاف المصري حسن الباقوري أثناء زيارته للمنطقة سنة 1956[4]. وتقول رواية رابعة إن تسمية المدينة مشتقة من اسم امرأة تدعى "خنيفرة، سماها أحد الباحثين[5] مُوخَنفُورْ (المُخنفرة) أو صاحبة الأنف الضخم. كانت تبيع المواد الغذائية على ضفة القنطرة خلال فترات الانتجاع قبيل تأسيس المدينة[6]. وتربط رواية خامسة اسم المدينة بأول مستقر بالمنطقة، وهو راع مشهور يدعى خنفر (*khnfr*). ويشير طرح سادس إلى أن سكان المنطقة من قبائل زيان اشتهروا بفنون المصارعة "تاموغزيل"، فكان موقع المدينة الحالية في موقع وسط من كل القبائل المكان المناسب لإجراء هذه المنافسات، أي أنه كان بمثابة حلبة مصارعة

1. ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي (ت 456هـ)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص495.

2. بيرجي فرانسوا، م. س، ص2.

3. بلحسن محمد، **مادة "خنيفرة"** (تاريخ)، معلمة المغرب، م.س، ج11، ط2011، ص3835. 3836

4. وتفصيلها أن وزير الأوقاف المصري حسن الباقوري زار الفقيه العالم عبد الرحمان بن محمد بن الحاج بخنيفرة، أثناء زيارته لمناطق مختلفة من للمغرب بمناسبة استقلاله أواخر 1955، وسأل فقيها عن سر تسمية "خنيفرة " فأجابه بأنها مشتقة من اسم "خنفر"، يقال "خنفر أرباز" أي خد الرجل بشدة وقوة "فدونها الوزير في مذكراته بناء على اشتقاق الفقيه (المنصوري أحمد، **كباء العنبر...**، م.س، ص ص 47.46) عن تفاصيل الزيارة التي شملت عدة مناطق مجاورة، أنظر **جريدة العلم**، ع 2013، السنة 10، بتاريخ 09 دجنبر1955.

5. بلحسن محمد، "مادة خنيفرة"، ضمن **معلمة المغرب**، م.س، ج11، ص3835

6. بيرجي فرانسوا، م.س، ص2

"أخنفر". ومنه اشتقت تسمية المدينة خنيفرة[1]. ويربط طرح سابع أصل خنيفرة ب "خْنِكْ فَرَّة"[2] أي مضيق فارة[3] جنوب شرق المدينة الحالية. عرفت في مجموعة من الوثائق الرسمية بعيد احتلالها ب "الخنيفرة "[4] واستمر الاسم إلى ما بعد الاستقلال قبل أن تحذف الألف واللام في بداية الكلمة.

في ظل تعدد الروايات نرجح رواية تركيبية بين معطيات الروايات الثانية والثالثة والسادسة لعدة اعتبارات أبرزها: وجود علاقة اشتقاقية وطيدة بين خنيفرة وأَخْنْفَرْ، وكون المدينة منطقة عبور المنتجعين عبر القنطرة بعد أداء ضرائب للجبابي الواقف على قنطرتها. وشهرة الزيانيين بالقوة الجسمانية التي تصبح الحلبة إحدى وسائل اكتسابها وإثباتها وضمان استمراريتها.

مريرت: M`rirt

تعد مريرت ثاني أكبر التجمعات السكانية بلاد زيان بعد خنيفرة، تعددت معاني الكلمة بتعدد تفسيراتها الطبونويمية. حيث يرجح الدكتور محمد شفيق أنها مشتقة من الكلمة المحلية "تَّامرِيرتْ *tamrirt*" أي الشِّعْب في الجبل[5]، وتعني طريق العبور بين نقطة تجمع المارة والقبائل، لأنها نقطة على منتصف المسافة بين القبائل. وتربط رواية ثانية متداولة بين مسني المنطقة تسمية المدينة ب أشجار "أمريرس *amrirss*" التي كانت كثيرة في الغابات المجاورة. وتفيد رواية ثالثة أن الاسم مشتق من اللفظة الأمازيغية "أمرير" الذي يعني القبر، وقد تكون مشتقة من "مُّرِيوُتْ" أو "مريوة *mrriwa*"وهي نبتة طبية تنمو بكثرة في المنطقة. ويرى البعض أن الأصل فيها "تيمريريت *tamrirt*"، أي كومة أو كركور من الحجارة، أو علامة على شكل أحجار كانت توضع على قبر أحد مار أو محمي بموجب تحالفات عرفية، قتل غدرا زمن ما قبل الحماية في عموم بلاد زيان.

---

1. توجد مجموعة من الدواوير بالمغرب تحمل أسماء مشابهة لاسم المدينة ومنها دوار "لخنيفرات"جماعة باب تيوكا، و"اخنيفرات احميري" ضواحي سيدي قاسم، ودوار "أخنيفر" جماعة الجوالة بإقليم قلعة السراغنة، وخنيفرات مشيخة لكوانين، و"لخنيفرات" مشيخة اولاد يخلف جماعة سيدي اتيجي التابعة لثلاثاء بوكدرة إقليم أسفي.

2. أقبوش إدريس، م. س، ص75

3. مضيق عند المدخل الجنوبي للمدينة.

4. جريدة السعادة، السنة 11، ع738، 20 ماي 1914 وعدد 754، 27 يوليوز1914.

5. شفيق محمد، **الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة المعاجم، منشورات مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1999، ص 169

يدل تعدد هذه التعاريف على اختلاف المرجعيات الثقافية التي تنطلق منها، لكننا ترجح أن اشتقاق اسم المدينة له علاقة وطيدة ب ثامريرتْ لأن هذا التجمع السكاني كان سوقا أسبوعيا تجتمع فيه قبائل آيت سكُوكُو (*Ait Sgougou*) يوم الجمعة، لبعد مركز الحمَّام نسبيا عن بعض القبائل الغربية، فأصبح يعرف بجمعة مريرت. لكننا لا نستبعد أن يكون لكثرة شجر أمريرس، وانتشار نبتة مريوت حول الموقع دور كبير في ترسيخ هذه التسمية دون غيرها.

يصعب تحديد تاريخ محدد لبداية هذا التجمع الحضري، لكنه ليس حديثا بالشكل الذي تعتقد الأغلبية. فقد

ذكره الزياني المدينة باسم "مريرة"، وجاء عند أكنسوس[1] بصيغة "بسيط مريرة" أثناء حديثه عن حركة السلطان محمد بن عبد الله لأيت اومالو سنة 1186هـ/ 1772م. وأورده الضعيف الرباطي باسم "آمريرت" كمحطة نزل بها السلطان المولى سليمان أثناء زيارة تفقدية لمراكش في 8 أو 9 جمادى الأولى 1215هـ/ 26 أو27 شتنبر 1800م بقوله "ثم صار في بلاد البربر حتى نزل بامريرت عند زيان"[2].

يذكره مولاي الطيب العلوي ضمن أحداث 1927م حينما كان كاتبا لقائد مريرت بالقول: إن السلطان مولاي يوسف حل بمريرت في إطار رحلته إلى مراكش، لحضور عرس أحد أنجاله سنة 1927. يستشف من روايته أن التجمع كان مدينة متكاملة الأركان، ومحطة عبور في الطريق السلطانية، اتخذها السلطان نقطة استراحة لشرب الشاي، حيث طافت به القبائل الزيانية في جمع غفير، شبابا وشيوخا وكلهم يقرأ القرآن ففرح بهم السلطان، وأمر بالغذاء بمريرت احتفالا بهم وأرسل مرسولا إلى خنيفرة يخبرهم أنه لن يحل بها إلا عند العشاء[3].

استغل المستعمر انفتاح المدينة على محاور طرقية كبرى بين مرتفعات الأطلس المتوسط ومنخفض الهضبة الوسطى، وحافظ على اسمها رغم صعوبة نطقه فكتبت m'rirt، فظلوا يقولون بلد امريرت. عاشت على نمط الانتجاع إلى حدود بداية القرن 20م، وكانت كانت

1- أكنسوس، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، منشورات المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د ت، ج1، ص233.

2- الضعيف محمد الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، 1986م ص 320

3- العلوي أحمد (إعداد ومراجعة)، **مولاي الطيب العلوي أحد مؤسسي الكتلة الوطنية ورائد الحركة الوطنية بالأطلس المتوسط (1896- 1964)**، منشورات زاوية للفن والثقافة، مطبعة القرويين، الدار البيضاء، ط1،2009. ص 4039.

الزراعة نشاطا مكملا له. تضرر هذا النمط من الاحتلال العسكري وإقامات حاميات استعدادا لاحتلال خنيفرة. وساهم هذا الانفتاح الرأسمالي في ظهور التعامل بالنقود والتخلي التدريجي عن النمط الانتجاعي. كان جمعة مريرت يقام سوق حتى بعد الاستقلال وزادت مكانتها كتجمع سكاني يقطنه عمال المناجم القريبة مع عودة مناجم عوام للاشتغال سنة 1929م. وتدريجيا تشكلت نواة المدينة حول الطرق الرئيسية نحو فاس ومكناس ومراكش ابتداء من ثلاثينات القرن 20م، حيث وصل عدد سكانها سنة 1936 إلى 450 نسمة غير أنها بقيت تابعة لمركز الحمَّام[1] الذي كان مركز دائرة آيت سكوكو حتى الاستقلال.

تحمل هذا الاسم عدة مناطق في المغرب، حيث يوجد أطلال حصن يحمل اسم مريرت يُعتقد أنها من الآثار المرابطية بالمنطقة[2] بمنطقة آيت أوُربيل بقبيلة زمور على الطريق بين الأطلس المتوسط والسهول عبر تافُودِيتْ. وتوجد دواوير عدة بمختلف أنحاء البلاد أبرزها دوار" مريرات"، جماعة أولاد سالم، إقليم الدريوش. ومنطقة "امرِيراتْ" بسيدي امحمد الشلح، إقليم سيدي قاسم، و"إمرين" مشيخة إداوماد جماعة إكرض، الصويرة، ولمرير بجماعة بوشاون دائرة بني تادجيت إقليم فيكيك.

معدن عوام (إغرم أوسار Ighrm Awssar).

تغيب تمسية معدن عوام في المظان التاريخية قبل العصر، إذ تعود أولى الإشارات التاريخية ل"عوام" في المصادر المغربية إلى القرن السادس الهجري، حيث أورده صاحب الاستبصار بصيغة معدن عرام (عوام)[3]، وهو الاسم الذي استمرت المنطقة تحمله على الأقل حتى النصف الثاني من القرن 20م[4]. ويشير المراكشي إلى أن قلعة إغرم أوسار هي قلعة وركناس، والمنجم بالقرب منها هو منجم عوام بقوله: "بالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى وَرْكَنَّاس، فيه معدن فضة، وقد ذكرنا معدن زجندر الذي بسوس،

---

1 . البلغيتي العلوي عائشة، مادة **"مريرت"**، ضمن معلمة المغرب، الملحق 24، ص ص 283. 285

2. بوبية أحمد، **قبائل زمور والحركة الوطنية**، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003، ص 111 . 110

3. مجهول (كاتب مراكشي ق6ه)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص185.

4- Odinot Paul, **"Aouam, La Capitale Du Fer"**, Dans France-Maroc : Revue Mensuelle Illustrée : Organe Du Comité Des Foires Du Maroc, A5, N55, Juin 1921, [S.N.] (Rabat) P 103.

غير أن فضته ليست هناك، أعني فضة معدن زجندر"[1]. وتروج الكتابات الكولونيالية اسم Warkennas كمرداف وتسميته قديمة لعوام استنادا لأسطورة عن ثلاثة أنبياء طردوا من ماسة في عهد نبوخند (604-562 ق. م) مات أحدهم في واركناس[2]، ويشير أحمد بلقاسم الزياني إلى أن الموقع عرف سابقا بقصر المعدن[3]. وعن سبب التسمية يرجح السكان المحليون أن "عوام" تحريف بسيط للكلمة الأمازيغية "أعوام" التي تعني السباح[4]، وهو الأرجح لغزارة المياه في المنطقة، والتي تتطلب عمالا قادرين على السباحة لتجاوز خطر فيضان المياه وسط المناجم.

تطلق سمية عوام اليوم على منطقة تشمل ثلاث مناجم هي: منجم عوام (عرق السينيال)، ومنجم سيدي أحمد اوحمد، وإغرم أوسار Ighrem Aoussar الذي تحمله مدينة معدن عوام الأثرية ومنجمها بفرعيه: القديم المحاذي لسورها الشرقي، والجديد الذي أحدث بداية 2018م في وسطها ضمن مركب منجمي تديره شركة مناجم توسيت (CMT) وهي حاليا في كامل النشاط.

يقع موقع إغرم أوسار الأثري على علو 1230م عن وتحيط بها منخفضات تربطها بسهول تاندرا غربا، ومْرِيرتْ شرقا. يسهل منها الوصول إلى تادلة عبر أم الربيع، وإلى أزرو عبر سفح الأطلس المتوسط[5]، ومن هناك إلى تافيلالت وفاس. ويمر طريق مراكش . مكناس فاس إجباريا بالقرب من عوام[6]. فلكيا تقع المدينة على دائرة عرض $36,81^0$ شمال دائرة الاستواء[7]، وعلى خط طول $8,87^o$ غرب خط غرينتش. تتخذ شكلا غير منتظم يتراوح بين ثماني الأضلاع، وشبه دائري، وظفت فيه التضاريس بدقة. تأسست نواة المدينة كبرج بسيط لحماية ومراقبة معدن

---

1. المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط 1، 2006، ص 260.

2-Isma-Cnr, L'insap, The Université Moulay Ismaïl By Meknès, L'association Abghor De Développement Rurale, Miniere Perdute Del Marocco, **Missione Sull'atlante**, Susanna, Université De Neuchâtel. P.P 1-6 .

3. المنصوري أحمد بلقاسم، **تاريخ بلدة خنيفرة**، تحقيق محمد أمحزون، دار الثقافة للتوزيع والنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص 29.

4. مقابلة مع **غزلان مصطفى** (2016 /04/01) فاعل جمعوي من أبناء المجمع المعدني.

5. Ministre De L'agriculture Et De La Réforme Agraire، Carte M'Rirt , 1/50.000.

6-.Rosenberger. B, **"Autour D'une Grande Mine D'argent De Moyen Age Marocain. Le Jbel Aouam"**, In Héspéris V 4, 1963- 1964. P 18 ,19.

7- Paul Odinot, Op, Cit, P103.

الفضة وحماية المنجميين، ومع تزايد أهمية المعدن أصبحت واحدة من أبرز قلاع العصر الوسيط المغربي، ثم مدينة شاسعة فوق هضبة منحدرة الجوانب. تطل أسوارها على أسوار كل الجهات على مسافات شاسعة شرقا تجاه فازاز، وشمالا تجاه خط التجارة الرابطة بين فاس ومراكش، وتجاه أراضي سهل تاندرا الفلاحية في الجنوب الغربي. وتستفيد جهتها الغربية من جبلي أدال نروميت 1496م (*adal n'roumit*)وبوخليدج 1462م (*boukhlidj*) في رصد أي خطر يهدد استغلال معادن المنطقة. توفرت للمدينة المعدنية معظم الشروط التي وضعها ابن أبي زرع[1] وابن خلدون[2] وابن أبي الربيع[3] لتأسيس المدن.

مَنتْ (Mint) الهضبة والقصبة:.

تشير روايات تعود إلى العقد الثاني من القرن العشرين إلى أن *mint* كلمة فرنسية موازية للكلمة المحلية "فليو"، لكونه أكثر الأعشاب انتشارا بمروج الهضبة. لكن هذه الرواية سرعان ما تتلاشى أمام ورود الكلمة في مخطوطة منقبية تعود إلى زمن محمد بن مبارك التستاوتي (1531 م. 1597م)) كمنطقة توقف فيها الجيش السعدي. ويستشف من المخطوطة المذكورة أن منت تحريف لكلمة "أُمْنْتُ"، وتفصيلها أن أخبار شهرة التستاوتي وصلت قصر أحمد المنصور السعدي بمراكش، فأرسل إليه من يطلب قدومه إليه. فأمر الشيخ طلبته بأن يكتبوا إليه كتابا يقول فيه:" فلولا أن أمرك الله علينا وعلى غيرنا ونسبك لجدنا[...] لعزلناك عن ملك ربنا وما قال لك الناس فينا فسر الألوهية والملكوتية والرسالة والنبوءة فأقدم بنفسك ترنا"[4]. غضب السلطان وأرسل له عشرة آلاف فارس، فلما رآهم شيخ تستاوت تبسم وهو يقول: أولهم النحل وأمر ثانٍ، فامتلأ ما بين السماء والأرض نحلا ولم يبرح من العشرة آلاف

1. يلخصها بقوله: "أحسن موضوعات المدن أن تجمع المدينة خمسة أشياء وهي النهر الجاري والحرث الطيب والمحطب القريب والأسوار الحصينة والسلطان اذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكفّ جبابرتها"؛ ابن ابي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 33.

2. ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، م.س، ج2، ص 182.

3. ثمانية شروط هي: الماء العذب، شساعة الطرق والشوارع، جامع للصلاة قريب من الجميع، أسواق تلبي حوائج سكانها، عدم الجمع بين الأضداد من القبائل، استقرار الحاكم في أفسح أطرافها وإسكان خواصه من سائر جهاته، إحاطة المدينة بسور منيع، نقل أهل العلم والصنائع إليها بقدر الحاجة لتفادي الخروج إلى غيرها.... ابن أبي الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض 1416هـ، ص 154.

4 . مجهول، **المحلى في مناقب محمد بن مبارك**، مخطوط خ ح، رقم 726، ورقة 9، ص 17.

إلا قليلا. سمع السلطان المذكور الخبر فركب في مائة ألف فارس ارتحل حتى نزل منت[1]، فأقام بها نحو أربعين يوما وهو حيثما تحرك تلقاه عساكر النحل حتى تأدب وتاب وترك الغل والقيل والقال، وعفا الشيخ عنهم فاتخذه السلطان شيخا، وبقي في ذلك الموضع في عز الله وهيبته وسمي بمززوان (صاحب النحل)[2].

بالعودة إلى علاقة الرواية بالتسمية تي نحن بصددها نستنتج أن قائد جيش المنصور كان يكذب كرامات الشيخ محمد بن مبارك التستاوتي، فلما فر قائد أحمد المنصور عبر تازطوط (حد بوحسوسن الحالية) إلى ما بعد اعوينات وقال "أُمَّنْتُ بالله والرسولε" في إشارة لتصديقه لكرامات التستاوتي فسميت المنطقة ب أمَّنْتْ، وتدريجيا حذفت الألف لتبقى منت.

وردت الكلمة في المصادر التاريخية كقصبة تاريخية على عهد المولى إسماعيل. وأمام الصمت المطبق للمصادر التاريخية بخصوص تعميرها تفيد الرواية الشفوية أن المنطقة كانت أراضي خالية عند سيطرة قواد زمن الحماية عليها، لكن هذا الرأي غير مرجح لأن بناء المولى إسماعيل لقصبة منت كان بهدف منع زيان من التقدم غربا، كما تشير معظم الكتابات وخرائط التقسيمات القبلية التي نشرها ضباط الشؤون الأهلية تشير إلى أن الهضبة كان محط انتجاع وآيت عمر إحدى الفروع الثلاث لآيت سكُوكُو.

تقع قصبة منت أو "إغرم أقديم" كما يسميه جيرانها في موقع استراتيجي مشابه لقصبة أدخسان على مشارف سلسلة جبلية صغيرة على مشارف هضبة منت المنبسطة عند قدم جبل أمْدغُّوسْ(1531م). شيدت وسط أرض كلها عيون تجري فوق سطح الأرض حتى في عز الصيف غير بعيد عن واد أكَلمُوسْ أحد أبرز وديان أزاغار زيان على مرتفع بعلو 1280م عن سطح البحر، مما جعلها مطلا على منطقة يتجاوز أفق الرؤية فيها 20 كلم بين جبلي تورزيان وسيدي صالح جنوبا على، وبين أدار مولاي هاشم وبُوتكَّزضَنْ، وتَّابُوقلمْتْ شمالا، بينما يمتد أفق الرؤية غربا حتى ضواحي ولماس (حوالي 35 كلم).

تحولت ملكية الهضبة لزيان بناء على اتفاق "الأرض لنا والرقاب لكم" الذي توصل له باشوات وقياد المرحلة الاستعمارية مع المستعمر بعد وفاة موحى وحمو الزياني، والتزموا فيه

---

1 . تشير الروايات الشفوية إلى أن الأصل فيها " أُمَّنْتُ" ذلك أن قائد جيش المنصور كان يكذب كرامات الشيخ الزعري، وبعد حادث النحل فر عبر تازوط واعوينات ليصل إلى المنطقة فقال "أُمَّنْتُ بالله والرسولε" في إشارة لتصديقه للكرامات فسميت المنطقة بمنت.

2 . مجهول، م.س، ورقة 10، ص 19

بضمان الأمن مقابل السيطرة على الأرض. ووفقا للذاكرة الجماعية لشيوخ القبائل المستقرة بها والمجاورة لها، فقد سيطر عليها الباشا حسن عامل زيان في إطار حْركات قوية للمنطقة، وأمر خدمه بدفن ذخيرة قرب إحدى العيون المائية تحسبا لقدوم الحاكم الفرنسي، اشتكى آيت عمر الباشا للحاكم الفرنسي الذي حضر إلى عين المكان وطالب آيت عمر بدليل ملكية الأرض

. قالوا: هذه أرضنا وهذه زرائبنا وحطاتنا.

. أجاب الباشا بل تلك زرائب رعاتي وحجتهم واهنة

. رد الحاكم وما دليك على ذلك؟

قال الباشا إن جده الذي كان يعيش ويقاتل على هذه الأرض قديما أوصاه أنه ترك ذخيرة بمكان ما قرب العين، فأمر الحاكم الفرنسي بالحفر فوجد الذخيرة المعلومة وأمر آيت عْمرْ بالرحيل عاجلا إلى غرب واد بُولْخْمَايلْ الحد الحالي بين زيان وآيت عمر الذين أصبحوا منذ ذلك الحين جزءً من زمور. وفي رواية أخرى أن آيت عمر ادعوا توفرهم على وثائق ملكية الهضبة فقيل لهم أن يحضروا الوثائق إلى سوق إثنين أكَلمُوسْ فاعترضهم خدام الباشا قتلوهم وصادروا وثائقهم.

وفي كل الحالات . وفي غياب دليل قاطع على صحة هذه الروايات . أصبحت منت أرضا زيانية ضمن نفوذ آيت حركات حوالي 6200 هكتار من المراعي، وكانت قبيلة آيت حدو حمو أكثر القبائل قطعانا به متبوعة بآيت معي[1]. تنقسم منت حاليا إلى دوارين هما دوار الباشا (نسبة للباشا حسن) ودوار أمهروق (نسبة للقايد أمهروق)، ومعظم سكانها من خدام الباشا ومن قبائل متعددة اشترت أو اكترت أراضيها من الباشوات، لازالت بها آثار قصبة إسماعيلية منسية.

1. أقبوش إدريس، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية (1912.1956)**، أطروحة مرقونة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2016.2017.ص 106، وفي هذا الصدد تؤكد رواية لشيوخ آيت معي أنهم أصحاب هذه الأراضي وأن الباشا حسن أمرهم ذات يوم بالمغادرة لمدة يوم أو يومين لممارسة النصارى للقنص ثم منعهم من العودة بعد ذلك (رواية شفوية لبعض شيوخ آيت معي بتاريخ 2019/08/10).

تَامسگُورتْ: Tamskourt

أصبحت الزاوية الدلائية أثرا بعيد عين خلال عهد المولى الرشيد، ووجد المخرجون منها ضالتهم في الزاوية الناصرية لتعويض الفراغ الذي تركه زوالها تاريخيا وجغرافيا[1] فبرزت إلى الوجود زاوية تامسكورت، إحدى فروع زاوية تامكروت ببلاد زيان.

أمام صمت المصادر التاريخية تقول رواية شفوية إن "تامسكورت" كلمة مركبة أصلها "تاذ أم تسكورت" ومعناها هاته مثل أنثى الحجل[2]. وطرح وهو الأرجح ث يقول إن "تامسكورت" على غرار "تامكروت" بلغة أهل سوس، كلمة مشتقة من "أسكو"، وهي الصخرة الحمراء الغنية بالحديد، استنادا إلى كون المنطقة ذات تربة حمراء عند قدم جبل بوازال[3]. والغالب على الظن أن التسمية بدأت مع حلول الناصريين بالمنطقة إذ لم نعثر على دليل لهذه التسمية قبل ذلك. يحمل التسمية أيضا أحد دواوير الجماعة القروية سيدي احساين دائرة تاليوين بإقليم تارودانت، وعين تامسكورت بقبيلة آيت أم البخت قرب زاوية الشيخ.

تحتل الزاوية موقعا استراتيجيا على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع بعد حوالي 4 كلم تقريبا جنوب خنيفرة، بمشيخة أمهروق أزاغار[4]. تقع فلكيا على دائرة عرض 32,53,32° شمال الاستواء، وخط طول 5,41,26° غرب خط غرينتش. رُوعيت في بنائها أبرز شروط العمارة الإسلامية، حيث تم اختيار موقع حصين لدفع المضار على شرف من الأرض عند استدارة النهر بها، بالإضافة إلى هوائها الطيب، وقربها من المحطب، ولا تفصلها إلا حوالي 2 كلم نحو الجنوب عن قنطرة "مزضْ إلفان" الدلائية الرابطة بين السهل والجبل.

---

1. الطريبق أحمد، **الكتابة الصوفية في أدب التستاوتي (1045.1127هـ) الحياة. الكتاب. الخطاب القسم الثاني: الرسائل الدلالة والبيان**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية، مطبعة إليت، 2003، ص 402. 403

2 . فاروقي المصطفى، إطار بوزارة الثقافة وباحث في التراث المحلي بناء على مقابلات متعددة مع سكان المنطقة.

3 جبل الحديد جبل على بعد حوالي 5 كلم جنوب خنيفرة وهو من أغنى جبال المنطقة بالمعادن وفق السلطات الفرنسية لكن استغلاله يستدعي استيراد الآلات بنفقات ضخمة لذلك تم تأجيل استغلاله حتى سنة 1932(المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق وتقديم محمد بلحسن منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة الرباط، ط1، 2004.ص 58)

4. المندوبية السامية للتخطيط، **ملفات الإحصاء العام للسكان والسكنى 2014.**

المملكة المغربية، وزارة الداخلية، التقطيع الانتخابي الجماعي 2015.

إسْرفَانْ Isrfan:

مراعي جماعية شاسعة بين سيدي لامين وسيدي بوعباد، تقارب مساحتها الألف هكتار. اشتق اسمها من تيسرفين التي تعني المطامير لضمها عددا كبيرا من هذا النوع من المخازن الجماعية[1] المؤقتة للمنتجعين، مستفيدة في ذلك من طبيعتها الجيولوجية المساعدة على حفر هذه المخازن. يسميها البوعباديون "الدويمية" لكثرة الدوم بها. يستغلها عزابة عرب بني ز مور سبعة أشهر بين أكتوبر ونهاية أبريل، وترعى بها قطعان زيان (انضاف إليهم بعيد الاستقلال آيت إيحند بعد الحماية). من بداية ماي إلى بداية أكتوبر خلال الفترة الاستعمارية سيطر المعمرون على مراعي إسرفان الشاسعة وحولوها إلى مجال زراعي وضربوا الحصار على الانتجاع[2]. أبرز هؤلاء المعمرين: بيرني، وفوجي(fouji)، وزاميت (zamit)[3] الذي قتل في أحداث وادي زم في20غشت 1953. بعد الاستقلال أصبحت القبائل العربية تستوطن المنطقة تدريجيا وبصفة دائمة للاشتغال في مقالع الفسيفساء والرخام المجاورة.

قصبة الزيار: Kasba Zyyar

قصبة تاريخية شيدتها قبائل آيت معي في منتصف المسافة بين أكَلْمُوسْ وخنيفرة، في منطقة جبلية وعرة على مشارف الطريق الرئيسية الرابطة بين المركزين.

نرجح أن يكون عدد زوار ضريح "سيدي ميمون" وسط القصبة وضريحي سيدي احماد اولحسن جنوبه، وسيدي بنعيسى وسيدي عبد الكريم شماله استقروا بالقرب من الضريح الأول فسموا ب "الزيار" فتحولت تدريجيا تحول الموقع إلى قصبة حملت نفس الاسم. شكلت إلى جانب مجموعة من القصبات الصغيرة والممرات الحيوية كقنطرة الفحل إكْران نقطا

---

1. أوموس أحمد، "**في الأصول التاريخية والخصائص المعمارية للمخازن الجماعية (إكودار) بمناطق الأطلس**"، ضمن كتاب العمران والإنسان والمجال في تاريخ المغرب، مطابع الرباط نت، الرباط، 2017، ص 84

2. فنيدي أحفيظ، "**التحكم الاستعماري في منطقة زيان: تفكيك بنيات المجتمع من خلال الضغوط الاقتصادية**"، ضمن ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط (1907. 1956)، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني يزناسن، سلا،2001، ص ص 118.

3. اشتهرت عائلة هذا الأخير عند قبائل آيت بوحدو المجاورة بأن ابنه أول من صعد إلى أعلى جبل كهف النسور، وطار بمظلة طيران على أرض زيان. شملت الأراضي التي سيطر عليها Zamitt معظم الأراضي الخصبة بين مراعي إسرفان وعين قيشر بضواحي وادي زم، وكان أحيانا يحمل بندقيته ويقتل كل من يتجول قرب إقطاعاته، لكن بعد إلقاء القبض عليه وقتله سارع الفقراء لنهب وحرق بيته انتقاما، وثقته العيطة شعبية لازال صداه يتردد في أعراس المنطقة يقول مقطع منها "**زرعك أزميط داوه المزاليط**" (الفقراء).

لقطع الطريق بين مولاي بوعزة وخنيفرة على المستعمر. حاصر فيها المجاهدون الزيانيون فيالق عسكرية فرنسية بقيادة الضابط بُوشُون في معركة "الزيَّار" بعيد ملحمة الهري أسقطوا خلالها خمسة قتلى وعدد من الجرحى واستشهد عدد من المقاومين فقرر الضابط الفرنسي ملاحقتهم في النواحي واندلعت اشتباكات وصلت حد الاشتباك بالأيدي والسلاح الأبيض، قتل فيها عدد كبير من الفرنسيين والكوم ، وجرح الضابط السالف الذكر مما أجبر طيران الجو الفرنسي على التدخل للتغطية على انسحابهم، وخلال سنة 1920م عادت منطقة الزيار لتتصدر مشهد المقاومة المحلية بتصدي المجاهدين لقوات الضابط تيفُونِيْ بعدما ظن المستعمر أن المنطقة قد خضعت بضواحي الزيار ، قتل خلالها عدد لأبأس به من جنود الكتيبة وظلت طيلة العهد الاستعماري من المناطق الخطيرة التي ينصح الجنود الفرنسيون بتوخي الحيطة والحذر فيها[1].

قنطرة وواد كرو Grou

تقع قنطرة كرو على الطريق الرابطة بين ضريح التستاوتي ومدينة أبي الجعد على مسافة 11 كلم من الأول على واد كرو(*Grou*)، أحد الروافد الأساسية لأبي رقراق[2] والحد الطبيعي بين قبائل زيان وبني زمور.

تظهر إحدى صور الأرشيف الفرنسي سنة 1914 مجموعة من الفرنسيين يقومون بعملية صيد السمك على ضفافه مما يدل على أنه كان دائم الجريان. تربط بعض الآراء سبب التسمية بكلمة Gros (البيع بالجملة)، وهو طرح مستبعد لأن الكلمة واردة في المظان التاريخية قبل وصول المستعمر للمنطقة، كما يستعمل بمعنى جَمعَ أو ألتقط بما تعنيه الكلمة من اختيار بشروط[3]، ويشير *R. Montagne* إلى أن كلمة كرو مشتقة من أكَراو(agraou) المرادفة للكلمة الأمازيغية "أجموع" بمعنى اجتماع[4] لتصبح اليوم جَمَعَ، والأصل فيها "أكْراو" المرادفة ل "أجموع"[5] أي تجمع لرجال القبائل فيما بينهم للتداول فيما

---

1 . بنجلون أحمد، مادة "**الزيار**"، ضمن معلمة المغرب، ج14، ص 4761

2 . ينبع واد كرو من عين تورتوت على بعد 10 كلم شرق أكلموس، يتميز بصبيب ضعيف على سرير من الحصى لكنه يصبح خطيرا في فصل الشتاء وخلال العواصف الرعدية.

3- علي صديقي أزايكو، مادة "**أكراو**" ضمن معلمة المغرب...م.س، ج 2، ص 608 - 609

4 - 4 R. Montagne, **Les Berbères Et Le Makhzen Dans Le Sud Du Maroc**, Paris, 1930, P175

5 - Ibid ,P175.

بينهم عند الوادي خاصة عند تراجع صبيبه باعتباره حدا طبيعيا بينها، وهو الطرح الأقرب إلى صواب التسمية خاصة أن التعاريف المحلية لا تخرج عن سياق "الجمع" ولكن من دون انتقاء لأن الوادي واحد من أكثر أودية زيان خطورة عند فيضاناته خاصة العاصفية منها، والتي خلدها المقطع الغنائي الشهير

"دَارهَا وَادْ كَرُو كُلشِي جمعُو".

عرف واد كرو *Grou* بهذا الاسم في المظان التاريخية على الأقل منذ نهاية القرن 18م، فقد أورده الضعيف الرباطي في خضم الصراعات بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله في 25 رجب 1204هـ/11 أبريل 1790م، بقوله: إن الناس "كانوا يقطعون على ظهور بعضهم بعضا في واد كرو"[1]. وفي معرض حديثه عن محاولة ضرب عرب بين الويدان لزيان بأمر من ابن العامري "فسار عرب بين الويدان لمحلة زعير، ثم أرادوا قطوع وادي كرو فأصابهم الثلج فوجدوا الوادي حاملا، وكاد الثلج أن يقتلهم"[2] ويضيف "وفي يوم الثلاثاء 10 صفر (1229هـ/31 يناير1814) قطعت عرب الويدان وادي گرو ومنه ساروا حتى ضربوا على بعض الدواوير من زيان فقطعوا خمسة من رؤوس زيان، وقبضوا واحدا من كبراء زيان وأتوا به وبالرؤوس لابن العامري فوجههم للسلطان وصار يتنزه كأنه هو الذي فعل هذه المزية"[3]. ويشير De Foucauld الذي وصل إلى الوادي في 2 شتنبر 1883خلال رحلته بين مكناس وأبي الجعد إلى أن وادي كْسِيكْسُو يصب في واد كرو فيكون اتصال هذين الوادين نهر أبي رقراق "[4] ويضيف أنه لم يصادف في المنطقة إنسيا[5].

ظل الوادي دون قنطرة تستحق الذكر حتى حلول المستعمر بالمنطقة سنة 1914 حيث أصبح مشرع الوادي نقطة عبور حيوية لجنود **الكولونيل دلبسي** القادمة من تادلا استعدادا لمعركة لهري، ومحطة لتناول الطعام قبل مواصلة المسير[6]، ومع تزايد أهميته شيدت عليه

1. الضعيف الرباطي، م.س، ص201.
2. الضعيف الرباطي، نفس المصدر، ص 380
3. نفس المصدر والصفحة.
4. دوفوكو شارل، **التعرف على المغرب 1883. 1884م**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1999. ج1، ص 66
5. نفس المصدر والصفحة
6. جريدة السعادة، السنة 11، ع 738، 20 ماي 1914.

الفرنسيون جسرا حديديا يربط أرض زيان بأرض بني زمور البجعدية سنة 1918م، كما تدل على ذلك نقيشة معدنية على حافة القنطرة تحمل اسم شركة Schneider. اشتهر بمشرع عشرين زوج(20/2)[1] واستمر كمعبر رئيسي حتى نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة، حيث أغلق بعد بناء قنطرة إسمنتية بجواره جددت عدة مرات بعد جرف الوادي لها.

الكُعِيدَة: Lgaaida

الكعيدة لغويا تصغير لكلمة كَعدة، وهي قاعدة المحراث التي تمسك السكة، وجغرافيا تجمع سكاني صغير يضم سوق ومقر جماعة وسيدي احسين التابعة لقيادة ودائرة أَكَلْمُوسْ، أهم قبائلها آيت حدو حمو، آيت خويا أزاغار وآيت بوهو أزاغار. لم تسعفنا الوثائق في تحديد زمن تسميتها بهذا الاسم، لكن الثابت أن المنطقة عرفت المنطقة بهذا الاسم على الأقل منذ منتصف القرن 19م كمكان لانعقاد اجتماعات "الجْمَاعَةْ"، وعند وصول المستعمر إلى مولاي بوعزة تحرك موحى وحمو الزياني نحو مولاي بوعزة في ثلاثمائة فارس لإيقاف المستعمر لم يلحق به أحد فرجع إلى الكعيدة[2]. استفاد سكانها من تراجع النجعة وتراجع سوق سيدي احسين الذي كان أكبر أسواق أزاغار زيان، ونقلوه إلى مركزهم بداية ثمانينات القرن الماضي لكنه ظل سوقا صغيرا جدا.

بوكدجيك: Bougdjjig

مدشر رئيسي لقبيلة آيت بومزوغ الجبل على بعد 50 كلم شمال شرق خنيفرة، يعود أصل التسمية إلى عثور السكان من حين لأخر على ملح أبيض نقي لامع بأحد الجبال المجاورة، يشبه إلى حد كبير اللؤلؤ الأبيض الذي يعني "أَكْدجِيكْ"، فسمي الجبل بُوكدجيك واتخذ المدشر نفس التسمية. يعد حتى اليوم من أهم مراكز إنتاج الملح الحجري[3] بقبائل زيان، ملحه شديدة البياض الأفضل في زيان مقارنة مع ملح حوض واد سرو التي تعتريها بعض الحمرة. كانت تجارة ملح بُوكدجيك رائجة عند فخدتي في آيت الحياني آيت بوزمور بقبيلة آيت

---

1. تحتفظ الرواية الشفوية لسكان ضفتي الوادي بروايات مفادها أن "تيجان" و"المليعب" الواقعة على أرض زيان، كانت في الأصل أرضا عربية يرعى فيها بني زمور ماعزهم من لمباركيين إلى الكَلتة الحايلة سيطر عليها الباشا بعد حادث قتل شناكطته لأحد رعاة بني زمور بذريعة تجاوزه للوادي مما دفع السلطات الاستعمارية لتثبيته حدا طبيعيا بين القبيلتين وحكم على الباشا بدفع دية القتيل (مقابلة جماعية مع مجموعة من **شيوخ آيت خويا** أزاغار بتاريخ/2018/08).

2 . أ المفوضية الفرنسية، جريدة السعادة، المفوضية الفرنسية السنة 11، العدد 738، 20 ماي 1914

3. تشتهر بلاد زيان بكثرة مقالع الملح الحجري وهو ما يفسر ملوحة معظم عيون نهر أم الربيع وواد سرو.

بومزوغ. كان يدفع لصاحب المقلع خلال عشرينات القرن الماضي بين 1,5 و2 بسيطة عن حمولة كل حمار، وبين 3و4 بسيطات عن حمولة كل بغل، أما ثمنه في الأسواق فقد وصل قِرشا واحدا لما يعادل 4 كلغ تقريبا[1].

أحفُور أوصَاض: Ahffour Ousad

مركب اسمي من كلمتين "أحفور" أي الحفرة، ويدل "أصاض" في الثقافة الأمازيغية على ثعبان ضخم برأسين، لتعني الكلمة مجتمعة حفرة التي أحدثها هذا المخلوق الأسطوري. وهي موقع طبيعي على شكل حفرة كبيرة بمحمية برأس برياخ الملكية على بعد أقل من 10 كلم من مركز أكَلمُوسْ بإقليم خنيفرة. تعتقد العامة أن "أصَاض" هو من حفر هذه الحفرة، لكن المعاينة الميدانية تؤكد أن الأمر لا يتعدى كونه حوضا رسوبيا صغيرا يحتوي على رواسب سميكة في الداخل ورواسب رقيقة عند حوافه.

أزلاك نبوتزمورت :Azlagh Nboutzmourt

موقع طبيعي اكتسى شهرته من كونه المكان الذي قتل فيه موحى وحمو الزياني بجبل تاوجكَالت، على بعد حوالي 50 كلم جنوب شرق خنيفرة بتراب قبيلة آيت بوهو. يتركب الاسم من كلمتين: "أزلاكَ" التي تعني عند قبائل الأطلس الكبير المركزي المجال الحر على مشارف الدوار، أي "المحروم" أو "حواشي الدوار" أو المجال الحدودي للقرية أو الدوار، حيث توجد مقبرة أو ضريح ولي صالح، كما قد يتعني الخلاء[2]. أما بمجال الدراسة فتعني الجزء القليل الميلان من الجبل عند بدايته، فيقال "نِي أزلاك" أي: "إذا أردت أن تذهب ولا تتعب سر في هذا الجزء من الجبل". وتعني "بوتزمورت" صاحب الزيتونة البرية المعروف محليا ب "الجبوج"، لكون المنطقة تتوفر على عدد كبير من هذه الأشجار لا نستبعد أن موحى اوحمو الزياني قتل قرب إحداها.

دار العسكري Maison Du Combattant:

واحدة من دُور عديدة أنشأتها لجنة الصداقة الإفريقية (Le Comité Des Amitiés Africaines) في العديد من مدن فرنسا وشمال إفريقيا. تقع دار العسكري خنيفرة في الجانب

---

1. المالكي الملكي بن الجيلالي، **ثورة القبائل ضد الاحتلال**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 20014، ج1، ص 213

2 . مهدي محمد، **رعاة الأطلس الإنتاج الرعوي القانون والطقوس**، ترجمة عياد أبلال وإدريس المحمدي منشورات المركز المغربي لعلوم التدريس (Smss)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء ط1، 2013، ص 70.

الغربي من المدينة العتيقة، هدفت وفقا لأدبيات التأسيس تحسين الظروف المعنوية والمادية للجنود من أصول شمال إفريقية، بتقديم معونات غذائية ومساعدة طبية وتوفير الترفيه. احتوت هذه دار العسكري بخنيفرة على مقهى وقاعة للعب ومكان للعبادة...، والمكان المفضل لحرفيي المدينة لممارسة أنشطتهم الفنية والفرجوية. تحولت اليوم إلى مدار طرقي على الطرف الغربي للمدينة القديمة قرب مقر الوقاية المدنية[1].

تيدار إزّيانْ (ديور الشيوخ) Tiddar Izzian

لا يمكن الحديث عن التراث المعماري لعاصمة قبائل زيان "خنيفرة" دون ذكر مركب تيدار إزيان أو"ديور الشيوخ" باعتباره تراثا معماري كولونياليا متفردا. فقد دفع قادة الاحتلال ثلاثة عشر من قبائل زيان هي آيت لحسن أو سعيد، آيت شارط، آيت بومزيل، آيت بومزوغ، آيت معي، آيت بوحماد، آيت لحسن، آيت حدو او حمو، إهبارن، آيت بوحدو، آيت سيدي بوعباد، آيت عمو عيسى، إبوحسوسن، لبناء مركب معماري على مساحة 2هكتار و200م وسط مدينة خنيفرة وقريبا من مكاتب سلطات الحماية. هدفه بسط سيطرتهم على قبائل زيان، واستغلال طاقاتها البشرية في بناء أوراشه عن طريق السخرة بعد استمالة شيوخها وأعيانها. لم نعثر على أية وثيقة تؤرخ لبناء هذا الصرح بشكل مضبوط، لكن الواضح أن ذلك تم خلال تدريجيا خلال الفترة الفاصلة بين سيطرة المستعمر على خنيفرة سنة 1914 و1922. يمتلك السكان عقود كرائية ووصولات ضريبية، ورسوم ملكيات داخله تعود لسنوات 1921. 22. 23 إلى حدود 1963[2]. استمر في أداء المهام التي شيد من أجلها حتى الاستقلال، رغم السخط العارم على مركز الشرطة الاستعمارية. حاصره المتظاهرون في مظاهرة 19غشت 1955[3]، لكنه بعد الاستقلال عانى من تهميش كبير نتيجة استقرار القبائل فتحول إلى حي صفيحي لكنه استمر في أداء الوظيفة التي شيد من أجلها حتى بداية الألفية الثالثة.

---

1. للمزيد أنظر حميد ركاطة، **مذكرات أعمى** (رواية)، منشورات ديهيا وجمعية الأنصار للثقافة، ط1، 2015، ص 90. 91.

2. مقابلة مع **ممثل قبيلة آيت شارط**، وممثل **آيت عمو عيسى** بتاريخ 16/ 01/ 2016 عاينا خلالها وثائق تؤكد قولهم دون أن يسمحوا لنا بنسخة منها.

3. المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، **المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة (تراجم عن حياة المرأة المقاومة)**، ج2، مطبعة بني يزناسن، سلا، 2002 ص 45

أحيط تجمع ديور الشيوخ بسور كبير من حجارة يؤكد وكلاء القبائل أنها من أحضر حجارته من جبل باموسى المطل على المدينة غربا. وشيدت كل قبيلة من القبائل المذكورة غرفا كبيرة واسعة خاصة بها ملاصقة للجدار من الجهات الأربع. تتوسطه ساحة كبيرة ويضم جداره الغربي مدخل رئيسي علقت عليه لوحة رخامية نقشت عليها تسمية (*Tiddarr Izaiane*)[1] أي دور زيان. كانت الغرف مقرا اجتماعيا وإداريا القبائل الزيانية المذكورة، في غرفها يستقر كل أفرادها الذين قدموا إلى المدينة لقضاء أغراض مختلفة. وتأوي ساحتها دوابهم ومواشيهم دون تحديد مساحة خاصة بقبيلة معينة. ضم التجمع أيضا مكاتب تعقد فيها القبائل اجتماعاتها بشيوخها، ومنه استمدت اسمها الثاني (ديور الشيوخ). شمل المركب أيضا سجنا استعماريا لمعاقبة العصاة، ومركزا صحيا تجتاز فيه مرافقات كتائب المجندين الفحص الطبي.



الصورة 1: النقيشة الرخامية لمدخل تيدار إزيان سنة 2005

تتجلى أهمية مركب "تيدار إزيان" في كونه رمزا لشخصية وتاريخ زيان، وتراثا ثقافيا يعتز به أبناؤهم حتى اليوم. طالب عدد من المهتمين برد الاعتبار لقبائل زيان عبر معالمها التاريخية والنضالية، والاعتراف بحقوقها اللغوية والثقافية والهوياتية المنسية. فبعد الاستقلال تحول السجن الاستعماري لديور الشيوخ اليوم إلى مدرسة التزاما بمقولة "إذا فتحت مدرسة أغلقت

1. حطمت اللوحة في بداية الألفية الثالثة بفعل عوامل الطبيعة والمضاربات العقارية، إلا أن صورها لاتزال محفوظة في أرشيفات المعنيين والمهتمين بتاريخ وتراث المنطقة.

سجنا"، وفعًّلت السلطات قرار نزع هذا العقار من أجل المنفعة العامة بتحويله إلى مشروع اجتماعي مندمج بموجب مرسوم 11 أبريل 2007[1].

شيد على معظم مساحته سوق قرب يحمل نفس الاسم في إطار شراكة بين المجلس البلدي والمبادرة الوطنية للتنمية البشرية لتأهيل وتنظيم الباعة المتجولين. صنف لدى الوكالة الحضرية كمنطقة تجارية مساحتها 13639م[22] رغم ما أثاره القرار من غضب القبائل التي اعتبرت الأمر سيطرة على ممتلكاتهم وطمسا لهويتهم. يمكن أن يشكل هذا المركب إلى جانب فضاءات مشابهة كساحات "**أزلو**" و"**الكورص**" التي كانت فضاء لسباق الخيل، جزء مهما من مسار السياحة الثقافية للمدينة العتيقة التي يشكل نسيجها اليوم حوالي 2% من بنايات مدينة خنيفرة[3].

حاصل القول إن الأرض ليست مجرد عنصر جغرافي للعيش فقط، بل أيضا امتداد أنطولوجي للذات الإنسانية، وجزء لا يتجزأ منها حيث لا يمكن تصور الواحد دون الآخر. والدراسة الطوبونيمية ليست مجرد دراسة لاسم المكان وتوضيح معانيه، بقدر ما هي نبش في الذاكرة الحضارية والتاريخية والثقافية الخاصة بالمجموعة البشرية المعنية، ووسيلة مهمة لإعادة لكتابة " تاريخ الهامش المغربي "ودليل حي على التفاعل التاريخي بين الإنسان والمجال. وبذلك أصبحت الطوبونيميا مصدرا لا غنى عنه في مجموعة من العلوم الإنسانية كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع...لكن المبحث الطوبونيمي في مناطق المغرب الأقسى بشكل خاص لازال يعاني من ندرة الوثيقة التاريخية المكتوبة، مما يتطلب المزيد من الدراسة والتنقيب. وتبقى اللغة في هذا الصدد حاملة للتاريخ والحضارة وواحدة من بين أفضل الوثائق التي يمكن أن تمد الباحث بمعطيات وتدقيقات مفيدة لا توجد في المصادر التقليدية المألوفة.

1. المملكة الشريفة المحمدية، الجريدة الرسمية، **مرسوم رقم 190-07-2**، صادر في 22 ربيع الأول 1928 الموافق ل 11 أبريل 2007، عدد5521 بتاريخ 30 أبريل 2007.

2 - Agence Urbaine De Khénifra, Documents D'urbanisme, 2019.

3 . المندوبية السامية للتخطيط، **الإحصاء العام للسكان والسكنى 2014**، معطيات مدينة خنيفرة.

لائحة المصادر والمراجع:

✓ المصادر:

◎ المخطوطات:

ـ **المحلى في مناقب محمد بن مبارك**، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم726

الوثائق الإدارية:

. المملكة المغربية، وزارة الداخلية، التقطيع الانتخابي الجماعي 2015.

. المندوبية السامية للتخطيط، **دواوير المغرب**، ضمن منشورات نتائج إحصاء 2004، ملف Excel

◎ المصادر المطبوعة

- ابن أبي الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض 1416هـ.
- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972،
- ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، تحقيق وتعليق وتقديم عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، ط1، 2005م، ج2، ص 182.
- أسبينيون روبير، **أعراف قبائل زايان**، ترجمة محمد أوراغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007
- أكنسوس أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 1877)، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، منشورات المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د ت، ج1.
- البادسي عبد الحق بن إسماعيل، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق أعراب سعيد، منشورات المطبعة الملكية بالرباط، ط2، 1993
- بيرجي فرانسوا، **موحى وحمو الزياني**، ترجمة وتعليق محمد بوستة، مطبعة أنفو برينت، فاس، 1999.
- دوفوكو شارل، **التعرف على المغرب 1883. 1884م**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1999.ج1.
- الضعيف محمد الرباطي، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، 1986م.
- كنون سعيد، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان: المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب محمد بوكبوط، إصدار مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب، عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية، باريس، 1929، مطبعة بني يزناسن، سلا، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، العدد 18، يوليوز 2014

- كيوم أوغسطين، **البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (1933.1912)**، ترجمة وتقديم محمد العروصي، بني ملال (دون ناشر)، 2016.
- مجهول (كاتب مراكشي ق6ه)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986.
- المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط 1، 2006.
- المنصوري أحمد بلقاسم، **تاريخ بلدة خنيفرة**، تحقيق محمد أمحزون، دار الثقافة للتوزيع والنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986.
- المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق وتقديم محمد بلحسن منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة الرباط، ط1، 2004.

✓ المراجع

أسوس محمد، **دراسات في الفكر الميتي الأمازيغي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط،2007.
- بوبية أحمد، **قبائل زمور والحركة الوطنية**، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003.
- تويراس رحمة، **تعريب الدولة المجتمع بالمغرب الأقصى خلال العهد الموحدي**، طبع ونشر وتوزيع مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، ط1، الدار البيضاء 2015.
- حميد ركاطة، **مذكرات أعمى** (رواية)، منشورات ديهيا وجمعية الأنصار للثقافة، ط1، 2015.
- شفيق محمد، **الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة المعاجم، منشورات مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1999.
- الطريبق أحمد، **الكتابة الصوفية في أدب التستاوتي (1045. 1127ه) الحياة . الكتاب . الخطاب القسم الثاني: الرسائل الدلالة والبيان**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المملكة المغربية، مطبعة إليت، 2003.
- العلمي محمد، **حركة المقاومة بالأطلس**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط2، 2013.
- العلوي أحمد (إعداد ومراجعة)، **مولاي الطيب العلوي أحد مؤسسي الكتلة الوطنية ورائد الحركة الوطنية بالأطلس المتوسط (1896. 1964)**، منشورات زاوية للفن والثقافة، مطبعة القرويين، الدار البيضاء، ط1، 2009.
- علي صدقي أزايكو، **نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004
- المالكي الملكي بن الجيلالي، **ثورة القبائل ضد الاحتلال**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 20014، ج1.

- المعزوزي محمد، هاشم بن الحسن العابدي العلوي، **الكفاح المغربي المسلح في حلقات من 1900 إلى 1935**، مطبعة الأنباء، الرباط، 1987
- مهدي محمد، **رعاة الأطلس الإنتاج الرعوي القانون والطقوس**، ترجمة عياد أبلال وإدريس المحمدي منشورات المركز المغربي لعلوم التدريس (smss)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء ط1، 2013.

✓الندوات والمقالات

- أمحزون محمد، **ندوة سيرة القائد المجاهد أمحزون محمد اوحمو الزياني**، القاعة الكبرى، خنيفرة ،11 دجنبر 2011، غير منشورة.
- أوموس أحمد، **"في الأصول التاريخية والخصائص المعمارية للمخازن الجماعية (إكودار) بمناطق الأطلس"**، ضمن كتاب العمران والإنسان والمجال في تاريخ المغرب، مطابع الرباط نت، الرباط، 2017، ص 75. 100
- بوكبوط محمد، **"أرقاص"** ضمن كتاب المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006، ج2.
- الخديمي علال، **مقاومة التدخل الأجنبي في الشاوية وجبال الأطلس**، ضمن مجلة المناهل، عدد 38، السنة 15، دجنبر 1989، ص ص 346-373

✓الرسائل الجامعية

- أقبوش إدريس، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية (1912. 1956)**، أطروحة مرقونة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2016. 2017.

✓الموسوعات

- الجمعية المغربية للتأليف والنشر بإشراف محمد حجي، موسوعة **معلمة المغرب**، مطابع سلا، 1984، الأجزاء 1. 2. 14. 24

✓ الجرائد

- جريدة السعادة، السنة 11، ع 738، 20 ماي 1914.

✓ الروايات الشفوية:

- مقابلة جماعية مع مجموعة من شيوخ قبائل آيت خويا أزاغار بتاريخ/2018/08
- مقابلة جماعية مع شيوخ آيت معي بتاريخ 2019/08/10.
- مقابلة جماعية أحد شيوخ قبيلة آيت بوهو (تملاكت) 27 غشت 2018.
- مقابلة مع غزلان مصطفى (2016 /04/01) فاعل جمعوي من أبناء مجمع عوام المعدني.
- مقابلة مع ممثل قبيلة آيت شارط، وممثل آيت عمو عيسى بتاريخ 16/ 01/ 2016

✓ المراجع بلغات أجنبية:

◎ **الكتب**

- Alexis Métois, **Au Désert**, Imprimerie Administrative A. Mauguin, Place D'armes, Blida, 1901.
- Montagne R, **Les Berbères Et Le Makhzen Dans Le Sud Du Maroc**, Paris, 1930, P175
- Peyronnet. raymond, ***Tadla Pays Zayane Moyen Atlas***, Imprimerie Algérienne ,1923

◎ **المقالات والندوات بلغات أجنبية:**

- Ben Daoud, **Notes Sur Le Pays Zayan**, Archives Berbères, vol 2, fasc3, 1917, Pp 276-306
- Isma-Cnr, L'insap, Université Moulay Ismaïl Meknès, L'association Abghor De Développement Rurale, Minière Perdute Del Marocco, **Missione Sull'atlante**, Susanna, Université Neuchâtel. P.P 1-6
- Ministre De L'agriculture Et De La Réforme Agraire, Carte M'Rirt, 1/50.000,
- Odinot Paul, **«Aouam, La Capitale Du Fer»**, Dans France-Maroc : Revue Mensuelle Illustrée : Organe Du Comité Des Foires Du Maroc, A5, N55, Juin 1921, [S.N.] (Rabat) P103.
- Rosenberger . B, **"autour d'une grande mine d'argent de moyen âge marocain. Le jbel Aouam"**, Héspéris v 4, 1963- 1964. Pp 15- 78

منطقتا غريس وفركلة بالجنوب الشرقي المغربي من خلال كتب الجغرافيا والرحلات

د: محمد المرتضي*

معلوم أن البحث في جوهره هو نبش في المصادر على اختلاف أنواعها، ويُعتبر الأدب الجغرافي من أهم المظان التي يُعول عليها في الأبحاث التاريخية، سواء تعلق الأمر بتاريخ دائرة مجالية محددة خلال فترة أو فترات زمنية معينة، أو بالتاريخ الوطني أو بتاريخ الأمة أو بتاريخ العالم.

ولعل من مناطق الجنوب الشرقي المغربي التي لم تحظ باهتمام الباحثين: منطقتا "**غريس**" و"**فركلة**"، خصوصا إذا استثنينا بعض الأبحاث التي حاولت إلقاء الضوء على مجتمعها القبلي من القرن 8هـ/14م إلى القرن 13هـ/19م، وخلال مرحلة ما قبل الاستعمار[1].

وقد حاولت هذه الدراسة الجمع بين مستويين: مستوى التاريخ المحلي (الكتابة المونوغرافية) ومستوى الجنس المصدري الواحد (المصنفات الجغرافية)، بهدف إيجاد مناطق التقاطع بينهما تعزيزا لمسارات البحث التاريخي المغربي، وإغناء لمحاور هذا الكتاب الجماعي. فما الموقع الجغرافي لواحات غريس وفركلة؟ وما دلالات تسمياتها؟ وكيف صورت كتب الجغرافيا والرحلات العربية والأجنبية المجال والإنسان بغريس وفركلة؟ وإلى أي حد يمكن اعتماد المصنفات الجغرافية في كتابة التاريخ المحلي؟

أولا - غريس وفركلة: الموقع ودلالات التسمية

تقع واحات غريس وفركلة بالجنوب الشرقي للمغرب، ضمن حوض غريس الأوسط الذي تحدُّه جبال الأطلس الكبير شمالا، وجبال "صاغرو" و"أوكنات" جنوبا. ومن الناحية الشرقية حوض زيز الأوسط، وينتهي عند واحة تودغى غربا. ومن حيث الإحداثيات الجغرافية، فهي

*. أستاذ وباحث بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، جهة فاس - مكناس.

1- مولاي الحسن اخروش، **المجتمع القبلي ودور الزوايا بالحوض الأعلى والأوسط لوادي غريس: من القرن 8هـ/14م إلى القرن 13هـ/19م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز-فاس، 2002-2003م (مرقونة). بن محمد قسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار: غريس نموذجا**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم 3، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2005م.

توجد بين خطي 31 درجة و32 درجة شمالا، وبين خطي 4 درجات و30دقيقة و5 درجات و30 دقيقة غربا[1].

وانطلاقا من هذا التحديد؛ يمكن القول إن المنطقة تشكل الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية الممتدة في الجنوب الشرقي المغربي على شكل شريط كبير من واحات فكيك شرقا إلى واحات درعة غربا. وبذلك فهي تضم اليوم، إضافة إلى كلميمة وتنجداد، تلوين، وتيزكاغين، وتوروڭ وأم مْلعب...

وبخصوص دلالات التسمية، فقد ذكر صاحب "لسان العرب" أنه «**يُقال للنخلة أول ما تنبُت: غريسة... والجمع غرائس وغراس**»[2]، وورد هذا المعنى أيضا في "القاموس المحيط"، لكنه أضاف ما نصه: «**والغريس: النَّعجَة، وتُدعى للحلب غريس غريس**»[3]، ولم يخرج معجم "الرائد" عن المعاني السابقة[4]. ومن ثم، فلفظ "غريس" الذي يُطلق على الوادي، والحوض المائي (في مقابل حوض زيز)، والجبل الذي يُطلُّ على أهم واحة بالمنطقة من جهة الشرق، يحمل معاني ودلالات تنسجم مع خصوصيات المجال.

أما فركلة فهو اسم لأحد روافد نهر غريس، ينبع من الكتلة الجبلية الواقعة بين تاديغوست شرقا وأغبالو ن كردوس[5] غربا، ويلتقي مع وادي تودغى عند الأطراف الغربية لواحة أسرير[6]. والجدير بالذكر أن هذه الواحة – أي واحة أسرير– تقع على بُعد نحو عشرين كيلو مترا غربي كلميمة، وبحكم التقارب الجغرافي بينهما، نجد أن من قرأ في غريس عرج على فركلة، وخاصة الطلبة الوافدين من درعة[7]، «**ولعل ما اشتهر من فركلة بالذات هي واحاته**

1- **الخريطة الطبوغرافية لكلميمة**، مقياس: 1/250.000.

2- ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة ومشكولة، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج 5، ص. 3240.

3- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط 8، 2005م، ص. 561.

4- مسعود جبران، **الرائد معجم لغوي عصري**، مادة "الغريس"، دار العلم للملايين، ط 7، 1992م، ص. 578.

5- يرى محمد بوكبوط في ترجمته لكتاب "ايت عطا الصحراء" أن «النون المستقلة تعني النسبة إلى الاسم الذي يليها في الأمازيغية، وبالتالي يُستحسن عدم دمجها ليسهل تمييز الاسم كما في مثال: تيزي ن تافيلالت». القبطان جورج سبيلمان، **ايت عطا الصحراء وتهدئة آفْلاَ – نْ – دْرَا**، ترجمة وتعليق محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة رقم 10، مطبعة المعارف الجديدة، 2007، هامش رقم 3، ص. 14.

6- يرى العربي مزين أن كلمة "اسرير" تحمل دلالة أمازيغية، تعني ميدان الجري، أو كل مكان منبسط مكون من أرض صلبة خالية من الحجارة والنباتات. العربي مزين، أسرير - فركلة، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، 1989، ج 2، ص. 409.

7- محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، الجزء الثاني، مطبعة فضالة - المحمدية، 1398هـ/ 1978م، ص. 527.

التي لعبت أدوارا مهمة في تاريخ الجنوب الشرقي المغربي، باعتبار موقعها الاستراتيجي على محور تافيلالت مراكش ودرعة »[1].

وعليه، فالمعاني السابقة تُحيل على المجال الصحراوي والشبه صحراوي والجبلي في آن واحد، حيث ممارسة الزراعة وغراسة النخيل ورعي الأغنام إلى جانب التجارة الصحراوية التي ساعدت على استقرار السكان بالمنطقة خلال مرحلة ازدهار سجلماسة. وإذا كان من الصعب تتبع الإشارات المرتبطة بغريس وفركلة في جميع كتب الجغرافيا والرحلات العربية والأجنبية، نظن أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه، ولذلك سنقتصر على نماذج منها.

ثانيا - غريس وفركلة في المصنفات الجغرافية العربية:

1- "صورة الأرض" لابن حوقل (ت.367 هـ/ 977 م):

يُعد ابن حوقل البغدادي من التجار الرحالة «**الذين اتخذوا التجارة وسيلة لتفهم خصائص الأقاليم، وطبائع الشعوب**»[2]، وحسب بعض الباحثين، فهو من بين الجغرافيين الذين تعرفوا على شؤون المغرب خلال القرن 4هـ/ 10م، حيث «**ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر**»[3].

وفي كلامه عن قبائل صنهاجة وبطونها، ذكر ابن حوقل أسماء لتجمعات بشرية، دون أن يُحدد موطنها مثل: «**بني كارديميت**»، و«**مغرسه**»، و«**ملونة**»[4]. ومن المحتمل أن يكون بنو كارديمت أصلا لساكنة قصر يحمل الاسم نفسه بفركلة، ومغرسه وملوانة من القبائل التي استوطنت المنطقة.

ولعل ما يؤيد هذا الرأي أنه بالرجوع إلى المصادر الوسيطية، وخاصة الموحدية منها، نجد البيذق – وهو من أهل القرن 6هـ/ 12م – يقسم القبائل الموحدية التي تنتمي إلى أصل صنهاجي إلى قسمين: صنهاجة الظل الساكنون في الجبل، وصنهاجة القبلة (صنهاجة الجنوبية) الساكنة خلف جبال الأطلس. وذكر منهم: «**أهل فركلة آيت فركلة معا، أهل غريس آيت**

1- محمد بوكبوط، فركلة، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، 2004، ج.19، ص. 6453 - 6454.

2- ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة -بيروت، 1992م، مقدمة الناشر، ص. 5.

3- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفتش، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، القسم الأول، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته ايغور بليايف، لجنة التأليف والترجمة، جامعة الدول العربية، 1957م، ص. 204.

4- ابن حوقل، **صورة الأرض**، م س، ص. 101.

غريس معا، بنو يدراسن آيت يدراسن معا، بنو توشنت آيت توشنت معا، ملوانة آيت آيملوان معا، وهذا آخر أهل تيارات»[1].

وفي سياق حديثه عن خروج المهدي بن تومرت من تنمل نحو سجلماسة أورد البيذق اسم "غريس"، وذكر محقق الكتاب أن «**غريس اسم أرض وجبل ونهر شهير بإقليم قصر السوق، قاعدته كلميمة الواقعة على الطريق الذي يربط مدينة قصر السوق بمدينة ورزازات، ويسكن هذه الأرض عدد من القبائل، أكبرها مرغاد، وغريس، والعرب»**[2]. أما ملوانة فهم فرع من صنهاجة[3]، وعلى حد تعبير أحد الباحثين فـ «**ملوانة هم إملوان وكان من صنهاجة القبلة في بلد امرغاد بتافيلالت»**[4].

2- "أحسن التقاسيم" للمقدسي (توفي حوالي 380هـ/ 990م):

يُعتبر المقدسي من أبرز رجالات الرحلة وعلماء البلدان في القرن 4 هـ/ 10م، ونتيجة لرحلاته الواسعة، استطاع أن يُصنف كتابه الوحيد وهو في سن الأربعين[5]، ولا يذكر أنه ألف غيره[6]، وعلى حد تعبير أحد الباحثين فقد «**أوشك المقدسي أن يتناول معظم وجوه**

1- البيذق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م، ص. 55.

2- عبد الوهاب بن منصور في تحقيقه لكتاب "أخبار المهدي بن تومرت". انظر: البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور -الرباط، 1971م، هامش رقم 96، ص. 51.

3- ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، ط 2، 1997م، ص. 99. ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، الجزء السادس، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، 2000م، ص. 202. أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة ومطبعة المعارف الجديدة، طبعة 1991م، ص. 106.

4- أحمد التوفيق في تحقيقه لكتاب "التشوف". انظر: ابن الزيات، **التشوف**، م س، هامش رقم 50، ص. 99.

5- المقدسي، **رحلة المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط 1، 2003م، ص. 30.

6- كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، م س، القسم الأول، ص. 209. نقولا زيادة، **الجغرافيا والرحلات عند العرب**، الشركة العالمية للكتاب-بيروت، 1987م، ص. 50. عبد الرحمن حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دار الفكر-دمشق، إصدار 1416هـ/ 1995م، ص. 255. فؤاد قنديل، **أدب الرحلة في التراث العربي**، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1423هـ/ 2002م، ص. 271.

الجغرافيا في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"»[1]. وتكمن أهمية الكتاب في تحريه الدقة والموضوعية، حيث يقول: «**وقد ذكرنا ما رأيناه وحكينا ما سمعناه. فما صح عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول. وما شككنا فيه أو كان عن طريق الآحاد أسندنا إلى الذي منه سمعناه**»[2].

ومن الإشارات المصدرية التي تذكرنا بمنطقة غريس، ما ورد عند المقدسي في سياق حديثه عن سجلماسة، حيث يقول: «**وأما سجلماسة فهي اسم القصبة أيضا ولها من المدن درعة، تادنقوست، إثرائيلا، ويلميس، حصن ابن صالح، النّحاسين، حصن السودان، هلال، اِمْصَلى، دار الأمير، حصن برارة، الخيامات، تازروت**»[3]. وحسب صاحب "سجلماسة وإقليمها"، فموقع أغلب الأماكن المذكورة في هذا النص «**يظل مجهولا وغامضا في ضوء معلوماتنا الحالية... وهذا ما يؤكد التغيرات الكبيرة التي لحقت أسماء الأماكن نتيجة التحولات الاجتماعية المهمة التي عرفتها هذه المناطق من القرن العاشر الميلادي إلى الفترة المعاصرة**»[4]. والغالب على الظن أن تلك المناطق كانت تابعة لأمراء الخوارج الصفرية، وكلمة "تادنقوست" لا يوجد ما يُشبهها لفظا بإقليم سجلماسة، وبمنطقة غريس على وجه التحديد، سوى كلمة "تاديغوست"، ولا نستطيع مسايرة أحد الباحثين[5] حين ذهب إلى أن المقصود بها هي تازة دون أن يدعم رأيه بأي دليل.

3- "المسالك والممالك" للبكري (ت 487 هـ/ 1094م):

اشتهر البكري «**بصفته جغرافيا في المشرق والمغرب**»[6]، ومما لا شك فيه أن كتاب "المسالك والممالك" أسهم في شهرته. «**وهذا الكتاب لا يشبه أي كتاب آخر من نفس الفن رغم تداول هذا الاسم في الأدب العربي... فتتوالى فيه المسالك ووصف البلدان والشعوب**

1- جمال الفندي، **الجغرافيا عند المسلمين**، دار الكتاب اللبناني -بيروت، ط 1، 1982م، ص. 85.

2- المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، م س، ص. 41 -42.

3- نفسه، ص. 79.

4- حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة-المحمدية، 1997م، ص. 33.

5- شاكر لعيبي في "رحلة المقدسي". راجع: **أحسن التقاسيم**، هامش رقم 602، ص. 209.

6- سعد غراب في ترجمة مقدمة كتاب "المسالك والممالك". انظر: البكري، **كتاب المسالك والممالك**، الجزء الأول، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة -تونس، 1992م، ص. 12.

والمدن وتمتزج بالملح والأساطير والاستطرادات التاريخية ويبقى انتباه القارئ دائم اليقظة»[1].

وبخصوص مجال الدراسة، ففي آخر كلامه عن الطريق من مدينة درعة إلى سجلماسة يقول البكري: «**وأمرغاد آخر بساتين سجلماسة. ومنها إلى سجلماسة ستة أميال**»[2]. والحقيقة أننا لا نعرف بالتحديد المقصود بكلمة "امرغاد" في نص البكري الذي لم يزر المنطقة وإنما جمع أخباره عنها عن طريق الرواية الشفوية[3]، كما أن الوثائق المحلية – التي اطلعنا عليها -لم تتحدث عن "ايت مرغاد" إلا في القرن 17م[4]، وعلى حدّ تعبير أحد الباحثين فـ «**أمرغاد أو ايت مرغاد قبيلة صغيرة رحل رعاة يعتبرون ضمن تجمع ملوانة... ووطنهم على نهر غريس**»[5].

وإذا افترضنا وجود صلة ما بين "امرغاد" و"ايت مرغاد" التي استوطنت أعالي حوض غريس منذ القرن 11هـ/ 17م، نكون أمام دليل آخر يؤكد أن غريس كانت خاضعة للنفوذ السياسي والديني والاقتصادي للحكم المدراري. ولعل ما يدعم هذا الرأي، أن سجلماسة «**كانت المكان الذي تتجمع فيه البضائع من كل قطر، والمكان الذي تتم فيه عمليات البيع**

1- نفسه، ص. 13.

2- نفسه، ج 2، ص. 846. وقد اختلف الجغرافيون في مقدار الميل، حيث نقل البكري عن بعضهم، أنه «أربعة آلاف ذراع بالذراع الذي وضعه المأمون [عبد الله بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس] لذرع الثياب ومساحات البناء وهو أربعة وعشرون إصبعا... وذلك ألفان وثلاثمائة وثلاث وثلاثون خطوة. وهو بالذراع الهاشمي ثلاثة آلاف ذراع»، والمشهور الذي أخذ به ابن الحاجب (ت 646هـ/ 1249م) ومن تبعه من فقهاء المالكية ألفا ذراع. انظر: نفسه، ج 1، ص. 178. خليل بن إسحاق المالكي، **التوضيح: شرح مختصر ابن الحاجب**، الجزء الأول، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية -بيروت، 2012م، ص. 512.

3- نفسه، ج 1، ص. 16. حافظي، **سجلماسة وإقليمها**، م س، ص. 29.

4- الوثيقة التي أشارت إلى قبيلة ايت مرغاد مؤرخة بسنة 1055هـ/ 1645م، أنظر:

-Larbi MEZZINE، **Le Tafilalt: Contribution À L'histoire Du Maroc Aux Xviie Et Xviiie Siècles**, Publications De La FLSH (Faculté Des Lettres Et Des Sciences Humaines) - Rabat, 1987, P. 94.

5- هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف القرن العاشر الميلادي**، ج 2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة - المحمدية، 1995م، هامش رقم 212م، ص. 209.

والشراء على أوسع نطاق»[1]، والمجال الذي كان على سجلماسة أن تراقبه باستمرار «**كان يتشكل من مرتفعات الأطلس الكبير الشرقي في الشمال حيث تتوفر المنتوجات الحيوانية من لحوم وجلود وأصواف فضلا عن المعادن... وبالرغم من أن الحمادات تتسم بانبساط تضاريسها، فإن القوافل التجارية لم تسلكها إلا نادرا... [وكانت] تتبع مجاري الأنهار، نتيجة سهولة الرحلة عبرها، لأنها عبارة عن أشرطة متسلسلة من الواحات التي توفر ما تحتاج إليه القوافل من لوازم السفر خاصة الماء**»[2].

4- "وصف إفريقيا" للحسن الوزان (توفي بعد 957هـ/ 1550م):

ينتسب الحسن بن محمد الوزان المعروف بـ"يوحنا ليون"[3] أو "ليون الإفريقي"[4]، إلى قبيلة بني زيات الزناتية التي استوطنت بلاد غمارة[5]. وبما أن أسرته كانت تقيم بالأندلس، فقد ولد بمدينة غرناطة حوالي عام 894هـ/ 88-1489م[6] أي قبل سقوطها بنحو أربع سنوات، ثم انتقل مع أسرته إلى فاس حيث درس في القرويين. وبالرغم من حداثة سنه فقد أسند إليه سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي (910-932هـ/1504-1526م) «**مهام سياسية دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه وتسجيل مشاهداته في مذكرات... غدت على ما يظهر أساس كتابه الجغرافي**»[7].

1- ماجدة كريمي، **آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا: من القرن 5هـ/11م إلى القرن 11هـ/14م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة، 1415-1416هـ/ 1994-1995م (مرقونة)، ص. 74.

2- حافظي، **سجلماسة وإقليمها**، م س، ص ص. 31 - 37

3- الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الثانية، 1983م، الجزء الثاني، ص. 284.

4- محمد المهدي الحجوي، **حياة الوزان الفاسي وآثاره**، المطبعة الاقتصادية - الرباط، 1935م، ص. 5.

5- محمد حجي ومحمد الأخضر في مقدمة ترجمتهما لكتاب "وصف إفريقيا". الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ص. 6.

6- ذكر الحجوي أن مولده كان سنة 901هـ/ 1496م، ورجح محمد حجي ومحمد الأخضر «ما ذهب إليه غير واحد من أن الوزان ولد حوالي عام 888/1483» بالرغم من أنهما أشارا – في الهامش رقم 60 من الصفحة 151- إلى أن تاريخ ميلاده قد يكون حوالي عام 894هـ/ 88-1489م. ومن خلال مقارنتنا لمعطيات وردت في كتابه "وصف إفريقيا" يبدو أن التاريخ الأخير هو الأقرب للصواب لأن الحسن الوزان ذهب إلى أسفي في الثانية عشر من عمره، وبعد مرور نحو أربع عشرة سنة – أي عندما بلغ عمره 26 سنة – قابل حاكمها عام 920هـ/ 1514م. انظر: الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ج 1، ص. 7 وأيضا ص. 151. الحجوي، **حياة الوزان**، م س، ص. 9.

7- الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ج 1، ص. 8.

وبالرجوع إلى "وصف إفريقيا"، يلاحظ أن الوزان تحدث عن الطريق الرابط بين سجلماسة ودرعة، حيث كانت تحت مراقبة «**بعض الأمراء الأعراب، ولا يستطيع أحد أن يمر دون أن يؤدي ربع مثقال عن كل جمل**»[1]. والغالب على الظن أنه مرّ بعيدا عن واحة غريس، لذلك لم يأت على ذكر اسمها بينما تحدث في أكثر من موضع عن واد زيز[2] وفركلة[3].

وفي سياق حديثه عن إقليم سجلماسة، أشار الوزان إلى أن تُدغَة «**إقليم صغير على مجرى ماء صغير يحمل نفس الاسم... ويبعد هذا الإقليم عن سجلماسة بنحو أربعين ميلا**»[4]، وذكر أن فركلة «**دائرة أخرى مأهولة على نهر صغير، يكثر فيها كذلك التمر وغيره من الفواكه، لكن الحبوب لا تنبت فيها إلا بقدر قليل جدا. وهناك ثلاثة قصور وخمس قرى بعيدة بنحو مائة ميل عن الأطلس وستين ميلا عن سجلماسة وسكانها خاضعون للأعراب**»[5].

واستنادا إلى ما ورد في النصين السابقين، يظهر أنه وقع خلط بين الواحتين، حيث إن فركلة أقرب إلى سجلماسة من تُدغة، وهذه الأخيرة أبعد منها في اتجاه الغرب. وبما أن قصور أسرير من القصور القديمة بالمنطقة، فمن المحتمل أن تكون ضمن الثلاثة قصور والخمس قرى التي أشار إليها الوزان في سياق حديثه عن فركلة.

وعليه، فمن خلال الإشارات السابقة يبدو أن "غريس" و"فركلة" عرفت بأسماء التجمعات البشرية التي كانت تستوطنها مثل «مغرسه»، و«أمرغاد» و«بني كاردميت»، و«ملونة»، قبل أن تشتهر بأسمائها خلال المراحل اللاحقة، ولم تكن الصورة واضحة بشأنها إلا مع الحسن الوزان، ومن استفاد منه خلال القرن 10هـ/ 16م، وفي مقدمتهم "مارمول كربخال".

1- نفسه، ج 2، ص. 129.

2- نفسه، ج 2، ص. 120- 123- 125- 127.

3- نفسه، ج 1، ص. 32- 53- 187 ، ج 2، ص. 130.

4- نفسه، ج 2، ص. 129- 130.

5- نفسه، ج 2، ص. 130.

ثالثا - غريس وفركلة في كتب الرحلات الأجنبية:

1- "إفريقيا" لمارمول كربخال (ق 16م):

ولد "مارمول كربخال" (Marmol Carvajal) بغرناطة، وشهد احتلال مدينة تونس سنة 942هـ/ 1535م وما جرى فيها من أعمال السلب والنهب، وبقي في شمال إفريقيا يقوم بمهمة كلفه بها الإمبراطور شرلكان (ملك إسبانيا كارلوس الخامس)، وطال مقامه في هذه البلاد نحو اثنين وعشرين سنة، تعرض خلالها للأسر من قبل الشرفاء السعديين، لمدة سبعة أعوام وثمانية أشهر، «**يسير في ركابهم أين ساروا**»[1].

والغالب على الظن أنه اطلع على كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان ونقل منه فصولا كثيرة، و«**ربما كان لمرمول يد في بتر كتاب الوزان، وإخفاء قسم تاريخ الإسلام منه وإعدامه**»[2].

تحدث "كربخال" في كتابه "إفريقيا" عن واد زيز، دون واد غريس[3]، واهتم بفركلة وتنجداد دون غريس وكلميمة لأنه لم يتمكن من الوصول إليها. ويبدو أن المعلومات التي قدمها حول السكان تفتقر إلى الدقة والموضوعية حيث يقول: «**فركلة منطقة يعمرها قوم من أجلاف البرابر، لا يعرفون للأخلاق معنى ولا للإنسانية مدلولا، ينتسبون إلى قبيلة آيت غريس، وقد شيدو قراهم طوال نهر صغير يمرّ على مسافة قريبة من الأطلس الكبير، تقدّر بأربعة وثلاثين فرسخا جنوبا، وتبعد عن إقليم سجلماسة بعشرين فرسخا**»[4].

وفي موضع آخر من كتابه، يقول عن مدينة تنجداد: «**ويوجد بالمدينة سوق كبير توجد فيها مختلف المنتوجات، يأتيه التجار من إفريقيا ومن أوربا، لبيع الثياب الصوفية، والأقمشة القطنية وبضائع أخرى. ونشير إلى أن عددا من التجار النصارى والبرابر، استوطنوا المدينة، وقد مكثنا نحن فيها يومين رفقة والي مكناس، وشاهدنا ازدهارها، ولاحظنا أن الأمن سائد بها، أكثر مما هو عليه الحال في غيرها من المدن والأقاليم**»[5].

1- محمد حجي وآخرون في تقديم ترجمتهم لكتاب "إفريقيا". انظر: مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الجزء الأول، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984م، ص. 4- 5.

2- نفسه، ص. 7.

3- مارمول كربخال، **إفريقيا**، م س، ج 1، ص. 37 – 46-47.

4- نفسه، ج 3، ص. 157.

5- نفسه، ج 3، ص. 149.

والمؤكد أن تنجداد مدينة بفركلة، وإذا افترضنا أن السكان كما وصفهم؛ "أجلاف"، و"لا يعرفون للأخلاق معنى ولا للإنسانية مدلولا"، فلماذا كان يأتي إليها التجار من إفريقيا وأوربا؟ ولماذا استوطنها التجار النصارى؟ ولماذا كانت أكثر أمنا؟ لو لم يكن أهلها عكس ما قاله "مارمول كربخال" تماما.

2- "التعرف على المغرب" لشارل دو فوكو (1883-1884م):

تندرج رحلة "شارل دو فوكو" (CHARLES DE FOUCAULD) إلى المغرب، في أواخر القرن 19م، ضمن الرحلات التي قام بها الأوربيون لاستكشاف هذه البلاد، والتعرف على «**المناطق المجهولة التي لم تُسلك بعد من قبل الأوربيين مهما بلغت وعورتها وخطورتها**»[1].

يحمل "شارل دو فوكو" الجنسية الفرنسية، وقد انطلق هذا الرحالة من طنجة، متنكرا في زي يهودي، رفقة الحاخام مَرْدوشي[2]، واستغرقت رحلته إحدى عشر شهرا، (من 20 يونيو 1883م إلى 23 ماي 1884م)، وزار علاوة على المناطق الشمالية، بلاد تادلا وسوس ودرعة والصحراء المغربية، وتعرف على أهم الأنهار مثل أم الربيع ودرعة وسوس وملوية وزيز وغريس وروافدها الكبرى والصغرى. وكان يُسجل بعناية كل التفاصيل المتعلقة برحلته، ورسم أهم المواقع الطبيعية والعمرانية التي شاهدها، ونقل ملاحظاته حول السكان وعلاقاتهم فيما بينهم وعلاقتهم بالمخزن.

والملاحظ أن "دو فوكو" كان يضبط الزمان بالدقائق والساعات والمكان بالأمتار والسنتمترات، خدمة للسياسة الإمبريالية الفرنسية، مما جعل ملاحظاته الجغرافية أكثر دقة وموضوعية. ويُفيدنا بأنه وصل إلى فركلة يوم 29 أبريل 1883م على الساعة الواحدة ضمن قافلة «**ينتمي نصفهم إلى ايت عطا، وينتمي النصف الآخر إلى ايت مرغاد**»[3]، وتوقف عن

1- محمد حجي في تقديمه لكتاب "التعرف على المغرب". انظر: شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب (1883- 1884)**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة - البيضاء، الطبعة الأولى، 1419هـ/ 1999م، ص. 5.

2- ذكر أحد الباحثين أن "شارل دو فوكو" صاحب (استطلاع في المغرب) رافقه «**لوهورو (L.Lehuraux) وكتب رحلة بعنوان "في الصحراء مع الاب دو فوكولد»**. راجع: عبد العزيز بنعبد الله، **الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ**، دار نشر المعرفة - الرباط، الطبعة الأولى، 2001م، ص. 87.

3- شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب**، ج 1، ص. 303.

السير على الساعة الواحدة و20 دقيقة عند قصر أسرير[1]، قبل أن يواصل سيره نحو واحة غريس في اليوم الموالي، وعلى حد تعبيره، فهي «**شبيهة بواحة فركلة... واحة غريس شريط من النخيل يظلل المزروعات. يسيل النهر وسط هذه المزروعات، ووسطها تنتصب القصور... نهر غريس من قوة نهر تدغة: عرض 30 م منها 12م بها ماء جار وصاف عمقه 60 سم**»[2].

وبخصوص علاقة قبائل المنطقة فيما بينها، يذكر "دو فوكو" أن غريس كانت تعرف حينئذ « **كثيرا من الغليان... كل قصر على حذر، ولكل قصر حراسه عند الأبراج قصد المراقبة وإعطاء الإشارة في حالة المباغتة. خلال فصل الخريف الماضي (1883) قاتلت كل من ايت عطّا وايت مرغاد إحداهما الأخرى، ليس بعيدا من هنا، قرب تلوين وهي واحة صغيرة منعزلة شرق فركلة... ينتظر أن تنطلق الأعمال العدوانية في أي يوم من الأيام المقبلة. ستكون غريس ولا شك الميدان الرئيسي للمجابهة. منذ قرابة 30 سنة مضت، انتزعت ايت عطا عددا من القصور من ايت مرغاد كانت ملك هذه الأخيرة في غريس. وكان من بين هذه القصور التي استولى عليها ايت عطا كلميمة، وهي أحد أهم قصور المنطقة. يظن الناس أن ايت مرغاد سيحاولون استرجاع هذا القصر، هناك ما يدفع إلى الاعتقاد أن القتال وشيك الوقوع** »[3].

وانسجاما مع أهداف الرحلة، فهذه الشهادة توحي بأن سلطة المخزن غائبة، ومن وجهة نظر صاحبها، تعتبر "الحماية الفرنسية" ضرورة ملحة، بل مهمة حضارية إنسانية من شأنها إخراج سكان المنطقة من الفوضى التي تتخبط فيها.

1- تُطلق أسرير – فركلة على تجمع من ستة قصور هي ايت فرح وايت عيسى وايت حمو وايت بوحدو وايت بوتغساين وايت لبزم التي تقع على الضفة اليسرى لوادي فركلة محمد بوكبوط، **السلاطين العلويون والأمازيغ**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2005م، هامش رقم 2، ص. 14.

2- شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب**، ج 1، ص. 304 -305.

3- نفسه، ص. 305 -306.

3- "في قلب الأطلس" لدو سيكونزاك (1904-1905)[1]:

يحمل "دو سيكونزاك" (DE SEGONZAC) هو الآخر جنسية فرنسية، وقد وصل إلى المنطقة بعد رحلة "شارل دو فوكو" بعقدين من الزمن بهدف اكتشاف المناطق المجهولة عند الأوربيين، وتلك التي لم يستطع من سبقه عبورها، أو قدم بشأنها معطيات غير دقيقة.

ومن المعلومات التي أفاد بها "دو سيكونزاك" أن «**واد غريس يسقي واحة تحمل نفس الإسم، وتتكون من القصور الآتية: دشر الجديد، ماكمان (الذي بناه المخزن)، ايت يحيى اعثمان، اغرغر، ايت كطو، ازرارة، الحرث، كلميمة، ايت موش، تاكاترت، بوتنفيت، كاوز، الشرفاء، ايت مويحي، ايت يعقوب، خليل، ايت سيدي عمر، تونفيت (4 قصور)** »[2].

كما ذكر أنه في عهد السلطان مولاي الحسن الأول (1290-1312هـ/1873-1894م) تمّ بناء ساقية ماء لري الحقول المحيطة بقصر ماكمان[3]. وبما أن هذا القصر المخزني شُيّد بالقُرب من وادي غريس، بل ويُطلّ عليه، فقد سمي "ماكا" "مان" بمعنى ليس بينه وبين الماء فاصل أو حاجز، ولا يُستبعد أن يكون الغرض من بنائه هو التصدي لقبائل الرحل التي كانت تُشكل مصدر إزعاج لسلطة المخزن[4].

ولعل ما يدعم هذا الرأي أنه في عهد السلطان المولى سليمان (1206-1238هـ/ 1792-1822م) - الذي تنسب إليه الرواية الشفوية عتبة باب قصر ماكامان- وبالضبط «في عشية يوم الأربعاء 23 حجة [عام 1231هـ/ 1816م] ورد على رباط الفتح الطيب الداودي الطبجي وولد الحاج محمد صندال، أتيا من بلاد غريس كانا حاركين مع السلطان ببلاد غريس، وأخبرا بموت كبير البونبجية وهو الحاج محمد صندال»[5].

1- من أهم أعماله الجديرة بالترجمة من الفرنسية إلى العربية:

- Le Marquis DE SEGONZAC, **Voyages Au Maroc, 1899-1901** (Paris, Armand Colin, 1903), Et **Au Cœur De L 'Atlas: Mission Au Maroc, 1904-1905,** Préf. De M. Eugène Etienne Et Du Général Lyautey; Note De Géologie Et De Géographie Physique Louis Gentil (Paris, Larose, 1910).

2- DE SEGONZAC, **Au Cœur De l'Atlas**, Op. Cit, P. 491- 492.

3- Ibid, P. 77.

4- التقي العلوي، «أصول المغاربة – دور الاتحاديات الأطلسية، اتحادية ايت عطا»، **مجلة البحث العلمي**، العدد 23، 1974، صص. 115- 129، ص. 118.

5- الرباطي، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات - الرباط، 1986، ص. 399.

ومن خلال ما أشار إليه الناصري، فالمعركة التي خاضتها قوات السلطان، وقُتل فيها كبير سلاح المدفعية (البونبجية)، وقعت أثناء حصار ايت عطا لقصر الخُربات بفركلة[1]، وبعد الحصار المذكور رجعت القوات السلطانية إلى قصر مكامان بغريس، الذي أمر السلطان بتحصينه[2]، وعلى حد تعبير أحد الباحثين، فقد «تفادى السلطان المرور في المضايق الفاصلة بين الأطلس الكبير وكتلة صاغرو معقل قبائل ايت عطا»[3].

أما بواحة فركلة، فيذكر "دو سيكونزاك" أن زاوية سيدي الهواري، تعد أهم مركز لمريدي الطريقة الدرقاوية بالمنطقة[4]، كما أشار إلى وجود مركز لحرفيي الحدادة، يعمل به يهود وسود وعبيد تم استجلابهم من درعة إلى قصور كردميت وتغدوين وايت عاصم بفركلة[5]، فضلا عن سوق أسرير القريب من قصور الخربات، «**يُقام السوق بالحي اليهودي، في ساحة النيلة، ويتراوح عدد من فيه ما بين 2500 و3000 شخص. إنهم يبيعون الشموع والسكر والشاي والزبدة والزيت والتمر والحبوب واللحوم بأسعار أعلى بكثير من أسعار الأسواق الساحلية. وعلى العكس من ذلك، تُباع الماشية بأسعار منخفضة، خصوصا عندما يقل العشب والكلأ وتنتشر المجاعة بالجبال، ثمن الثور 30 بسيطة، والخروف 10 بسيطات**»[6]. ومن الملاحظات التي تعكس التسامح بين سكان المنطقة، وأثارت انتباه الرحالة "دو سيكونزاك" بالسوق المذكور؛ أن امرأة يهودية، هرب عنها زوجها، تملك متجرا لبيع التبغ و"الكيف"، من أجل تسديد ديونه، وإعالة أطفالها[7].

وخلاصة الكلام، نستطيع التأكيد أن المنطقة موضوع الدراسة لها موقع جغرافي متميز ضمن واحات الجنوب الشرقي للمغرب، وتسمياتها تنسجم مع خصائصها المجالية. وقد عرفت

1- الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب -الدار البيضاء، 1956م، الجزء الثامن، ص. 131.

2- مولاي الحسن اخروش، **المجتمع القبلي ودور الزوايا بالحوض الأعلى والأوسط لوادي غريس: من القرن 8هـ/14م إلى القرن 13هـ/19م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز-فاس، 2002-2003م (مرقونة)، ص: 185-186. نقلا عن **الكناشة السادسة للفقيه الحاج المعطي بن العربي**، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 205، ص. 25.

3- بوكبوط، **السلاطين العلويون والأمازيغ**، م س، ص. 99.

4- DE SEGONZAC, **Au Cœur De l'Atlas**, Op. Cit, P. 77.

5- Ibid, P. 81.

6- Ibid, P. 82.

7- Ibidem.

بأسماء التجمعات البشرية التي كانت تستوطنها مثل «مغرسه»، و«أمرغاد» الواردة في بعض المصنفات الجغرافية العربية التي ترجع إلى القرنين 4 – 5 هـ/ 10 – 11م، كما سميت بـ "أهل فركلة آيت فركلة"، و"أهل غريس آيت غريس" منذ عصر الموحدين على الأقل في كتب الأنساب. ولم يكن من اليسير الاقتصار على كتب الجغرافيا والرحلات وحدها في التعرف على جوانب من تاريخها.

والمؤكد أن كتب الرحلات الأجنبية المتأخرة استفادت من المصنفات الجغرافية العربية المعاصرة لها، وإذا كان أصحابها قد حرصوا على تحري الدقة عند وصف المجال الجغرافي (المكان) خدمة للإمبريالية الأوربية، فيصعب الاطمئنان إلى المعطيات المتعلقة بالسكان (الإنسان) لافتقارها في كثير من الأحيان إلى الموضوعية، خصوصا وأن معظم الرحلات الأجنبية ألفت في سياق تصاعد الضغوط الاستعمارية على المغرب.

لائحة المصادر والمراجع:

المصادر:

- البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة، تونس، 1992م.
- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م.
- البيدق (أبو بكر الصنهاجي)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971م.
- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي البغدادي)، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1992م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2000م.
- خليل بن إسحاق الجندي المالكي، **التوضيح: شرح مختصر ابن الحاجب**، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2012م.
- دو فوكو (شارل)، **التعرف على المغرب (1883- 1884)**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، البيضاء، ط 1، 1999م.
- الرباطي (محمد الضعيف)، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986م.
- ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي)، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، 1997م.
- الزياني (أبو القاسم)، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة ومطبعة المعارف الجديدة، طبعة 1991م.
- سبيلمان (القبطان جورج)، **ايت عطا الصحراء وتهدئة آفْلاً – نْ – دْرَا**، ترجمة وتعليق محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة رقم 10، مطبعة المعارف الجديدة، 2007م.

- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط 8، 2005م.
- كربخال (لويس دل مارمول)، **إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984م.
- المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، **رحلة المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي-المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2003م.
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم)، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة ومشكولة، دار المعارف، القاهرة، د ت.
- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956م.
- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي)، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط 2، 1983م.
- Le Marquis De Segonzac, **Au Cœur De L'Atlas : Mission Au Maroc, 1904-1905,** Préf. De M. Eugène Etienne Et Du Général Lyautey ; Note De Géologie Et De Géographie Physique Louis Gentil, Larose, Paris, 1910.

المراجع:

- اخروش (مولاي الحسن)، **المجتمع القبلي ودور الزوايا بالحوض الأعلى والأوسط لوادي غريس: من القرن 8هـ/14م إلى القرن 13هـ/19م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز-فاس، 2002-2003م (مرقونة).
- بنعبد الله (عبد العزيز)، **الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ**، دار نشر المعرفة، الرباط، ط 1، 2001م.
- بوكبوط (محمد)، **السلاطين العلويون والأمازيغ**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط 1، 2005م.
- جبران (مسعود)، **الرائد معجم لغوي عصري**، دار العلم للملايين، ط 7، 1992م.
- الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، 2004م.
- حافظي علوي (حسن)، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف، مطبعة فضالة، المحمدية، 1997م.
- الحجوي (محمد المهدي)، **حياة الوزان الفاسي وآثاره**، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1935م.
- حجي (محمد)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1978م،

- حميدة (عبد الرحمن)، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دار الفكر، دمشق، إصدار 1416هـ/ 1995م.

- زيادة (نقولا)، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1987م.

- العلوي (التقي)، «أصول المغاربة – دور الاتحاديات الأطلسية، اتحادية ايت عطا»، **مجلة البحث العلمي**، العدد 23، 1974، صص. 115- 129.

- العلوي القاسمي (هاشم)، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف القرن العاشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995م.

- الفندي (جمال)، **الجغرافيا عند المسلمين**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1982م.

- قنديل (فؤاد)، **أدب الرحلة في التراث العربي**، الدار العربية للكتاب، ط 2، 2002م.

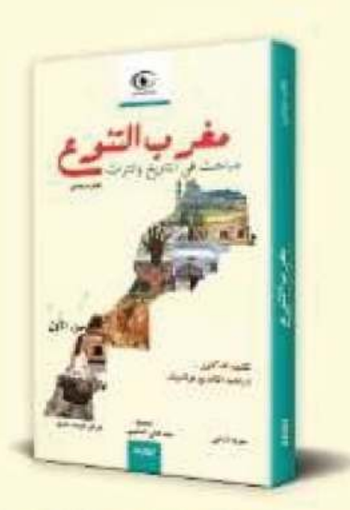
- كراتشكوفسكي (اغناطيوس يوليا نوفتش)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته ايغور بليايف، لجنة التأليف والترجمة، جامعة الدول العربية، 1957م.

- كريمي (ماجدة)، **آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا: من القرن 5هـ/11م إلى القرن 11هـ/14م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1415-1416هـ/ 1994-1995م (مرقونة).

- Larbi Mezzine, **Le Tafilalt: Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles**, Publications de la FLSH (Faculté des lettres et des Sciences Humaines), Rabat, 1987.

الفـــــهـــــرس

هذا الكتاب



"يتألف الكتاب من عشرة مقالات، اختار لها المساهمون عناوين دالة على أحداث ومجريات نحتت بصمات في تراثنا الثقافي عبر حقب تاريخية متنوعة ، مستندين في قراءتهم لهذا التراث الثري على أدب النوازل، والأدب الجغرافي وآداب الحسبة، وعلم الطوبونيميا، فضلا عن الوثائق المتنوعة المكتوبة والأثرية، مما جعل إسهاماتهم قراءة في التاريخ الصامت والرموز المغيّبة، وسدّا لبعض الفجوات والشقوق التي ظلت عالقة بتاريخ المغرب المهمّش الذي كان ينعته المقيم العام الفرنسي ليوطي "بالمغرب غير النافع". في حين أن هذه الأبحاث منحته صفته التاريخية الحقيقية، وهي مغرب الانفتاح، والطريق "الأم" لتفاعل الحضارات، بفضل ما تتميز به تلك المناطق الهامشية تاريخيا، من موقع استراتيجي يولّف بين كافة الكتل الحضارية".

د. إبراهيم القادري بوتشيش

مغرب التنوع

مباحث في التاريخ والتراث





